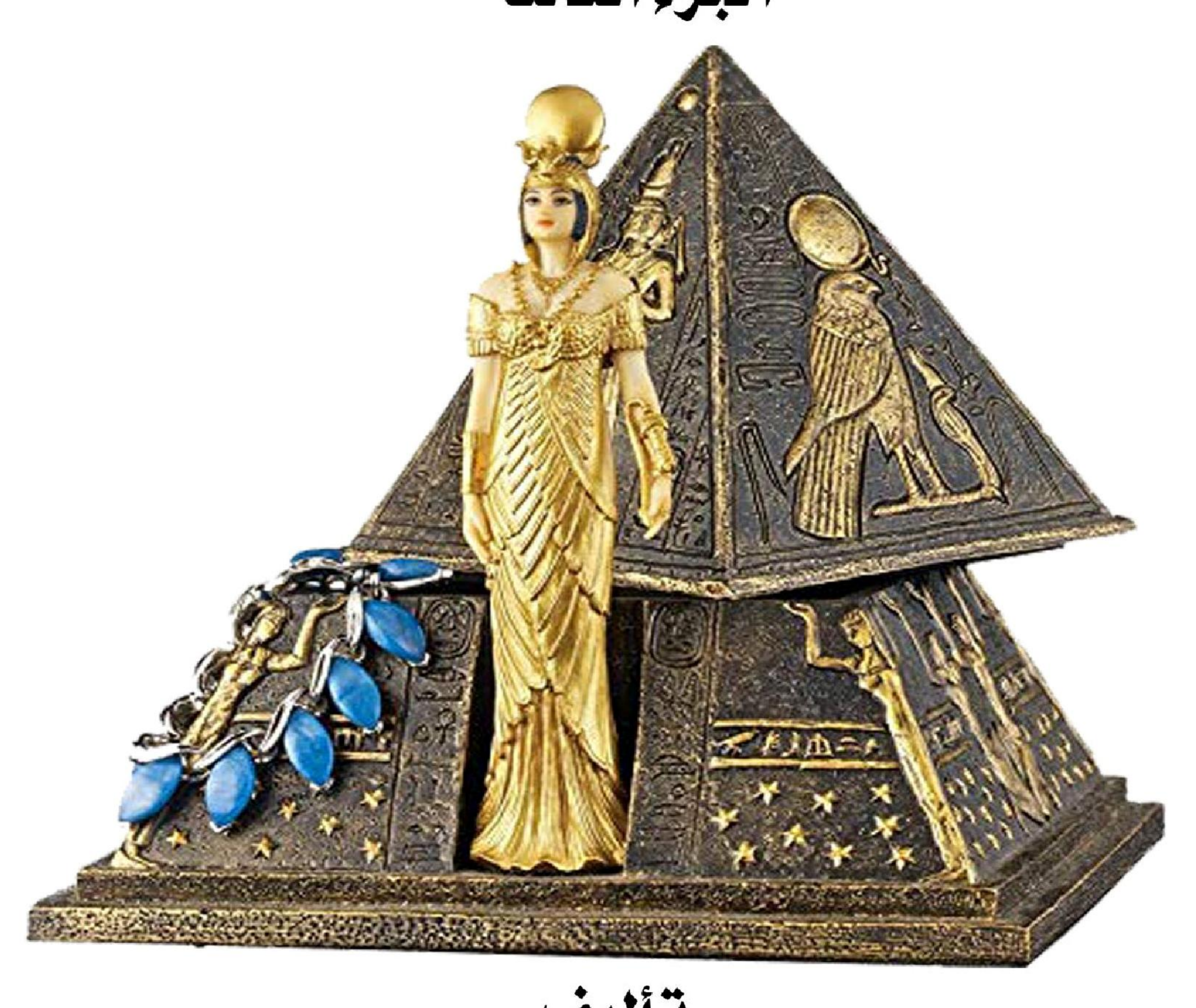
ظلال العقل العربي

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور التوسع الاستعماري

الجزء الثالث



تأليف

محمد مبروك أبو زيد

مستشار قانوني

باحث دكتوراه في التحكيم الدولي

ظلال العقل العربي

مسقط رأسي على حضارة العرب من منظور التوسع الاستعماري

الجزء الثالث

تأليف/ محمد مبروك أبو زيد

مستشار قانوني

باحث دكتوراه في التحكيم الدولي

First Version 2019 Egypt

Mr, Mohamed Mabrouk Abozaid

المحتويات

مقدمة ٣

الإضاءة الأولى: مسقط رأسي: بين الدين والحضارة ١٥

ـ بدء البعثة النبوية ٢٧

الإضاءة الثانية: ملخص وقائع الفتح العربي لمصر ٥٨

الإضاءة الثالثة: مسقط رأسي: كيف حكمت سلالة قريش إيجبت ٨٢

الإضاءة الرابعة: كيف نشر الصحابة الإسلام في مصر ١١٩

الإضاءة الخامسة: الفتوحات العربية؛ جرائم حرب أم عبادة؟ ١٤٤

ـ الفرق بين الإنسانية وجرائم الحرب ونشر الأديان ١٤٥

ـ نشر الدين الإسلامي في فارس والعراق ١٤٩

ـ نشر الإسلام في شمال إفريقيا ١٨٥

مقدمة

بداية، نوضح أن كلمة أقباط أو قبطي، تعني " جبتي" نسبة إلى إيجبت، ولكن العرب لا يجيدون نطق حرف الجيم فيقلبونه قاف، أما نحن فنجيد نطقه بلساننا الوطني، إذن كلمة قبطي هي كلمة أعجمية مُعربة عن الهيروغليفية، وصارت اصطلاح عربي، والأصل الصحيح لها هو "جبتي" وتعني هنا كل مصري يشعر بانتمائه الحقيقي لهذا البلد "إيجبت " الذي يرويه نهر النيل وينشر الطمي والخضرة على ضفاف الوادي، فلدينا الجبتي المسلم، والجبتي المسيحي. والدين أو العقيدة أمر مختلف عن العقيدة الوطنية تماما، فالعقيدة الوطنية " جبتي " والعقيدة الدينية مسلم أو مسيحي، والعقيدة الدينية تختص بالأمور الروحانية والعبودية، أما العقيدة الوطنية فتختص بالانتماء للبلد نفسه والدفاع عنه وملكية هذا الوطن.. أما العرب فالعقيدة الوطنية بالنسبة لهم إن وجدت فهي الدفاع عن الصحراء والخيام ومناطق الرعي في الحجاز.. ولا يمكن ولا ينبغي للأديان مهما تعددت أن تغير الانتماء الحضاري الوطني للإنسان وتجعله يترك وطنه والنهر وضفاف الوادي ليتعلق قلبه بصحراء وخيام العرب، فكلمة جبتي تعني مواطن من أهل إيجبت، جميع المواطنون جبتيون، سواء من اعتنق المسيحية أو اعتنق الإسلام، كما أوضح ذلك أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة، أحد كبار قادة المسلمين في مصر، خلال الخمسينات والستينات، وهو فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف الأسبق.

لقد تعرض الشعب الجبتي خلال تاريخه الطويل إلى أقصى ما يمكن أن يتعرض له أو أن يمر به شعب من شعوب الدنيا كلها، من المرارة والمعاناة والألم، بداية من الهكسوس العرب القدامى، مرورا الفرس واليونانيون والرومان ثم العرب مرة ثانية.. وكل ذلك طمعا في ثرواته، تعرض الجبتيين إلى عاملين مؤثرين خطيرين هما :

١ ـ مسخ الشخصية الجبتية وفقدان الهوية والانتماء الحقيقي لوطنهم.

٢ ـ تزييف التاريخ الجبتي وتزويره أو إهماله وتجاهله.

فبعدما ذبلت همتنا واستكانت عقليتنا الجمعية وانطفأت حضارتنا فقدنا الثقة بأنفسنا ووطننا وصرنا لا نذكر حتى تاريخ أجدادنا.. صرنا نفتخر بفتوحات الجيران وغزواتهم وبطولاتهم حتى انتصارهم على وطننا صار مفخرة لنا ! نسميه فتحا عربيا ! وكأن عقولنا انقلبت لتفكر بعقول الجيران ولصالحهم

وتتكلم بلسان حالهم ! ونحن متيمين بهم نجعلهم آباء الحضارة والدين .. بينما هم حفنة من الجهلاء لا أكثر، وكل ما في الأمر أننا هبطنا في مستوى جهلنا أكثر منهم، فصاروا هم القادة والزعماء ليس لأنهم زعماء ولكن لأننا عبيد..

لقد فرض الغزاة على الجبتيين التنكر لشخصيتهم الحضارية، وألبسوهم ثوبا غير ثوبهم، فرضوا بالإكراه على ألسنتهم لغة ليست لغتهم، جعلوهم يمارسون عادات ذميمة ليست عاداتهم، ينسبونهم إلى آباء الجاهلية والجهل الذين ليسوا هم في الحقيقة آبائهم، جعلوا كثيرين منهم بالإظلام الفكري أعداء أنفسهم وأعداء حضارتهم، لأنهم أصبحوا يجهلون قيمتها، وأصبحوا يقدسون تاريخ الجاهلية العربية باعتبارها منبع الإسلام، بينما الإسلام دين هو جزء من ثقافة الإنسان، أما الحضارة فهي كل ثقافته وهويته، وقد تنازل الجبتيون عن هويتهم وحضارتهم وقوميتهم ولغتهم وتاريخهم وقدسوا قومية العرب، والإنسان أحيانا يكون عدو ما يجهل.

وقع الجبتيون بعد ذلك في مشكلة تحديد هويتهم، وكما يذكر الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل، في أحد مقالاته الأسبوعية، بصراحة، في جريدة الأهرام سنة ٦٨ وتحت عنوان: "عن التجربة الديمقراطية في زماننا" كتب يقول: "إن النظام المصري وقع في مشكلة تحديد الهوية المصرية ولم يستطع لفترة طويلة أن يصل فيها إلى جواب، والهوية الوطنية بالنسبة للشعوب هي بطاقة تحقيق الشخصية بالنسبة للأفراد، وكانت النتيجة أن وقعت اهتزازات حضارية خلقت مواقف من الحيرة والتردد الطويل أمامها. وعلى سبيل المثال، فإنه في وقت من الأوقات، وخصوصا أيام الوحدة مع سوريا، كانت أي إشارة إلى تاريخ مصر الفرعوني القديم، تعتبر إساءة لا تغتفر أو هي سقطة تستوجب الاعتذار عنها". (!!)

والمؤثر الثاني الخطير الذي تعرض له الجبتيون، وهو محاولة تزييف تاريخهم وقلب حقائقه، أو تعمد إهماله وتجاهله، وأحد أمثلة هذا التزييف وقلب الحقائق، هو موضوع الفتح العربي لمصر، كما يحلو للكتاب العرب دائما أن يعرضوه، أما موضوع التجاهل والإهمال للتاريخ الجبتي، والحضارة الجبتية، عن عمد، وبقصد وإصرار، فإنه لا يزال يتضح من مواقف كثيرة متكررة، فمثلا، أليس من الغريب أن تضم جميع جامعات العالم المتحضر تقريبا أقساما في كلياتها لدراسة مواد علم الجبتيات، ما عدا إيجبت! بينما كل جامعاتها تفتح أقساما كاملة للتاريخ العربي والأموي والعباسي والجاهلي! باعتبار ذلك منبع الدين ! هو بالفعل جلب لنا الإسلام لكنه لم يجلب لنا الحضارة، بل طمس كل ملامح الحضارة لأننا لم نعتنق الإسلام حقيقة وإنما تحولنا واعتنقنا العقلية والهوية العربية وصرنا جزءا منها. ! نحن في عصرنا

الحالي نعيش عصرا أشبه بعصر أبسماتك الثالث الذي احتل الفرس بلادنا في عهده ولم يقو هو على التجرؤ في وجه الاحتلال الفارسي فخضع لهم واستسلم واقتنع بأفكارهم !

والغريب أننا ما زلنا إلى اليوم نسميه فتحا إسلاميا ! برغم أن العرب لم ينشروا الإسلام في بلادنا فعليا، لقد انتشر فقط بنسبة ٢٪ بين الجبتيين خلال ١٠٠ سنة كاملة، ما يعني أن دخول العرب كان عقبة حقيقية أمام انتشار الإسلام، لأن الجبتيين كان بعضهم اعتنق الإسلام قبل دخول العرب، فلو لم يدخل العرب لكانت هذه النسبة قد تضاعفت خلال وقت وجيز، فالمسيحية انتشرت في إيجبت بالكامل خلال ٥٠ سنة فقط على يد رجل واحد هو مرقص الذي جاء من فلسطين حاملا نسخة من الإنجيل، لأن شعبنا شعب طيب وعابد بالفطرة، بينما الصحابة العرب وصل عددهم أكثر من عشرين ألف وانتشر الإسلام فقط بنسبة ٢٪ خلال ١٠٠ سنة ! ما يؤكد أن العقبة أمام انتشار الإسلام في بلادنا كان هو دخول الصحابة العرب، لأن المعاملة السيئة والعنصرية التي مارسها العرب في بلادنا كانت أكبر عقبة أمام انتشار الإسلام في هذا البلد. ومع ذلك ما زلنا نحتفي باحتلال العرب بلادنا ونسميه فتحا ! برغم أن أحفاد هؤلاء الصحابة العرب يعترفون ويقرون بأنه كان غزوا واحتلالا.

لدرجة أنني كنت أتحاور مع شاب سعودي على موقع التواصل الاجتماعي تويتر، وتجادلنا حول موضوع الهوية والقومية العربية التي غمرت الحضارة الجبتية وطمرتها في رمال الصحراء العربية.. قال لي أن العرب أيضا أصحاب حضارة ولديهم تراث أدبي ولغوي عظيم ، فقلت له " كنتم تتقرعون ضفائر الشِعر وأنتم تهرولون خلف الماعز في الصحراء وتسكنون الخيام المبنية بجلد البعير، لأن الأدب ليس من أنواع المعرفة المنتجة التي تؤدي إلى توليد أو استنبات حضارة وعمارة وعلوم، أي لا يرتقي بالإنسان ولا يغير من أوضاعه الاجتماعية، وإن ارتقى بمشاعر فتظل مشاعر نظرية بحتة، ولا تترك أي أثر عملي على الإنسان.. ولما قامت دولتكم قامت على الغزو والسلب والنهب وسبي النساء واغتصابهم وبيعهم في أسواق النخاسة واحتلال أوطان الشعوب لتحصيل جزية وخراج وإتاوات وكانت هذه مصدر الدخل القومي الوحيد الذي قامت عليه دولة العرب، فقال: " قل ما شئت هههههه المهم أننا دخلنا عليكم ونكحنا نسائكم ومحونا تاريخكم ولغتكم وفرضنا عليكم لغتنا وحضارتنا رغما عنكم لأننا الأقوى ههههه ".

وبرغم كل هذه البجاحة التي يعترف بها حفيد الصحابة الكرام، إلا أننا ما زلنا نقدس أفعالهم الإجرامية في بلدنا ونعتبرها فتحا إسلاميا ..!! بل إنني كنت أتحدث إلى صديق (صعيدي) كان أستاذا

للغة العربية في المدارس الثانوية المصرية، ويبدو من ملامحه أنه مصري قبطي حتى النخاع نبت من جنس الطمي المصري، ولون وجهه الخمري وملامحه تؤكد بيقين أنه يحمل الصفات الوراثية للمصريين القدماء، ولا يشبه أبدا عرب الحجاز، وعندما سألته عن أصله أسرع بأن أصوله تعود إلى قبائل عرب الحجاز الفاتحين.. قال لي بفخرٍ ظهر على كتفه:" أنا فاتحيّ ".. وأن عائلته تمتد إلى العرب الذين جاؤا مع الفتح.. ثم تحدثت إليه خمس دقائق عن الفارق بين العقلية العربية والعقلية المصرية الأصيلة، وأن العقلية العربية أدبية بحتة وحرفتها وصنعتها البلاغة والبيان والعروض والشعر وصنعة الكلام النظري والضفائر اللغوية، بينما العقلية المصرية القبطية علمية عملية تطبيقية بحتة، وليس من نشاطاتها البلاغة والفصاحة ولا البناء اللغوي كأساس ولا التلاعب بالكلام والتورية والمجاز..إلخ.

فسألني عن أصلي، وهل عربي أم قبطي، فقلت له لن أجيبك حتى لا تظن أنني أنظر إلى الأمر بنظرة عرقية عنصرية، فقال: لا.. أنت فعلا تثقب زوايا علمية خطيرة في أركان بعيدة عن الوعي، وترصدها بمنظور علمي حقيقي وليس عنصري.. ثم أطرق في نفسه وقال لي: إن غالبيتنا ينسب نفسه إلى قبائل العرب الفاتحين دون أن يكون منهم، بل هو فقط يتشرف بذلك، ولا أحد يدرك هذه النقطة التي أثرتها الآن.. (وهنا أدركت أن أصله ليس عربي فاتحي كما قال أول اللقاء).. ثم سألني ثانية: هل أنت قبطي أم عربي؟ فقلت له أنا قبطي ودون أن تسألني عن تحليل الحمض النووي أو قائمة الأنساب، فقط لأن أهلي أصولهم كانت مسيحية منذ ألف عام، في حين أن العرب المهاجرين جميعهم مسلمين، ولم تكن أصولهم مسيحية، كانوا كفار ووثنيين ثم اعتنقوا الإسلام، ما يعني أن كل العرب المهاجرين مسلمين فقط، لكن لماذا تسأل عن أصلي؟ أنا أتحدث من منظور علمي وليس عرقي أو عنصري، فقال: بالفعل أنا في بلدتنا في الصعيد إن أجريت حصرا للسكان ستجد متوسط خمسة آلاف نسمة، منهم ألفي مسيحي ربعهم على الأقل أطباء، والآخرين حرفيين مهرة، ما يعني أن توجهاتهم الذهنية (علمية عملية تطبيقية) بينما المسلمين يتسكعون بين النواصي والمقاهي.. وليس ذلك شرطا أن تكون أصولهم عربية، بل هم فقط اعتنقوا العقلية العربية وانتسبوا إليها وغمرتهم ثقافتها وطريقة تفكيرها، فتاهوا بلا هوية حقيقية...

اعتبروا قدوتهم وقادتهم عمر وعثمان، بينما عمر وعثمان أسسا دولة على بيت المال الحرام، فالدولة العربية العظيمة التي أسسها عمر ابن الخطاب لم يكن فيها مكتبة عامة، ولم يكن فيها مشروعات قومية ولا صناعة ولا إنتاج ولا تعمير، فقط مصدر الدخل القومي الوحيد كان هو عوائد الجيش من

الخارج من سبي وسلب ونهب وعوائد أسواق النخاسة، أي كان العنصر الإنتاجي الوحيد لدولة العرب هو الجيش والإغارة ! وجميع موارد الدخل القومي كانت من الخارج ولم يكن هناك مصدر إنتاج واحد من داخل الحجاز مكة والمدينة، ولطما تشبعنا بهذه العقلية العربية، فمن الطبيعي أن تنتشر البطالة في بلادنا وتتعطل عقولنا عن العمل والبناء والإنتاج لأننا نتخذ قدوة من أناس لم يكن لهم عمل ولا بناء ولا إنتاج إنما فقط سبي ونكاح وإغارة!

إن الأمر جد ثقيل ومستعصٍ على الحكم، والتساؤل والجواب أصعب.. فهل كان الصحابة الكرام الذين طالما اعتبرناهم على مدار حقب تاريخية طويلة، اعتبرناهم آباء روحيين ونماذج قدوة ورموز دينية مقدسة، فهل تنقلب قناعتنا هذه بهم إلى أن نعتبرهم مجرد مجرمي حرب احتلوا بلادنا ! هل الأمر يصل إلى هذه الدرجة ! وهل نظل مع ذلك مسلمين متمسكين بالإسلام ! فالقناعة هنا لا تتعرض لمجرد التحريك والتعديل، إنما تنقلب من النقيض إلى النقيض، ما قد يتسبب في دوامة عقلية وارتباك في الوعي، فهل من كانوا قدوة حسنة على مدار التاريخ يصبحون مجرمي حرب مذمومين ! .. هذه النظرية الخطيرة لا يمكن تصورها إلا بإعلاء عدسة الرصد فوق قمة الهرم، بحيث ننظر إلى القومية العربية من علٍ، ننظر إلى القومية العربية ككل وليس لأفراد التفوا حول النبي ودافعوا عنه لقناعتهم بنبوته، لأن هؤلاء الأفراد فرادى ولا يمثلون القومية العربية ولم يكونوا هم المتحكم الفعلي في صيرورة الأمور، غير أن الأفراد أنفسهم الذين صاحبوا النبي ليسو بمنأى عن الانحراف ولا عصمة لهم، لأن نسيجهم الذهني والنفسي ليس طاهرا بالفطرة وإنما كان ملوثا وتعاطى جرعة علاجية، وليس هناك ما يضمن عدم تأثرهم بمحيطهم الاجتماعي القرشي الفاسد الذي نشأوا فيه. وهم يختلفون عن النبي لأن النبي طاهر النشأة.

والهدف من هذا البحث هو محاولة إظهار الحقيقة مهما كانت مؤلمة، فهذا خير من مزيد من جرعات المسَكّن وتقديم الصور المزيفة مهما كانت جميلة. ونحن لا نهدف من وراء هذه الكتابة إلى تشويه صورة الصحابة الكرام وتحويلهم من فاتحين مجاهدين إلى غزاة محتلين، بما يشوه الصورة الروحانية الجميلة التي حملناها في قلوبنا لهؤلاء الصحابة، بل إن غاية البحث أسمى من ذلك، وهي علاج نفوسنا المريضة التي رأت من جرائم الحرب عبادة وخدمة لله ! وما زالت ترى أن وسيلة نشر الدين تكون بإخضاع الغير عنوة وإكراهه على دفع جزية أو العيش ذليلا، بينما حقيقة الإسلام أسمى من ذلك، فهو الأقوى بين الأديان، والقوي دائما ما يتسم بالعطاء وتوزيع الرحمة على من حوله، لكننا لا ندرك هذه المزية العظمى في الإسلام لأننا اعتنقنا الإسلام بمنظور الصحابة الذين أجرموا في حقنا وحق شعبنا وبلادنا، فصرنا نحن

نقدس مبادئهم أكثر من مبادئ الإسلام نفسه، بل لا نرى الإسلام بغير العيون التي رأوه بها ! ولا يخالجنا شك في أنهم أخطأوا أو انحرفوا، وهذا يعني أننا نعبد الله وفق رؤية العرب وبصياغتهم لدينه وكما تصورته العقلية العربية بعد رحيل النبي عنهم، برغم أنهم كانوا مرضى عقائديا وفكريا وأخلاقيا جاء النبي ليعالجهم ورحل، فتعاملنا معهم ليس بصفتهم مرضى تلقوا جرعات علاجية، ولكن بصفتهم أطباء استشاريين ! فصار لهم الكلمة العليا على دين الله !

أتمنى أن نقلع تماما عن عادة تعاطي الأكاذيب وتزييف الحقائق لنصبح قادرين على مواجهة مشاكلنا بوعي وإيجاد الحلول الحقيقية والواقعية لها، لنثبت أننا أبناء إيجبت العريقة، التي تعيش فينا حتى وإن كنا لا نعيش فيها... ففي أحد الأيام كنا على هامش لقاء وسألني محام وصديق جزائري عن سبب انتقاداتي المستمرة للقومية والعقلية والثقافة العربية، وقال: بلدكم الآن إيجبت من الذي يحكمها، الفراعنة أم العرب ؟ فقلت له: " سياسيا يحكمها الفراعنة، وفكريا يحكمها العرب "... وكنت أعني بكلامي أننا فعليا نفكر بعقول عربية، ولو فكرنا لحظة بعقول جبتية لكنا قد بنينا أو شرعنا في بناء حضارة كالتي بناها أجدادنا القدماء.

وفي هذا الكتاب سنحاول التقاط خيوط الأحداث من أكثر من طرف كي نصل إلى حقيقة الأحداث، ولا يمكن إصدار حكم جنائي بحق الصحابة المتهمين بدون سماع إقرار المجني عليهم، لأن المتهم بطبيعة الحال سيلقي بالذنب على المجني عليه دفعا للتهمة عنه.. إذن لدينا شهادة المجني عليهم، واعترافات الجناة، وشهود أجانب حياديين بعيدا عن الطرفين المختصمين. سنحاول النبش في بعض المصادر التاريخية العربية الإسلامية لنعتمد الدليل منها أكثر من غيرها كي يكون الحكم في النهاية قائما على إقرارات المتهم نفسه، ومن سجلاته الوطنية التي دونها عن بلادنا.

ومن خلال ربط هذه الجوانب الثلاثة ببعضها يمكن أن يفيد كثيرا في إجلاء الحقائق. ولكي تتكامل الصورة التاريخية الحقيقية وتتضح معالمها دون تزييف أو تمويع وبلا أقنعة لإخفائها، فإنه من الأهمية بمكان أن نستند إلى ثلاثة أنواع من المصادر التاريخية التي تناولت هذا الموضوع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهذه المصادر التاريخية الثلاثة هي:

١ـ مصادر إسلامية عربيه (ليشهد شاهد من أهلهم)

٢ـ مصادر قبطية (شهادة المجني عليهم)

٣ـ مصادر أجنبية (شهادة شاهد خبير طرف محايد)

والمصادر العربية الإسلامية في هذا الموضوع من أهمها: كتابات ابن عبد الحكم وكتابات المقريزي الملقب بشيخ مؤرخي مصر الإسلامية وعميد المؤرخين السالفين جميعا، من ابن الحكم إلى الجبرتي، كما يصفه الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زياده وآخرون في مجموعة أبحاث ودراسات عن المقريزي أصدرتها وزارة الثقافة ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م. وكذلك مجموعة كتب أخرى هامة مثل كتاب تاريخ أديرة وادي النطرون للأمير عمر طوسون ـ طبع في القاهرة سنة ١٩٣٥م. وكتاب الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ـ أستاذة التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس وكتب الدكتور ضياء الدين الريس، وغيرهم، ومقالات عديدة للدكتور أحمد صبحي منصور منشورة على موقع أهل القرآن، ومقالات أخرى لكتاب هواة على موقع الحوار المتمدن.

ومن المصادر القبطية لهذا الموضوع كتاب تاريخ إيجبت ليوحنا النقيوسى، رؤية قبطية للفتح الإسلامي" ـ باعتبار مؤلفه شاهد عيان وقد عاصر مأساة الفتح العربي لإيجبت في القرن السابع الميلادي، وسجل مشاهداته لأحداثها الدامية. وقد كتب كتابه باللغة العربية، وهذا ما يثير الشك حول هوية مؤلف الكتاب ويرجح في نظرنا أن مؤلفه كان يهوديا متنكرا، لكن عل كل حال فقد حوى الكتاب وصفا لوقائع حقيقية ذكرتها مصادر أخرى يمكن المقارنة بها.. وقد عثرت البعثة البريطانية إلى بلاد الحبشة على النسخة الحبشية من هذا الكتاب، وتوجد الآن في المتحف البريطاني بلندن، ونسخة في المكتبة الأهلية بباريس، وقام المستشرق زوتنبرج بالترجمة من الحبشية إلى الفرنسية، ثم قام المؤرخ كامل صالح نخله بالترجمة من الفرنسية إلى العربية سنة ١٩٤٨م، ثم قام الدكتور عمر صابر عبد الجليل أستاذ اللسانيات والترجمة بكلية آداب جامعة القاهرة بترجمة هذه المخطوطة عن النسخة الحبشية مباشرة، وهي التي بين أيدينا. وكذلك كتاب تاريخ البطاركة للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين، وكتاب الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة للأسقف ايسوذورس، وكتاب البابا بنيامين الأول والفتح العربي لمصر، للمؤرخ كامل صالح نخلة وغيرهم. لكننا سنضطر لاستبعاد المصادر القبطية هذه حتى لا نتهم من إخواننا في الدين والعقيدة، وسنعتد على المصادر العربية الإسلامية والمصادر الأجنبية كطرف محايد.

والمصادر الأجنبية التي تناولت هذا الموضوع أهمها كتاب فتح العرب لمصر تأليف الدكتور ألفريد بتلر، وتعريب محمد فريد أبو حديد بك، والناشر مكتبة مدبولى ـ القاهرة ١٩٩٠ ضمن سلسلة

كتب صفحة من تاريخ مصر. وقد وصف المعرّب في مقدمة الكتاب بأن المؤلف ألفريد بتلر رجل باحث لم يقصد من تأليفه كتابه إلا بيان الحقيقة ناصعة وأنه كان نزيها في بحثه، وأن المؤلف فضل التعرض لبعض مفتريات التاريخ كانت شائعة بين الناس يأخذونها تلقفا بغير تمحيص، وأنه تناول في بحثه مسألة طالما رددها المؤرخون وهي اتهام المصريين القبط بأنهم كانوا دائما يرحبون بالغزاة الأجانب وأظهر كذب ما ادعاه المغرضون من المؤرخين. ـ صفحة ٢٠

ويقول المؤلف نفسه في مقدمته : " قد حاولنا كذلك أن نكتب بغير تحيز إلى جانب القبط أو العرب، كنا ممن يحملون لكلا الشعبين العربي والقبطي أكبر الإعجاب ، على أننا لا يحملنا ذلك على الانحياز لأحدهم فما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق". ـ ص ٤٣،٤٢، وهذا الكتاب لم يأت بشيء من خارج السجلات العربية الإسلامية، إنما هو أعاد قراءتها وترتيب أحداثها وربطها ببعضها كي تعطي مشهدا عن الحالة الواقعية التي حدثت خلال مرحلة الفتح هذه.

وبوجهٍ عام سنحاول رصد الفكر العربي الإسلامي الذي ضخه الصحابة العرب في بلادنا من منظورين معا، المنظور الأول هو المنظور الحضاري وما إذا كان الإسلام كدين جاء ضد الحياة فشجع على الموت ونبذ الاستمتاع بحياة راقية، وجاء ضد الحضارة باعتبارها عرضا زائلا من أعراض الدنيا قليلة القيمة، بينما حبذ الآخرة باعتبارها دار البقاء وحدها.. أي سنتساءل عن الوضع الحضاري للصحابة العرب والوضع الديني وأيهما كانوا يفضلون، هل كانوا يفضلون الآخرة على الدنيا ؟! فلماذا إذن اهتموا بالسبايا وخطف النساء ! أليست هذه متعة دنيوية ! وهل كان أجدادنا المسيحيون في مصر يمارسون عادة سبي النساء ؟ أم أنهم كانوا أطهر من الصحابة العرب ! فلم يذكر لنا التاريخ أن أجدادنا الأقباط سبوا واحدة من فتيات الصحابة العرب واغتصبوها ! ونتساءل أيضا هل كانت عادة خطف النساء واغتصابهم شعيرة دينية موجودة في كل الأديان؟ والإسلام كذلك ! أم أنها من ممارسات الصحابة العرب ؟

وأما المنظور الثاني فهو المنظور الإنساني، وهل جاء الإسلام للقضاء على البشرية من أجل إحلال الشريعة الإسلامية في الأرض ؟ أم أنه جاء منافسا برقيه الروحي وتسامحه مع الأديان الأخرى؟ وهل هناك مفاضلة بين الدين والوطن؟ أي هل يمكن تخيير إنسان بين دينه أو وطنه ؟!

ولماذا كل دخول أجنبي نسميه احتلال بينما الدخول العربي نسميه فتح ! لأنه جلب إلينا الدين ؟! وهل الدين يقلب المعايير الوطنية من احتلال إلى فتح ! فما حدث مع عمرو ابن العاص في دخول مصر هو

ذاته ما حدث مع نابليون في دخوله مصر إذ أنه أعلن إسلامه وادعى أنه إنما جاء ليحررنا من الاحتلال العثماني ولهذا لم يقاومه المصريون، فلماذا لم نسمه فتحا فرنسيا ؟

ولكي أكون صادقا مع قارئي العزيز، فأنا أؤمن بالله.. أؤمن بالرسول، وأؤمن بالقرآن.. أؤمن بالسنة النبوية، ولا أؤمن بالصحابة، فلا اعتبرهم جزءا من ديني، ولا صلة لهم بإيماني بالله، لأنهم كانوا قوما فاسقين وجاء الإسلام لعلاجهم، بعضهم استجاب لجرعات العلاج وبعضهم بقي على حاله وبعضهم تخفى في عباءة الإسلام، وكثير منهم نقحت عليه طبيعة المنشأ والتربة الاجتماعية والبيئة الثقافية الجاهلية التي نشأوا فيها، ما يعني تحول تصرفاتهم بعد وفاة الرسول مباشرة من تصرفات توافق منهج رسول الله إلى تصرفات تتفق مع الطبيعة الأصلية للمجتمع العربي.. وأيا كان الحال، سواء توافقت تصرفاتهم مع الإسلام أو لم تتوافق، فهم ليسو جزءا من الدين، لأن الدين نزل من السماء كاملا ولم يكن بحاجة لتكملة من هؤلاء المرضى الذين جاء لعلاجهم.. وما يثبت أنه جاء لعلاجهم تحديدا، هو أننا نحن الأقباط كان عددنا في عصر نزول القرآن يفوق السبعة ملايين نسمة نتحدث اللغة الهيروغليفية، وندين بالمسيحية، بينما الصحابة العرب كانوا مائة ألف مشرك وكافر وزنديق يتصعلكون في الصحارى، فهل من العدل أن ينزل الله القرآن بلغة الأقلية (العربان) ولا ينزله بلغة الأغلبية (الهيروغليفية) ؟! إلا إذا كان القرآن قد ركز على أولوية علاج القومية العربية المريضة ، وإذا كان هذا دليل على مرض القومية العربية وأولويتها في العلاج، فكيف يتحول الصحابة العرب من مرضى لهم أولوية العلاج إلى أطباء استشاريين يفرضون على الناس العلاج بالكيفية التي يرونها ! فبالطبع لو جاء العلاج بنتيجة تصل إلى ١٠٠٪ ، فهذا معناه أنهم تعافوا من المرض، لكن لم يتحولوا إلى أطباء استشاريين بأي حال.

وأما المشكلة الأكبر، فهي أن تعلق قلوبنا بالصحابة لن يزيد إيماننا لأن الإيمان هو تعلق القلب بالله خالقه، وليس بأشخاص الصحابة صلة بهذه العلاقة المقدسة بين العبد وربه، أما تعلق قلوبنا بالصحابة فلن يجلب لنا سوى ثقافة العرب وتارخهم الهمجي ومخزونهم الثقافي الأدبي وهذا النوع من الثقافة غير منتج مع العقلية القبطية لأنها علمية عملية تطبيقية، بل إن تعلقنا بفكر العرب وثقافتهم ولغتهم لهو طمس مباشر لثقافتنا ولغتنا وعقليتنا، والإسلام جاء ليعالج العقلية العربية لا ليطمس بها العقليات العلمية..

ثم أننا إذا تساءلنا عن علاقة الصحابة أصلا بالإسلام، فلن نجد هناك أي صلة لهم به، حتى وإن كانت أعمالهم وتصرفاتهم صحيحة من الناحية الشرعية، فماذا تمثل بالنسبة للإسلام ؟! فالإسلام مبادئ،

والمبادئ تشتق منها قواعد، ومعروف أن القواعد متغيرة لكن المبادئ لا تتغير، فما بالنا بالتصرفات المترتبة على القواعد ذاتها ! بالطبع فإن حذفها وعدم الاعتداد بها لن يضرنا في شيء حتى وإن كانت صحيحة.. وإن كان الصحابة العرب قد ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الدفاع عن الدين والنبي، فهذا لا يجعل منهم أوصياء على عقائدنا وأفكارنا، لأنهم ضحوا للدفاع عن مورد العلاج الروحاني لهم، وكل واحد منهم أخذ أجره من ربه مباشرة سواء كان مخلصا أو منافقا، ولا دخل لنا بهذا الأمر، بل إننا ضحينا بما يجاوز الخمسة وثلاثين ألف شهيد في أكتوبر للدفاع عن أرض الوطن، أما الصحابة العرب فقد قدموا فقط ما يقارب ١٢٣ شهيد للدفاع عن الدين في المعارك والغزوات التي شنها أهالي هؤلاء الصحابة ضد الدين.. وأيا كان الأمر، فمعدل التضحية ١٢٣ إلى ٣٥ ألف شهيد .. لا مقارنة، لا أفضلية لهؤلاء الصحابة العرب على أبناء شعبنا الذين ضحوا بأكثر منهم للدفاع عن الوطن، وضحوا بأكثر منهم في حرب ١٩٤٨ للدفاع عن المسجد الأقصى في حين كان أحفاد الصحابة العرب (السعوديين) يتعاونون مع الإسرائيليين ضد الدين ومقدساته، وبطبيعة الحال، البذرة الطيبة لا تنبت إلا بذرة طيبة، والبذرة الخبيثة لا تنبت إلا خبث..

بالإضافة إلى المساحة الكبيرة جدا التي تنشغل في أذهاننا بتراث وتاريخ وأدب العرب وهي ثقافة غير منتجة في بلادنا وغير منتجة خاصة مع العقلية القبطية، فالعقلية القبطية تدمن العمل والبناء والإنتاج لا الشعر والبلاغة والفصاحة والبيان والضفائر الشعرية والألغاز اللغوية مثل العرب.

وهناك إشكاليات أخرى سنتعرض لها، مثل قول الأشاوس السلفية أن الصحابة بذلوا مجهودا خرافيا في الجهاد لنشر الدين في الفتوحات، وأنهم جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فيرد الأزهر: لا لا ، الإسلام لم ينتشر بالسيوف، وإنما انتشر بالدعوة إلى الله بالحكمة والمعاملة الحسنة للتجار في إندونيسيا وجنوب شرق أسيا... ما يعني مباشرة أن الفتوحات لم تكن جهاد وإنما كانت جرائم حرب غير إنسانية.. ما قد يخرج الصحابة أنفسهم عن دائرة الإسلام ويعتبرهم عبئا على الدين وليس سدنة له بأي حال، بل استخدموا الدين كشعار لتوفير مصدر دخل لهم من عوائد السبي والنخاسة والسلب والنهب. فقد كانت حالتهم مستعصية على العلاج ولم تأت الجرعات العلاجية أثرها كاملا فارتدت آثار البيئة والنشأة العربية القرشية الجاهلية، ما أثر سلبا على التراث المعرفي الذي كان متداولا في عصرهم واستمر حتى عصرنا.

فكيف ندرك أن أحب الناس إلى قلوبنا هم سبب تخلفنا وجهلنا وتأخرنا الحضاري؟ هل توقع أحدنا من قبل أن حبنا للصحابة الكرام هو سبب تخلفنا ؟ بالطبع لا ولكننا سنحاول النبش في هذا الحب

العميق في قلوبنا ومصدره، فالحب ليس شرطا أن يكون صحيحا أو قائما على سبب موضوعي، بل من الممكن أن نجد إنسان يحب سيدة عاهرة أو راقصة كما حال الشاعر المصري إبراهيم ناجي، وقد ظل خاضعا ذليلا لها ينتظر لقاءها خلسة من والده برغم أنه طبيب عظيم وهي راقصة دنيئة !، لكن هل فعلا حبنا للصحابة كان من هذا النوع؟ وهل يعمي عقولنا عن رؤية الحقائق ! وهل فعلا كانوا أشرار لهذه الدرجة الخطيرة ؟ وهل هم فعلا كانوا عبء على الإسلام؟ فالواقع أن دخول العرب بلادنا كان عقبة كبرى أمام انتشار الإسلام لأنهم سيطروا على الشعب وقمعوه بالقوة العسكرية وكبلوه بالأعباء الاقتصادية والمعاملة العنصرية الفجة، وهذه الأمور بطبيعتها تنفر من دين هؤلاء المحتلين بالطبع، بينما لو كان الأقباط في حرية سياسية وعسكرية عن العرب لما تأخر اعتناقهم للإسلام إلى ٤٠٠ سنة كاملة. بل إن الشعب الإندونسي الذي لم تدخله جيوش الصحابة اعتنق الإسلام بنسبة أعلى من الشعب المصري ! فقط لأنه لم يتعرض لمعاملة الصحابة ولم يكره الإسلام بسببهم كما حدث في إيجبت.



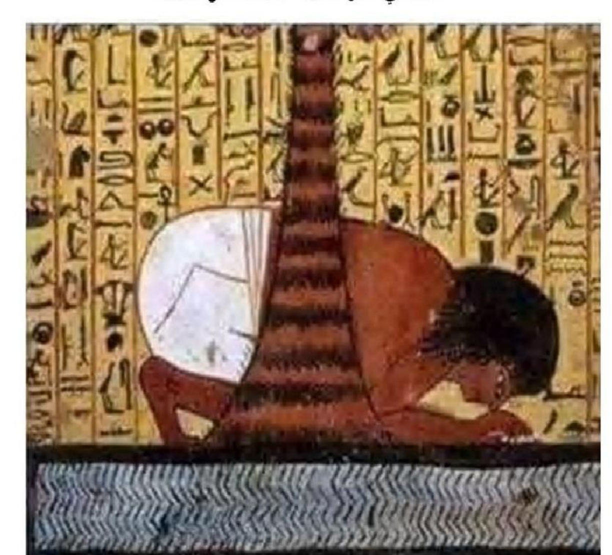
الإضاءة الأولى

مسقط رأسي: بين الدين والحضارة

يتلخص هذا المسقط من رؤية علوية تلقي الضوء على حجم الحضارة التي كانت في إيجبت بالتزامن مع حجم التأخر العقلي والفساد العقائدي والشرك وحياة الصعلقة وفنون الإغارة والدعارة التي كان يعيشها العرب في الصحراء على أطراف الحضارة الجبتية، وفي هذا الطرف بدأت بعثة النبي محمد في شبه الجزيرة، وعلى أثرها تمكن أعراب الصحراء من القفز على الحضارة الجبتية.

منذ فجر التاريخ وما لا نستطيع تأريخه، كان الجبتيون عباقرة في كافة جوانب الحياة، سبقوا جميع الشعوب والحضارات في ابتكار الأدوات التي تمكنهم من أداء أغراضهم في الحياة، اكتشفوا الزراعة وأبدعوا في احترافها.. احترفوا صناعة الورق وأبدعوا في تدوين العلوم والمعارف والإنجازات الحضارية.. اكتشفوا الكواكب والنجوم وعرفوا الكثير عن المنظومة الفلكية التي تدور حولنا.. شيدوا المعابد والقصور والأهرامات.. حفروا الترع والقنوات وأنشأوا السدود والأحواض على نهر النيل لحجز المياه.. كانوا بارعين في استغلال معطيات البيئة المحيطة بهم وتسخير إمكاناتها لبنا الحضارة.. وتتابع على حكم إيجبت القديمة ٣١ أسرة ملكية جبتية تداولوا السلطة تباعا وفي هدوء وسلام.. وكان الملوك العظماء يدونون إنجازاتهم على جدران القصور والمعابد والمقابر..كان لكل ملكٍ خاتمه الرسمي، وكان لديهم تنظيم وهيكل إداري كامل للدولة بالمفهوم العصري الحديث.. وكان مقر العاصمة يدور في منطقة القاهرة وما حولها.. وعلى مدار حقب التاريخ الفرعوني كان البر الغربي لنهر النيل هو وادي دفن الملوك، خاصة وادي الملوك والملكات، وأهرامات الجيزة .. وفي بداية الأمر كان التحنيط للملوك والكهنة والأغنياء فقط، لكن فيما بعد شكل أجدادنا الجبتيون جمعياتٍ تعاونية لجمع أقساط موسمية لتأمين تكلفة التحنيط بعد الموت.. حتى أنهم تمكنوا بهذه الطريقة من تحنيط حيواناتهم المنزلية..

الصلاة في مصر القديمة 1550 قبل الميلاد



" لم أقتل .. لم آمر بقتل أحد .. لم أشته زوجة جاري .. لم أدنس نفسي .. لم أكذب.. لم أسرق.. لم أشهد زوراً.. لم أملأ قلبي حقداً.. لم أكن سبباً في دموع إنسان.. لم أكن سبباً في شقاء حيوان.. لم أعذب نباتاً بأن نسيت أن أسقه ماءً.. أطعمت الجائع ورويت العطشان وكسوت العريان.. كنت عيناً للأعمى ويداً للمشلول ورجلاً للكسيح.. لم ألوث ماء النيل.. ملأت قلبي بماعت.. الحق والعدل والاستقامة. "

وكانت العبادة عند الجبتيين القدماء مقدسة، وأكثر ما ميز العظماء هو اعتقادهم اليقيني في البعث بعد الممات، وأنه على الإنسان أن يُبعث نظيفا كزهرة اللوتس.. وذلك نابع من الضمير الحي العامر بالأخلاق وحب العمل والإخلاص والإتقان، ويظهر ذلك بجلاء في الكتابات المدونة على الجدار الداخلي للهرم، وبه الكثير من تراتيل الصلاة الجبتية القديمة وأمور تعبدية خاصة بالعدالة والحساب بعد الموت وطقوس العدالة كما تصورها العظماء. فقد عبروا عن معتقداتهم وكيفية توقعهم للحساب بعد الممات والبعث، ولهذا أعد كل منهم حياته ليعيش في جنة

الخلد.. ولم يعرف أحد ما إذا كان الجبتيون القدماء قد عرفوا الأديان الإبراهيمية أو من أنبياء الله قد أرسل إليهم، لكنهم بطبيعة حالهم كانوا قوما عابدين.

بل إنك إن سألت أحدا من كهنة اليهود اليوم عن الحساب والعقاب والبعث بعد الممات لتجدنه مترددا في القول؛ بعض الكهنة يعتقد أن هناك حساب وعقاب وبعث يوم القيامة، وبعضهم ينكر ذلك.. وهذا ما يعني أن عقيدة البعث والخلود الجبتية سبقت الأديان الإبراهمية في تطورها العقائدي بزمنٍ طويل.

والجبتيون القدماء أول من وضع أسس العلوم التي أقام عليها العالم مبادئ الطب بعد ذلك ويكفيهم فخرا أنهم أنشأوا أول جامعات العالم، والتي كانوا يسمونها" بيوت الحياة "prw anx .كان الجبتيون القدماء يؤمنون بأن الوقاية خير من العلاج، فقد كانوا أول من استعمل الصودا في الغسيل والتنظيف، وأيضا أول من ألحق دورات المياه بالمنازل مما أثار دهشة هيرودوت، وقال إنهم يختلفون في عاداتهم عن جميع الشعوب الأخرى، وقال أيضا أن الجبتيون القدماء كانوا يتعاطون الطب بتعقل، فلم يكن لأحد أن يتدخل في غير ما تخصص له. فقد كان الطب في إيجبت القديمة متقدما لدرجة أنهم قسموا الأطباء إلي درجات، فقد كان هناك أربع كوادر للأطباء؛ الكادر الأول وهو الطبيب العام، وهو غير متخصص، والثاني هو كبير الأطباء، والثالث مفتش الأطباء، والرابع هو رئيس الأطباء، كما ذُكرت أيضا وظيفة الرئيس الأعلى لأطباء الوجه القبلي والبحري وهو كبير أطباء القطر وهو المنصب الموصل مباشرة إلي مدير عام بيت الحياة، ورئيس سر الحياة في بيت جحوتي وهو منصب يوازي وزير الصحة حاليا.

كما كان الأطباء يتخصصون في أمراض معينة، فهناك العديد من الأطباء في كل مكان، بعضهم تخصص في طب العيون، وآخرون يقومون بعلاج آلام الرأس، وغيرهم للأسنان أو الأمراض الباطنية، هذا إلي جانب من يتعاملون مع العلل الخفية "النادرة أو غير الشائعة"...إلخ.



وكان العالم الألماني "H. Junker"قد نشر دراسة عن لوحة لطبيب البلاط الملكي "iry" الذي عاش في نهاية الأسرة الخامسة، ومنها نعرف العديد من التخصصات

ونورد الآن قائمه بأهم وأشهر ألقاب الأطباء ومجالات تخصصهم التي سجلتها النصوص الجبتية منذ بداية الدولة القديمة وحتى نهاية الدولة الجبتية القديمة:

١ـ **طبيب**."swnw"

٢ـ **طبيب الأسنان** "swnw ibH" **أو** "ibHy"

٣ـ **طبيب العيون**."swnw irty"

٤ـ **طبيب الأمراض الباطنية للقصر الملكي**.swnw Vt pr-aA"

٥ـ **كبير الأطباء**."wr swnw(w)"

٦ـ **كبير أطباء الأسنان**."wr ibHy(w)"

٧ـ **مدير الأطباء- المشرف العام**.imy rA-swnw(w)" "

٨ـ **مفتش الأطباء**."sHD swnw(w)"

٩ـ **كبير أطباء إيجبت العليا والسفلي**."wr -swnw(w) Sma mHw"

١٠ـ **الطبيب الأول -المتميز- في بيت بتاح** " "Hry swnw m pr-ptH" **وبيت بتاح هو معبده الكبير في مدينه منف**."

١١ـ **طبيب القصر الملكي**."swnw pr-aA"

١٢ـ **طبيب الملك**."swnw nsw"

١٣ـ **قائد(فريق) أطباء القصر الملكي**"xrp swnw(w) pr-aA".

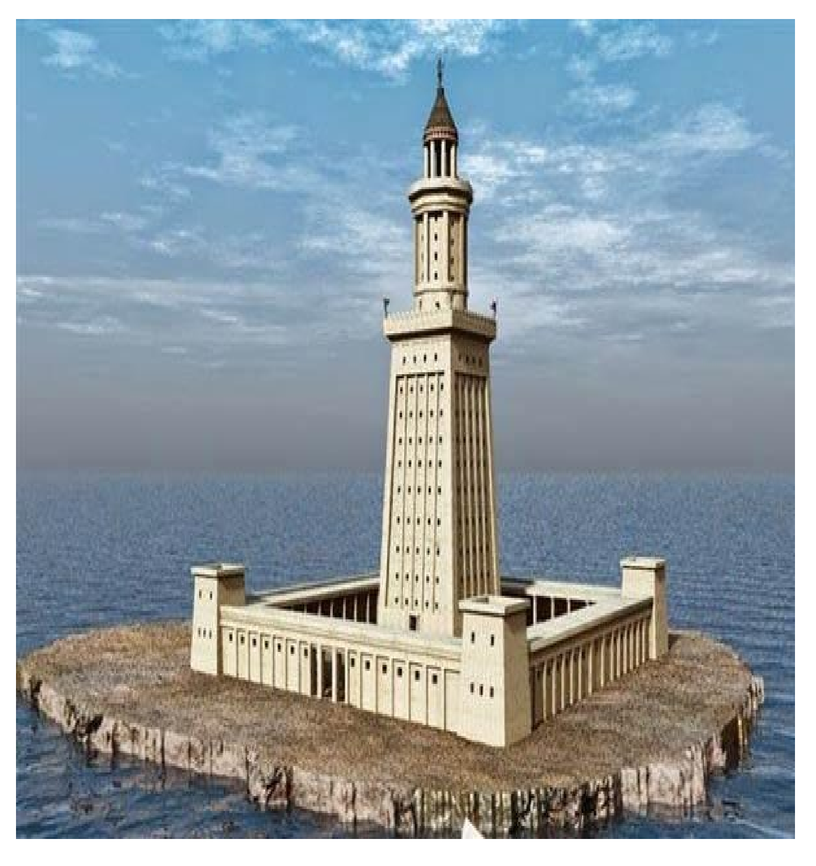
١٤ـ **وقد ذكر أيضا لقب** "nirw biDwt" **أي راعي الشرج كناية عن طبيب المسالك البولية**

١٥ـ **قائد فريق أطباء العيون لدي القصر الملكي**"xrp "swnw(w) irty pr-aA"

١٦ـ **مديرة الطبيبات** "imt-rA snwwt" **وهذا اللقب يشير إلي السيدة -بسشت** "bsSt" **"التي عاشت في أواخر الأسرة الرابعة،ودفنت بجبانة الجيزة، والتي تشير بلقبها إلي وظيفة رفيعة كانت قد مُنحت لها لعلمها وخبرتها، وبالفعل لدينا أيضا لقب** "swnwt" **الذي يعني طبيبة مما يدل علي المساواة بين الرجل والمرأة في شتي مجالات الحياة، ومنها مجال الطب، ومن أمثله الأطباء في إيجبت القديمة، الطبيب حسي رع**

"Hisi ra"من الدولة القديمة يعتبر أول طبيب أسنان" AbH swnw " في التاريخ، والطبيب مر كاو رع "mr kAw ra"من الأسرة الخامسة كان طبيب أسنان، والطبيب مدو نفر"mdw nfr" الدولة القديمة رئيس أطباء عيون القصر الملكي، وقد خلف هؤلاء لنا الكثير من الوثائق والبرديات التي تتحدث عن ألوان المعارف التي انتشرت في عهدهم [1].

وبمرور الزمن ضعف الحكام عن السيطرة وحماية البلاد، فخضعت فترة لحكم الهكسوس، ثم نهض أحمس وطردهم من إيجبت، ثم بدأ بناء إيجبت في عهد الدولة الحديثة، ثم ضعف الحكام مرة أخرى ودخلها اليونان على يد الإسكندر الأكبر، فيما سمي بحقبة البطالمة، وانتقلت العاصمة خلال هذا العصر من وسط البلاد إلى الإسكندرية، ثم خضعت إيجبت للرومان حتى القرن السادس الميلادي.. كان الجبتيون يعيشون حياة هادئة، وكانت إيجبت محتفظة بخصوصيتها وقوميتها وثقافتها ولغتها الجبتية .. كانت آثار الحضارة الجبتية ما تزال بادية في حياة الجبتيين، الثقافة والعلوم المتراكمة عن الأجداد العظماء.. الأدوات التي يستخدمونها في زراعة وري أراضي وادي النيل، أدوات قياس الفيضان ومعدلات النهر وصناعة السفن والمراكب النيلية.. وكانت الدولة مقسمة إلى عدة أقاليم، ولكل إقليم حاكم، وكانت الإسكندرية هي العاصمة وبها القصر الحاكم وبها كافة سجلات الدولة ودواوين الوزارات ودفاتر الضرائب وحصر الأموال والأملاك وموارد الدولة..



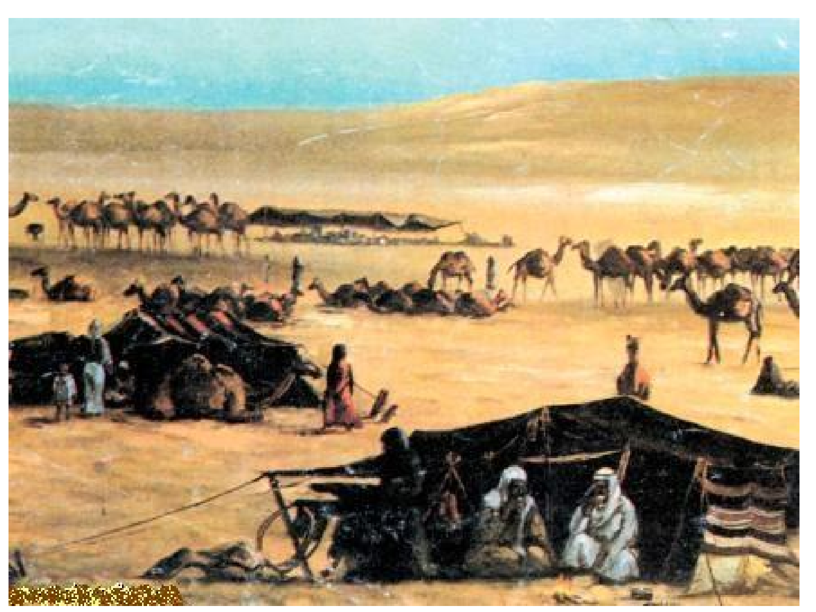
وبما أن الإسكندرية هي العاصمة فكانت بها أكبر مكتبة في الشرق، تضم الكثير من العلوم والثقافة، وبها أكبر جامعة في العالم تضم مقاعد التدريس والطلاب والمعامل، وإلى جوارها نادي المثقفين على شاطئ البحر، وبها أكبر كنيسة في العالم، وهي مقر الديانة المسيحية في الشرق

١ـ مقتطفات من كتاب الطب المصري القديم للدكتور حسن كمال.

خلال هذه الحقبة.. حيث كانت المسيحية هي ديانة التوحيد في ذلك العصر قبل بعثة النبي محمد عليه السلام، فسارع الجبتيون لاعتناقها، وكانت إيجبت تحت الحكم الروماني، لكن مظاهر الوجود الروماني في إيجبت انحصرت فقط في حزمة الضرائب التي تحصلها الدولة الرومانية من المواطنين كل عام، كانت إيجبت سلة غلال سخية بالنسبة لروما. ولهذا اهتموا بها وحافظوا عليها باعتبارها مركزا حضاريا لهم في الشرق..

كانت الإسكندرية آية في الروعة والجمال والتنظيم والفن المعماري، حافلة بالحصون والقصور والقلاع.. وكان بها فنار الإسكندرية وهو تحفة معمارية من عجائب الدنيا السبع، تم إنشاءه في جزيرة فاروس خلال هذه الحقبة بارتفاع ١٢٠ مترا، وأعلاه سارية بها مرآة.. لم تكن مرآة وإنما تركيبة عجيبة من المرايا بمثابة تليسكوب عاكس يلتقط السفن في عرض البحر ويضئ لها الطريق بمشاعله الوهاجة، كانت أبعاد هذه المرآة عجيبة جدا لدرجة مكنتها من التقاط صور السفن وناقلات البضائع عند خروجها من خليج البسفور في أوربا.. كان الفنار به سلم من الداخل ومقسم إلى طوابق مصقولة بإحكام، وبها غرف ونوافذ ومطلات على البحر بارتفاع شاهق كما ناطحات السحاب، وكان أجدادنا الجبتيون يصعدون كل مساء إلى الطابق العلوي لمراقبة السفن العابرة في البحر وتزويد مشاعل الفنار بالوقود كي تضيء البحر وتصل أنواره إلى أوروبا..

كان أجدادنا الجبتيون يقفون على قمة المنارة ويديرون المشاعل والعدسات تجاه الشرق فتبدوا من بعيد صحراء شاسعة تسكنها قبائل بدوية على أطراف الدولة الجبتية، كانوا أشبه بالهكسوس لكنهم أضل سبيلا في منطقة عمّ فيها الجهل والفساد والشرك والنفاق.. هي صحراء شبه جزيرة العرب ويتحدث أهلها اللغة العربية، وكانوا قبائل رعوية برية تسكن الصحراء وتتنقل بالخيام ويقوم نشاطها على الرعي والتجارة والإغارة والدعارة، حيث كانت البيئة قاسية وموحشة ليس بها مقومات الحياة المدنية..كانت حياتهم قاسية جدا ومشاعرهم أكثر قسوة، لدرجة أننا وجدنا في مصادرهم التاريخية كان الآباء يقتلون بناتهم ويدفنونهم أحياء ! ويمنعون البنات من الميراث، وكان الابن يرث زوجة أبيه بعد وفاته وينكحها دون حياء !.. برغم أنهم وصلتهم الديانات السماوية في هذا الوقت كما وصلت الجبتيين لكنهم تمادوا في شركهم وغيهم..



وكانت الدعارة نشاط رئيس في هذه المجتمع، وكثير منهم لا يعرف أباه، وكان رجال القوم يوظفون فتياتهم للعمل بالبغاء كي تنفق عليهم من عائدات وأجور الدعارة.. لأنهم لا يحبون العمل والبناء والإنتاج، فقط يحبون الخمر والنساء.. وكانوا قوم شركٍ ونفاق وإلحاد وتمردٍ غريب في كل مناحي الحياة، تمرد على العمل والفكر والحضارة.. وقد تواترت الأنباء والروايات عن ممارسات غير أخلاقية وعن عاهرات الجاهلية، اللاوتي كن يفتحن منازلهن لراغبي المتعة الحرام، بالإعلان عن ذلك من خلال راية حمراء تعلق على باب الدار، أو أعلى المنزل، لترشد الراغب في المتعة لقصد سبيله نحو سوق فيه المرأة مجرد جسد ينهش فيه كل من يملك المال ويرغب في قضاء ليلة أو أكثر.

والأمر عند العرب لم يقتصر على هذا النوع من الدعارة؛ بل مارسوا ما هو أقذر من ذلك، حيث عرفوا ما يشبه حفلات الجنس الجماعي التي تقام في بعض المجتمعات الغربية في وقتنا الراهن.. وكان العرب يمارسون ما يعرف لدى رواة التاريخ بنكاح الرهط، ويقصد به أن يجتمع عدد من الرجال لا يزيدون على تسعة فحول، ولا يشترط عندها إن كانوا من قبيلة واحدة أم من عدة قبائل، ويكون بينهم اتفاق على الاتصال جنسيا بامرأة واحدة، بناءً على رغبتها، ويتناوبون على المرأة، والغريب في الأمر أن هذا النوع من النكاح كان مباحا في الجاهلية، ولم يكن به ما يشين، والأغرب منه أن المرأة الموطوءة كانت إذا حملت وأنجبت اختارت من تراه مناسبا لأبوة ولدها دون أن يكون له حق الرفض، حيث كانت المرأة بعد الإنجاب تجمع الرجال الذين تناوبوا على نكاحها على مدار السنة وتذكرهم بما كان بينها وبينهم، ثم تقول يا فلان هذا ابنك فاقبله..

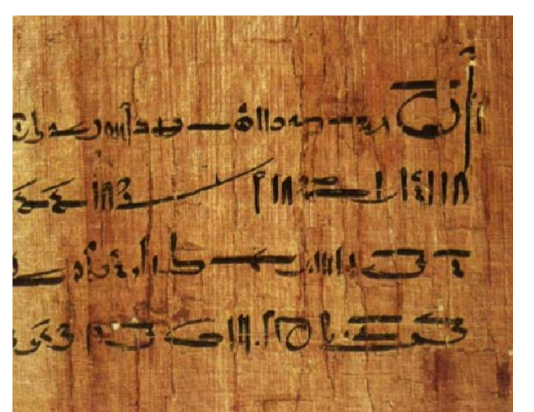
أما نكاح السفاح؛ فهو أكثر دعارة من سابقيه، وفيه من الفُجر وقلة الشرف ما يقزز العفيف، وهذا النوع من الدعارة كانت فيه البغيَ أو المرأة تقبل على ممارسة الجنس مع عدد من الرجال في وقت واحد، في مكان مفتوح، يشاهدهم فيه من يريد ذلك، دون حياء أو خجل، وبحسب رواة التاريخ والأخبار، فليس

للرجال الذين يزنون بالمرأة –في هذا النوع- حدود فهي قابلة وراضية أن ينكحها عشرات من الرجال، بل تدعوهم إلى ذلك أمام الناس... وهناك نوع آخر من أنواع الدعارة التي كانت تمارس في الجاهلية، دون مقابل مادي، ولكنها كانت تمارس من أجل نيل شرف أو تحسين نسل، وهو ما كان يعرف بنكاح الاستبضاع، حيث كان يختار الرجل في الجاهلية أحد الفرسان الأشداء، أو ذوى البأس والقوة، أو أحد أصحاب السطوة والنفوذ، ليقدم له امرأته ويطلب منه أن يمارس معها الجنس، عسى أن تحمل منه فيكون له ولد من صلب هذا الفارس أو ذاك الفحل، ولم يكن هذا النكاح بمستنكر في الجاهلية بل كان متعارفا عليه.. ونوع آخر كان معروفا باسم نكاح الخدن، حيث كانت المرأة تتعرف برجل غير زوجها، وتدخله عليها في الفراش في غياب زوجها، والغريب في الأمر أن المرأة كانت توسم بالعار إن جهرت بزناها، ولكن طالما أنها تمارس الدعارة في الخفاء فلا مانع من ذلك.

بينما في إيجبت وضعت الحضارة الجبتية التشريعات والقوانين الاجتماعية؛ لأن إيجبت وشعبها من الأصل شعب مدني ودولة وليست عشائر بدوية، وإنما نسيج اجتماعي إنساني واحد منذ بدايتها رغم اتساع أرضها من الصعيد جنوبا مرورا بوسط الدلتا إلى الإسكندرية شمالا ودمياط وبور سعيد وحتى سيناء شرقا.. فهي الدولة الوحيدة التي عرفت باسمها صراحة كوحدة جغرافية سياسية اجتماعية ثقافية، أي كانت مركزا حضاريا.. بينما حين تحدث الله عن شبه الجزيرة وصفها بأنها " وادٍ غير ذي زرع" ثم بعدما تواترت عليها القبائل أصبحت" أم القرى وما حولها " و" تلك القرى ".. كانت صحراء موحشة مُهلكة، يصِفها ابن بطوطة بأن "داخلها مفقود وخارجها مولود" !

بينما إيجبت كانت دولة مدنية حضارية وكيانا اجتماعيا سياسيا قويا من البداية ترعى النظم والقوانين التي تنظم العلاقة الإنسانية بين الناس وبعضهم، وبين الرجل والمرأة وتحفظها في إطار المشروعية والعفة، وتحفظ حقوق وواجبات المرأة في الزواج، وكانت المرأة تتمتع بكافة حقوقها المشروعة حاليا في الدين الإسلامي، وكان للزواج طقوس وقدسية خاصة ومراسم اجتماعية ورسمية.. ليس فقط في الزواج، وإنما شملت أيضًا حالة الانفصال والطلاق بالمعروف، وما يترتب عليهم من حقوق للمرأة، أو تعويض مادي مناسب للحد من الطلاق ومن الآثار المترتبة عليه من انهيار للأسرة، فقد فرض شروط كثيرة لعملية الطلاق حماية لوحدة الأسرة وحماية لحقوق المرأة لأنها الطرف الضعيف..

فيقول الدكتور نشأت الزهري في بحثه "الطلاق في إيجبت القديمة"، «لم يكتفِ الزوج في إيجبت القديمة بتطليق زوجته شفاهة بقوله لقد هجرتك بصفتك زوجة، بل كان يسلمها وثيقة طلاق مكتوبة تؤكد حريتها وانتهاء العلاقة الزوجية بينهما وتمكنها من الزواج بآخر إذا أرادت. وكان الشهود يوقعون على وثيقة الطلاق كما توقع وثيقة الزواج غير أنهم كانوا في وثيقة الطلاق ٤ شهود، بينما في عقد الزواج كانوا ١٦ شاهدا، وكانت صيغة الطلاق كالآتي: «لقد هجرتك كزوجة لي، وإنني أفارقك، وليس لي مطلب على الإطلاق، كما أبلغك أنه يحل لكِ أن تتخذي لنفسك زوجا آخر متى شئتِ.".. ولضمان حقوق المرأة في حالة الطلاق كانت عقود الزواج تنص على تعويض مادي مناسب للمرأة، ففي إحدى البرديات المحفوظة في المتحف البريطاني يوجد عقد زواج يرجع إلى عام ١٧٢ ق.م، بين الكاهن باجوش وزوجته تتي أمحتب يتعهد فيه الزوج بدفع تعويض كبير في غضون ٣٠ يوما في حالة الطلاق.. ويضيف الزهري أن الزوجة كانت تستحق تعويضا من المال عند طلاقها علاوة على المهر، بدأ التعويض في عصر الأسرات الجبتية القديمة بضعف قيمة المهر.." وذكرت صحيفة ديلي ميل البريطانية أن قسم الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو كشف عن بردية عمرها نحو ٢٥٠٠ عام، كتبت بالديموطيقية، تنص على حصول المرأة على تعويض حال فشل الزواج، حيث تحصل حال الانفصال على ٣٠ قطعة فضية و٣٦ شوالا من الحبوب كل عام لبقية حياتها، مما يضمن توفير جميع احتياجاتها... في الوقت ذاته الذي عاش فيه العرب في فوضى الدعارة والزنا والظهار وتعليق المرأة (ترك الزوج لها دون معاشرة ودون طلاق إلى ما لا نهاية).. أي أن أجدادنا العظماء كانوا مسلمين قبل الإسلام، بل إن العرب في عصر الدولة العباسية (الإسلامية) لم يصلوا إلى هذا المستوى من الرقي الفكري.



فالعرب في الجزيرة وتحديدا في منطقة الحجاز وأخصهم قريش الذين امتهنوا الرعي والتجارة والإغارة والدعارة منذ نشأتهم حتى عصر الجاهلية، ويخشون البحار ولا يحبون العمل والبناء والإنتاج، وكانوا يتحدثون اللغة العربية وهؤلاء هم الفئة البدوية الصحراوية من كل الجنس الآرامي، فهم بدو صحراويين، أما أبناء عمومتهم بني إسرائيل فهم بدو جبليين يتجولون مناطق الجبال والسهول في

غامد وزهران وجنوب الجزيرة العربية. وبوجهٍ عام لا هؤلاء ولا أولاد عمومتهم كانوا مدنيين أي لم يعرفوا الحياة المدنية والمجتمعات الحضارية يوما ما، بل كانت مهنتهم هي الإغارة والسطو على بعضهم وعلى الشعوب وقطع القوافل التجارية ونهبها. وهذه الطبيعة الديمجرافية لا يمكن إسقاطها على شعوب الشام أو العراق مثلا، فعندما يقول الملك توت عنخ آمون أنه "جاب الديب من ديله" أو عندما يقول الملك "مِري كا رع" أنه خرج على رأس حملة لتأديب البدو الرعاة، فلا يجب أن تنصرف أذهاننا إلى بلاد سوريا المدنية الحضارية، بل يجب أن نقرأ التعاليم التي لقنت للملك أولا حول هؤلاء البدو الرعاة.



أما الأجانب , فاليك نصيحتى فيما يخصهم:
ان الآسيوى (البدوى) خسيس , شقى
فهو دائم الترحال لندرة الماء و الخضرة
و طرقه وعرة لكثرة الجبال فى أراضيه
و هو لا يعرف الاستقرار فى مكان واحد
تحركه الحاجة و العوز.
فيرتحل فى الصحارى سيرا على الأقدام
و يسفك الدماء
و يقطع الطريق منذ زمن حورس (منذ الأزل)
و هو لا يحارب بشرف
و لا يعلن أبدا عن اليوم الذى يبدأ فيه الحرب
كاللص الذى ينبذه المجتمع ..
(جزء من التعاليم التى لقنت للملك مرى كا-رع)

يقول الأستاذ نبيل:" لطالما حظيت دروب الصحراء بشتى الأخطار وحفلت بالمهالك المتربصة في كل خطوة بمسالكها، على أن أشد تلك المخاطر هم بدو الصحراء الرحل الذين عاشوا على السلب والنهب للقوافل العابرة، وحتى بعثات ملوك إيجبت لم تكن تأمن من أيدي تلك القبائل. فقد حدث في أيام الملك" بيبي الثاني " أنه أرسل القائد " عنخ نخت " وكان من أقرب القواد إلى قلبه في بعثة إلى بلاد بونت عبر البحر الحمر. لكن " عنخ – نخت " لم يسلم لا هو ولا رفقاء سفره من أيدي هؤلاء البدو الذين قاموا بقتلهم جميعا. فلما علم " بيبي الثاني " بالأمر حزن أشد الحزن وقام بإرسال حملة تأديبية بقيادة " بيبي ناخت" الذي يصف ما حدث فيقول:" لقد أرسلني جلالة سيدي ضد بلاد العامو لأعيد جسد الرفيق الوحيد رئيس البحارة وقائد القافلة " عنخ نخت " الذي كان يشرع في بناء

سفينة للتوجه إلى بلاد بونت عندما قام العامو القاطنون في الرمال بقتله هو ومن معه من قوة مسلحة، فقمت بذبحهم بمعاونة قوة الجيش التي برفقتي"[٢] .

والمشكلة السودة إن لو الملك بيبي الثاني صحى من نومه الآن وعلم أننا أحفاده قد خضعنا بدولتنا كاملة ولغتنا وحضارتنا لهؤلاء العربان بعدما جاءهم دين ليصلح أحوالهم الفاسدة وجعلناهم زعماء لنا وسمينا إمبراطوريته (عربية) لتحمل هويتهم القومية وتندمج معهم وتتحدث بلسانهم وتفكر بعقولهم لاتهمنا جميعا بالخيانة العظمى ولحكم علينا بالإعدام رميا بالرصاص ! فنحن بالنسبة له أحفاد جهلة متخلفين جدا لا نستحق الحياة على هذه الأرض.

فهذا المجتمع العربي البدوي لم يعرف نظام الدولة ولا والمجتمع ولا التشريعات والقوانين، كان أشبه بالغابة والبقاء فيها للأقوى، وبما أن الرجل كان هو الأقوى عضليا فكانت تنتهك كافة حقوق المرأة، سواء كانت إبنة أو أخت أو زوجة.. فلا مانع من أن ينكح الابن زوجة أبيه بعد وفاته بالميراث، ولا مانع من أن يقتل الأب طفلته ويدفنها حية بيديه.. هكذا كانوا أضل سبيلا من الهكسوس، وكانت تسودهم حالة من التمرد على العبادة والإيمان.. تمرد على المكان حيث قامت حياتهم على الترحال ونقل الخيام من مكانٍ لآخر حيث استقرت منابع المياه الصحراوية، وعلى مدار تاريخهم لم يعرفوا نظام الدولة والعاصمة والحكم والنظم القانونية والوزارات، ولم يكن لهم حاكم يمثلهم وإنما قبائل متفرقة في الصحراء... لم يعتادوا الحياة المدنية والعمارة والعلم والعمل.. وانتشرت بينهم الحروب والإغارة على بعضهم البعض، حيث كانت القبائل تغير على بعضها تقتل وتخطف النساء والأطفال لاسترقاقهم وبيعهم في أسواق النخاسة.. كانت الحروب والمعارك تشتعل بينهم لأتفه الأسباب، وكان نشاطهم الثقافي الوحيد يقوم على ارتجال الشعر والزجل والضفائر اللغوية وتدوينها على جلد البقر المجفف، وانتشر بينهم الفسق والفساد العقائدي لدرجة أن نجد أحدهم يصنع صنما من العجوى يعبده وإذا جاع يأكله.. كانوا يأتون في زيارات تجارية للتنزه والسياحة في إيجبت ويعودون إلى صحرائهم مرة أخرى..

كنت في أصغري أسمع الحكايات عن حرب البسوس، وعلمت أنها وقعت في أرض العرب واستمرت أربعين عاما بسبب نبلة.. حيث كانت هناك ناقة ترعى في الصحراء،



(٢) ـ نبيل روفائيل – الباحث المصري في علم الآثار

وعلى ما يبدوا أنها أخطأت واخترقت حدود القبيلة المجاورة، فرماها رجلٌ بسهمٍ فأصاب ضرعها، ولما علمت صاحبة الناقة أخبرت زوجها، فذهب وقتل صاحب النبلة، ثم ثارت قبيلة المقتول وقتلت القاتل، ثم تبادلت القبائل قتل الرجال واشتعلت الحرب لمدة ٤٠ سنة متواصلة في هذه القبائل الصحراوية البرية.. هذا بخلاف حرب الفجار، والتي سميت بذلك لأن العرب فجروا فيها، لتحارب قبائلهم فيما بينها في الأشهر الحرم، واستمرت هذه الحرب مدة ٤ سنوات كانت بدايتها عام ٥٨٦ م.. برغم أن أرضهم هي مهبط الديانات، وبها بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم ﷺ وأسكن ابنه إسماعيل والسيدة هاجر ودعا لهما وأذن في الناس بالحج حول البيت الحرام، وبرغم ذلك لم تؤثر فيهم كافة الرسالات السابقة..

ولهذه الأسباب وفي هذا المناخ بدأت بعثة النبي محمد ﷺ في شبه الجزيرة..كان مختلفا جذريا عن كل من حوله من العرب.. حتى أنه خلال صباه لم يشترك معهم في عاداتهم الاجتماعية وحفلات السكر والخمر.. لم يشترك معهم في شيء من سماته وملامحه الشخصية سوى أنه يتحدث اللغة العربية، وفيما عدا ذلك كان متفردا بينهم، اسمه مختلف عن أسمائهم.. لونه مختلف وطبعه مختلف وأخلاقه نزلت من السماء ولم تنبع من تربتهم.. فبعض الناس حين تراهم تشعر أن أنفاس الراحة والطمأنينة قد تسللت داخلك وغمرت روحك السكينة والطمأنينة، هكذا بعض البشر ملائكة رحمة، وهكذا كان النبي محمد عليه السلام.. مدحه وشهد له خصومه قبل أصحابه.. بعث النبيّ محمد ﷺ في شبه الجزيرة العربية، وجاء علاجا روحانيا وخلقيا وسلوكيا وعقائديا ضروريا حينما كان المجتمع العربي يرتع في بئر من الفساد والجهل والحروب الأهلية وسيادة أعرافٍ وتقاليد تخالف الفطرة البشرية التي فطر الله عليه الخلق. برغم أنهم بالتأكيد سمعوا عن منارة الإسكندرية ومشاعلها العملاقة ومراياها العجيبة التي كانت تعكس أضواءها على خيامهم في الصحراء ليلا ...

بدء البعثة النبوية

بدأ النبي محمد ﷺ دعوته في بيئة خالية من كل معالم الحضارة والإنسانية، مهد لدعوته سرا ليتفادى معاول الهدم الجاهلية، ثم جهر بها، فطارده عتاة قريش فهاجر بدعوته من مكة إلى المدينة ليُرسي دعائم مجتمع جديد. استقبله أهل يثرب بالترحاب وتقربوا إليه حتى بدأ أصحابه في اللحاق به تاركين مكة لأهلها. آلف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار حتى تآلفت قلوبهم وتشرّبوا منه مبادئ الإسلام والسلام وتضامنوا في وضع النواة لمجتمع مؤمن، وسرعان ما بدأت شمس هذا المجتمع الوليد تبزغ في الأفق. وبرغم ذلك كانت هناك بعض المخاطر والتهديدات من جوانب شتى كان يلزمها تأمين هذا المجتمع. فكان النبي ﷺ على بصيرة بأن الدين ليس في خطرٍ بقدر الخطر الذي يتهدد مجتمعه وأفراده بسبب اعتناقهم لهذا الدين، ومن هنا بدأت فكرة الصبر وتحمل الأذى التي بدأت في مكة وتحولت في المدينة إلى فكرة المقاومة. وهو في كل الأحوال دفاع شرعي بهدف صد المخاطر التي تتهدد المجتمع، وهي فكرة منفصلة تماما وكليا عن نشر الدعوة إلى لله، فالدعوة لها أدواتها وآلياتها وهي إبراز فضائل هذا الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، وهي ليست بحاجة لأدوات مادية بالمرة، بل تقوم بكاملها على فكرة الترغيب لا الترهيب لأنه لا إكراه في الدين، وهي منفصلة أيضا عن فكرة الجهاد، فلا جهاد في الدعوة، لأن الجهاد يقوم على مفهوم المقاومة وليس المبادرة.

وأول خطوة فعلها رسول الله ﷺ للدفاع عن مجتمع الإسلام، هي قرار الهجرة من مكة إلى المدينة، ولم يكن ذلك خوفا على الدين من قريش لأن الله أرسله لهذا المجتمع خصيصا حيث كان على حافة الهاوية من انتشار الجهل والصلف والظلم وفساد أخلاق البشر، حتى أنهم لم يتركوه لنشر دعوته إلى الإسلام في أمان، بل نكّلوا به وبأتباعه، وهم في ذلك يختلفون جذريا عن مجتمع المدينة (يثرب) الذي استقبل الرسول وأكرمه واحتضن دعوته وصحابته الكرام، فمجتمع المدينة يختلف كليا عن مجتمع قريش الذي هاجم الدعوة في مهدها، وهذا ما يؤكد أن رسالة النبي ﷺ كانت موجهة في المركز والبؤرة التي استوطنت الضلال والفجر بألوانه وهي قريش مكة، وليس من المنطق أن يهاجر النبي ﷺ من مكة خوفا على الإسلام من أهلها لأنه أرسل لهم تحديدا، بل هاجر خوفا على مجتمع الإسلام الوليد وحاول وضع نواة آمنة لهذا المجتمع في المدينة بحيث يصبح في مركز القوة فيضمن الأمن والأمان لأتباعه لا أن يكون الضعف والخوف حائلا بين الناس والإسلام. لأن العرب في ذلك الوقت كانوا قوم جاهلية ووحشية ومكرٍ وغدر ومكيدة.. كانت هذه حياتهم بخلاف البابليين والآشوريين والجبتيين العظماء الذين

شيدوا حضارة عظيمة، ومالوا بالفطرة إلى العبادة وقدسوا الأخلاق الحميدة، وأدمنوا العلم والعمل والبناء والإنتاج.. كان العظماء يعيشون على مسيرة أيام من قريش، لكن شتان ما بين الشعبين.. فالعرب يكرمهم الله بنبي من عنده ليهديهم فيتآمرون على قتله !

وبداية، فإن كافة الأديان التي لم تتمتع بعنصر القوة الكافية للدفاع عنها أبيدت.. وأول وسائل هذا الدفاع كانت التأليف بين طائفتين من المسلمين؛ المهاجرين من مكة الذين تبعوا الرسول، وطائفة الأنصار وهم أهل المدينة "يثرب" الذين ناصروا الرسول في بيعة العقبة ووعدوه بحسن الاستقبال في بلدهم ومن معه.

والله هو خالق البشر وهو أعلم بطباعهم وخصالهم، وهو أعلم بمتاعبهم وخصالهم النفسية وعلاجها؛ فيقول العلماء؛ لقد بعث الله نبيه ومصطفاه خاتمًا للرسل، فأشرقت دعوته على الجزيرة العربية، تهتف بالإنسان أنه لا يتم إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، توثيقا لأخوة النسب، ورحم العقيدة، وحقيقة هذا في الدين الذي أرسى قواعد المؤاخاة في آياته البينات، يقول تعالى :(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)/١ النساء، وفي المنهج الفريد الذي وضعه نبي الإسلام حين آخى بين المهاجرين والأنصار، فتعانقت قلوبهم على الصفاء والمودة، وتضافرت الجهود على عمارة هذه الدنيا، بالعمل الصالح الذي تتحرك به الحياة، لتصل الدنيا بالآخرة، وتحقق للبشرية غايتها في هذا الوجود، وإذا ما استقر هذا الصفاء في الوجدان، فاض على الوجوه بشرًا وأنسًا، وعلى الجوارح استقامة وهدى، ويرقى به الإنسان من درجة حب الخير للغير إلى درجة الإيثار، التي يجود بمقتضاها بالإحسان لكل إنسان، دون انتظار لثواب إلا من الله.

ولقد تجلى ذلك جليًا فيما كان بين المهاجرين والأنصار، فقال جل شانه(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)/٩الحشر. وتشير الآية الكريمة إلى طائفة الأنصار الذين سكنوا المدينة وبنوا مسجدا فيها وآمنوا بالله ورسوله قبل وصول المهاجرين إليهم، ويحبون من هاجر إليهم من المهاجرين ولا تغضب نفوسهم مما أقدم عليه الرسول من توزيع الفيء (فيء بني النضير) على المهاجرين دون الأنصار، فلم يغضب الأنصار من ذلك، بل وتفضلوا على إخوانهم المهاجرين ببعض الخدمات والأموال، حتى وإن كان الأنصار أنفسهم في حاجة لها، ففضلوا المهاجرين على أنفسهم ولو كان

بهم خصاصة، لم يبخلوا على إخوانهم، بل جاهدوا الشح والبخل في نفوسهم، أي أنهم يبذلون العطاء بنفسٍ راضية وعن طيب خاطر، فأولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ .

وروى البخاري، عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمر؟ قالوا: سمعنا وأطعنا؛ رواه البخاري. ومعنى الحديث أن الأنصار عرضوا على الرسول أن يقسم بينهم وبين المهاجرين أشجار النخيل لكنه رفض، فعادوا وعرضوا الشراكة بينهم فقبل، وهذا مثال واضح لما كان بينهم من ألفة ومودة وتطوع بالفضل بينهم. ثم يقول سبحانه : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)، يقول الواحدي في سبب نزول هذه الآية: عن أبي هريرة قال :أتى رجل رسولَ الله عليه السلام، فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسلَ إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي عليه السلام) : ألا رجل يُضيِّف هذا الليلة رحمه الله؟، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله عليه السلام، لا تدخريه شيئا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم، وتعاليْ فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله عليه السلام، فقال: لقد عجب الله عز وجل ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة، وأنزل الله تعالى :(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)٩/الحشر؛ رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

لقد أضاءت شعلة الإيمان الصادق في قلب الرجل الأنصاري وزوجته، فآثرا ضيف رسول الله على نفسيهما، وعلى أولادهما، وأطعما ضيف رسول الله ، وناما هما وأطفالهما جوعى، فعجب الحق تبارك وتعالى من صنيعهما. فالإيمان الحق يضيء القلب، وينير الفؤاد، وبهذا الضوء يجعل المؤمن يحس بآلام الآخرين وحاجاتهم، أو ما يصفه علماء النفس في عصرنا بالتعاطف المعرفي، وما تصفه اللغة العربية بالإيثار، أي تفضيل الغير على النفس لعمق الشعور بحاجة هذا الغير، فكلما زاد كرم الإنسان وفضله فاق عطاءه الحدود المعتادة. وفي هذه القصة دروس عظيمة، وعبَر لا بد أن نستخلصها، ونسير على دربها، فالذي يتأمل يجد أولا كرم النبي وعزوفه عن مطامع الدنيا، للفضيلة والكرم ليرسي مبادئ عامة. إذ كانت تجيئه الهدايا، والأموال الطائلة، ولا يقوم من مجلسه إلا إذا وزعها على مستحقيها، يقول تعالى(مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ

واتَّقوا اللَّه ۖ إنَّ اللَّه شديدُ العِقاب(٧) لِلفقراءِ المهاجرين الذين أخرِجوا من دِيارِهِم وأموالِهِم يبتغون فضلًا مِنَ اللهِ ورِضوانًا وينصرون اللَّه ورسولَه ۚ أولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقونَ)٨/الحشر

ثانيًا: هذا الموقف الذي بدا من الأنصاري وزوجته يوضح بجلاء مفهوم الإيثار في معناه المتكامل، فالإسلام يقوم على البذل والإنفاق، ويضيع مع الشح والبخل وغريزة الاكتناز؛ ولذلك حبب الإسلام إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية، وأكفهم ندية، وأن يجعلوا تقديم الخير للناس موضع اهتمامهم، يقول تعالى :(الذِينَ يُنفِقُونَ أموالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) ٢٧٤/البقرة، ويقول النبي عليه السلام:(اليد العليا خير من اليد السفلى)، أي المتصدق أفضل من متلقي الصدقة. وابدأ بمن تعول، ودعوة الإسلام إلى البذل والعطاء والإيثار بما تمتلكه مستفيضة مطردة، وحربه على البخل والشح موصولة متقدة، إن الإيثار أعلى مَثل للإيمان، يتحقق به المؤمن القوي، الواثق بما عند ربه من الجزاء الحسن، فهو مظهر القوة، وجوهر العزيمة، فالمؤمن لا يضعف أمام نزعات نفسه، ولا يهون أمام مطامع الحياة الفانية؛ أملا في الفوز بما عند الله، وما عند الله خير وأبقى، إن الإيثار دليل على القوة؛ قوة الروح التي تعلو على حاجات النفس وتطلعاتها، فتعانق عالم السماء بقناعتها وقوتها، إنه معنى حافز على العطاء، ومَعين فيَّاض بالثقة بما عند رب العالمين، إن الذين يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، هم الفائزون المفلحون، والأمثلة التي تدل على الذين آثروا على أنفسهم رغبة فيما عند الله كثيرة جدًا، ولكن نضرب بعضًا منها؛ لتكون لنا حافزًا على المضي في طريق هؤلاء.

قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أنْ نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه، فجئته، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت :أسقيك؟ فسمع به آخر، فقال: آه، فأشار هشام أن انطلق به إليه، فجئته، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات، رحمة الله عليهم أجمعين.[٣]

٣ـ المصدر: مجلة التوحيد، عدد جمادى الأولى ١٤١٣ هـ، صفحة ١٢. رابط الموضوع:

http://www.alukah.net/sharia/0/87900/#ixzz55yAS82ea

وخلال عمر دعوته الذي لم يتجاوز ثلاثة وعشرين عاما، نشر فيها الإسلام وأمن حدود مدينته من الأعادي وأرسى مبادئ الإسلام بين صحابته وترك لهم القرآن كاملا مفصلة أحكامه. والدين الإسلامي بالاختلاف عن كل الأديان لا تنحصر حدوده في حدود العلاقة بين العبد وربه، بل امتد ليحمي العلاقات بين أفراد الأسرة والمجتمع، ولذلك نجده الدين الوحيد على الإطلاق الذي تحدث بكل دقة وتفصيل في أحكام المواريث وأحكام العقود والبيع والتجارة والمعاملات ولم يقتصر على حدود الشعائر الدينية والعبادات، أي أنه دين للمجتمع وليس الفرد وحده.

إلى هنا ولا خلاف، لكن النقاش يبدأ حول مسار النبي في سبيل نشر هذا الدين والوسائل التي اتبعها لتوصيل هذه الرسالة إلى المجتمعات المجاورة له. لأن المجتمعات العربية المجاورة لمكة لم تكن كالآشوريين العظماء أو الجبتيين الذين هم شعوب مدنية، فليس العرب من شعوب الحضارات وإنما قبائل بدوية رعوية يقوم نشاطها الرئيس على الرعي والتجارة والإغارة والدعارة، كانت هذه المجتمعات متوحشة مقارنة بالفلاحين الجبتيين الذين يسكنون القرى والمدن الجبتية بطبعهم الهادئ الوديع وملامحهم الهادئة، وإخلاصهم وحبهم للعمل. فالعرب لهم كاريزما وجبلة مختلفة عن الشعوب الحضارية، ومع ذلك فهم يحملون قلوب صافية ونقية ومخلصة في بعض الأحيان.

وكما يقول ابن خلدون في الفصل السابع والعشرون، باب " في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو اثر عظيم من الدين على الجملة:" **والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم. وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسؤ الملكات** ".

وسنعرض هنا باختصار لقطات من حياة النبي خلال حياته وحروبه التي خاضها لنقف على مبادئ الإسلام بشأن آليات نشره من سيرة النبي العطرة. فقد تواردت الأخبار عن الرواة والمهتمين بتدوين الأخبار على مدار العصور التالية، وهذه المدونات قبل تدارسها يجب علينا التحقق أولا من مصداقيتها وموضوعيتها

لا الاكتفاء بسيرة مدونها؛ ذلك لأن المدونين في هذه العصور لم يكونوا مؤرخين محترفين ولم يحققوا ما يدونون، بل كانوا ينقلون فقط ما ورد إليهم بالحكاية أو الرواية أو ما قرؤوه بأنفسهم في مدونات غيرهم. مثل سيرة ابن إسحاق مؤرخ العصر العباسي وسيرة ابن هشام، وهي من أقوى المصادر التي وردت بأخبار النبي عليه السلام، رغم ما بها من أخطاء ومغالطات، بالإضافة إلى كتابات ابن كثير وغيره. وعلى كل حال حتى وإن صحت فلا يجوز اعتبارها مصدرا دقيقا من مصادر الإسلام حتى لا نغش فهمنا للإسلام بأخطاء الرواة. لكننا سنحاول تتبع الأخبار كما وردت في الغالب الأعم من المصادر التاريخية لتكوين نظرة دقيقة ومختصرة عن سيرة النبي ﷺ وسلوكياته وتصرفاته بالإسلام.

وبالنظر إلى أن الحاجة إلى نشر الدين الإسلامي كانت أمرا إلهيا، فكان بالطبع واجبا على نبي الإسلام أن ينشر السلام في بقاع الأرض تمهيدا لنشر الإسلام، لكن هذا السلام في أمس الحاجة إلى قوة تحميه، فهذا تكليف جوهري ضمن رسالته. ونظرا لأن رسالته بدأت انتشارها بسرعة في شبه الجزيرة العربية، فمثل ذلك في بادئ الأمر تهديدا للمجتمعات المحيطة به، وذلك من ناحيتين؛ الأولى من الناحية الدينية والعقائدية بالنسبة للقبائل العربية من سكان قريش؛ ذلك لأنهم كانوا زنادقة ووثنيين ومشركين يعبدون الأصنام، وهذا ما يعني أن رسالة النبي كانت تمثل تهديدا مباشرا لعقيدتهم وهدما مباشرا لثوابتهم الدينية، وهو ما قد يفقدهم الكثير والكثير من الوجاهة عندما يهدم ثوابتهم ويثبت جهلهم وانحراف عقولهم، فليس من السهل على الإنسان الاعتراف بخطئه العقائدي، بل وخطأ آبائه وأسلافه أيضا، فقد مثل ذلك زلزلة نفسية واجتماعية في مجتمع شبه الجزيرة وخاصة في مكة المكرمة.

والأمر الثاني؛ هو تعاظم شهرة النبي محمد ﷺ وذيوع صيته في شبه الجزيرة ما يعني تهديدا مباشرا للوجاهة الاجتماعية التي كان عتاة قريشٍ يتمتعون بها، وتهديدا مباشرا لمراكز القوة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مجتمعاتهم؛ فالوجاهة الاجتماعية هي مصدر السلطة السياسية والاقتصادية لديهم، بالنظر إلى توسطهم في المنطقة وتركزهم حول محور التجارة – سوق عكاز – والحج إلى البيت الحرام. هذا بغض النظر عن مسائل أخرى رفضها العرب مثل مسألة المساواة في الحقوق والواجبات بين الأحرار والعبيد، والرجل والمرأة؛ إذ كانت تجارة البشر رائجة بينهم، وكانت القبائل تغير على بعضها يتخطفون الأطفال والنساء ليأخذوهم أسرى يتم بيعهم في أسواق النخاسة "ظاهرة السبي في الحروب"... هذا بخلاف العظماء الذين لم تعرف حضارتهم نظام الرق والعبودية أصلا، لأن سبب ظهور ورواج ظاهرة العبودية بين العرب هو الطبيعة النفسية للعرب، فهم شخصيات سادية سيادية تحب التعالي

والتسلط على الغير، وتتعالى على الأعمال، ولهذا اتخذوا من أبناء وبنات الناس عبيدا لهم يسخرونهم عنوة لخدمتهم ويتأمرون عليهم.

وهذا ما يعني أنه من الطبيعي أن تبدأ قريش في التفكير جديا للحيلولة دون وقوع ما يخشون وقوعه من زوال هيبتهم وصيتهم بين العرب ومساواة الأسياد بالعبيد في النهاية، ولذلك كانت قريش هي من أكثر القوى التي دارت بينها وبين المسلمين صراعات مسلحة في محاولات مستميتة للقضاء على مجتمعهم الوليد في مهده، بداية من التنكيل بالنبي محمد ﷺ وأتباعه في مكة قبل هجرته إلى المدينة المنورة، وبعدما تمكن النبي من الهجرة وتبعه صحابته الأبرار، دبرت قريش حملة للقضاء عليه، فخرج المسلمون بصحبة نبيهم لملاقاة مشركي قريش في موقعة بدر الكبرى فانتصر عليهم، وكررت قريش الكرة عند جبل أحد مرة أخرى. هذا بالإضافة إلى بعض التحالفات التي تمت بين قبائل العرب ضد النبي ﷺ للقضاء على دعوته، وهذا ما أدى إلى اضطرار الرسول إلى خوض معارك عديدة خلال فترة وجيزة لا تتجاوز العشر سنوات، وقعت خلالها سبع معارك انتصر النبي ﷺ في أغلبها.

كانت هذه المعارك جميعها معارك دفاعية اضطر النبي ﷺ لخوضها دفاعا عن مجتمعه ورسالته. وكما أشارت دائرة الإفتاء الأردنية " بأن المتأمل في أحداث السيرة النبوية وما تخللها من معارك وغزوات وحوادث قتالية يتبين له أنها جميعها كانت معارك دفاعية عن الحرمات أولا، ودفاعية عن الدعوة الإسلامية التي تعرضت لمحاولات وأدٍ وطمسٍ من جهات كثيرة، سواء من مشركي العرب أو يهود المدينة أو الروم ونحوهم. وقد قام كثير من الباحثين المعاصرين بإجراء دراسات استقرائية تحليلية للأسباب والدوافع التي كانت وراء نشوء جميع العمليات القتالية في العهد النبوي؛ فتبين أنها كانت دفاعية بالمعنى الواسع الذي يشمل الدفاع عن الدعوة الإسلامية في وجه من يحاربها ويحاول وأدها، وليس في شيء من تلك المعارك أهداف توسعية لمجرد بسط نفوذ الدولة الإسلامية على حساب الدول والشعوب الأخرى، بداية من معركة بدر التي وقعت لاسترداد الأموال التي نهبتها قريش ممن هاجر من مكة إلى المدينة، إلى فتح مكة الذي وقع نتيجة غدر كفار قريش ونقضهم العهد الذي أبرموه مع النبي ﷺ واعتدائهم على حلفائه. ومن أراد التوسع في استعراض جميع تلك المعارك بقراءة تحليلية تسلط الضوء على هذه القضية

فيمكنه الاستفادة من بعض الكتابات والأبحاث العلمية المعاصرة، وقد توصل إلى هذه النتيجة بعض العلماء السابقين وكثير من المعاصرين"[٤].

وهذا ما يؤكد حتمية وقوع معارك خلال العهد النبوي حتى تقف دعائم الدعوة الإسلامية وتصبح لها قواعدها وسيادتها بين العرب، وتثبت دعائم القوة الكافية لحماية مجتمعها. وبوصول الرسالة المحمدية إلى غايتها عندما خطب النبي ﷺ في المسلمين يوم حجة الوداع بقول الله تعالى: (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا)٣/المائدة. ففي هذه المرحلة التاريخية كانت الدعوة الإسلامية قد وصلت لمرحلة تلاشت معها أغلب التهديدات التي كانت تحاصرها، ولم تبق سوى التهديدات القادمة من قبل الروم، حيث كانت منطقة الشام خاضعة للنفوذ الروماني، وكانت تعد عدتها وتجهز جيوشها للقضاء على القوة الإسلامية التي سطع نجمها في الجزيرة العربية، إذ كانت دولة الروم هي أكبر الإمبراطوريات وأقربها لشبه الجزيرة العربية، ولم يكن هناك أي مخاطر على الروم تدفعهم لإعداد عدتهم سوى الظهور المفاجئ للعرب المسلمين وتكرار انتصاراتهم في المعارك التي خاضوها في المنطقة، وهذا ما مثل مصدر القلق لدى الروم.

وهو ذات السبب الذي دفع مالك ابن عوفٍ للخروج ضد المسلمين في معركة الطائف، برغم أن المسلمين لم تصدر عنهم أي إشارات أو إرهاصات تنبئ بأي نية للهجوم على الطائف أو غيرها، لكن مالك ابن عوفٍ (ملك الطائف) خشي من توسع سلطة النبي وصحابته في المنطقة بمجرد انتصاره على أهل مكة وذيوع صيته وانتصاراته بين العرب، واستحب أن يكون هو النجم الذي كسر الشوكة، وهذا ما زاد من توقعهم هجومه عليهم فأعدوا العدة وجهزوا أنفسهم للحرب فبدءوها بأنفسهم. فالوقائع التاريخية تثبت لنا بجلاء أن معظم القبائل العربية لم تكن تتحامل على النبي ﷺ إلا توقعا وخيفة من توسعاته لا استجابة لتهديداته للمنطقة؛ لأنه لم يشن حربا هجومية في حياته، ولم يعتد على أحد ولم يعنف أحدا لا من صحابته ولا حتى من أعدائه. وهذا ما يؤكد طبيعته النفسية والفطرة المجبولة طول الوقت على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى أنه لم يُطلب منه طلبا يوما ما إلا واستجاب له أو سكت، وعلى الطالب أن يفهم إشارة سكوته.

٤ـ موقع دائرة الإفتاء الأردنية الهاشمية ـ الموضوع : تسمية "الغزوات" في السيرة النبوية لا ينفي أهدافها الدفاعية ـ رقم الفتوى ٢٧٠٦ ـ التاريخ ٢٠١٢/١٠/١٠م على الرابط:

http://aliftaa.jo/Question.aspx?QuestionId=2706#.Wscun4hubIV

كانت هذه هي فلسفته الشخصية في معاملاته الاجتماعية مع محيطه، ولم يكن حاد الخلق ولا فظا غليظا لا في معاملاته ولا في قراراته. لكن انتشار رسالته وذيوع صيته المفاجئ في المنطقة هو ما خلق توقعات بالتهديدات لدى القبائل العربية ما جعلها تستعد لملاقاته عسكريا في محاولات استباقية لصد المخاطر المحتملة من قبله، وهذه التوقعات لم تكن في محلها أبدا لأن القريبين منه لم يذكروا أي إشارة تنم عن ملامح فكرية أو أخلاقية تشير إلى احتمالية اتخاذه قرار عدوان أو هجوم على أحد من حوله أو غدر بأحد، فلم يظهر حتى عنف أو تعنيف على خطأ، ولم يقع منه خطأ سهوا وحتى في أوقات غضبه كان حليما، وإذا غضب سريعا ما يعود إلى حلمه، وإذا فكرنا يوما ما في عرض ملامحه النفسية والخلقية والفكرية على خبراء الطب النفسي سيؤكدون يقينا أن هذه النوعية من الشخصيات لا يمكن أن تكون إلا نبوة. وهذا ما يؤكد أيضا أن جميع حروبه كانت دفاعية حتى بدون إعادة تحليلها عسكريا. ولم يكن النبي في حاجة لأي نوع من القوة تعززه في نشر دينه، ولا كان في حاجة لرجال أشداء يدافعون عنه أو جيش يحمي موطنه إلا لما تعرض هو للهجوم والعدوان من الغير، فليس من المنطق أن يترك نفسه ومن حوله عرضة للخطر والقتل والتشريد بسبب دينهم، كان من الضروري أن يشكل منهم قوة للدفاع عن أنفسهم، ولم يكن الجيش، ولم تكن المعارك أبدا ضمن حساباته الدينية والدعوية، وإنما فقط كانت معادلة لموازين القوى العسكرية التي تشكلت في المنطقة ضد من يعتنقون دينه، ولهذا شجعهم وشكل منهم قوة للجهاد والدفاع عن أنفسهم وديارهم وأهلهم.

ففي موقعة بدرٍ كان مشركي قريشٍ قد أعدوا العدة واستحثوا قبائل الأعراب البدو للقضاء على مجتمع النبي عليه السلام، وما فعله النبي أنه تشاور مع أصحابه حول ما إذا كان يخرج لملاقاة المشركين خارج حدود المدينة المنورة أم يظل بداخلها ويدافع هو وأصحابه عنها، فاقترح بعض الصحابة الخروج بعيدا عن المدينة لحفظها من أوزار الحرب، ورأي النبي ﷺ ما في هذا الرأي من حكمة فأقره. (هذا يؤكد أن النبي لم يكن خبيرا بالشؤون العسكرية)، ثم بعد أن عسكروا قرب بئر مياه انتظارا لقدوم العدو واستعدادا لملاقاته، اقترح الحُباب المنذر أن يتحركوا بعيدا عن هذا المكان ويستقروا بعد آخر بئر في المنطقة بحيث تصبح جميع آبار المياه خلف ظهرهم ويستطيعون الشرب منها، وفي ذات الوقت تنعدم موارد المياه ناحية الأعداء، فتقل قدرتهم على الحرب، فقال النبي ﷺ "نعم الرأي رأيك يا حباب" وتحركوا جميعا إلى ما بعد هذه البئر وانتظروا حتى قدم الأعداء والتحموا وانتصر المسلمون وفر الأعداء. ((ولم يتتبع النبي فلولهم ولم ينكل بهم أو ينتقم منهم بعد هزيمتهم، بل تركهم لحالهم.. لأن غايته الدفاع لا الهجوم، وهنا مغزى عظيم))

وفي موقعة أحد، بعد هزيمة قريشٍ في موقعة بئر بدرٍ السابقة، صممت قريش على الانتقام لهزيمتها وأعدت عدتها للحرب على المسلمين مرة أخرى فالتقى الجمعان في سفح جبل أحد، وانتصر المسلمون في البداية وتسرعوا فترك الرماة مواقعهم فوق الجبل فانقض عليهم خالد الوليد قبل إسلامه من خلف الجبل وأعاد موازين الأمور لصالح المشركين.

وفي موقعة الخندق، جمعت قريش قوتها وعتادها واستحثت الكثير من قبائل الأعراب للقضاء على المسلمين إلى الأبد، ونظرا لهذه القوة الضاربة من المشركين ولم يكن عدد المسلمين كافٍ لصد هذا الهجوم الكاسح، فتشاور النبي ﷺ مع صحابته، واحتاروا بادئ الأمر في الخروج لصد الهجوم خارج المدينة أو الدفاع من داخلها، واتفقوا في النهاية على أن يقوموا بحفر خندقٍ حول المدينة ليتخندقوا خلفه فيعصمهم وأهلهم من هجوم الأعداء (وهذا ما يؤكد أن النبي لم يكن فارسا مغوارا)، وعندما قدم الأعداء وحاصروا المدينة أربعين يوما وليلة ولم يجدوا بدا من الانسحاب ولملمة أذيالهم، ولم يفكر المسلمين حتى في تتبعهم بعد هزيمتهم أو إلحاق أي ضررٍ بهم بمجرد رحيلهم عن المدينة.

ومن أروع التحركات التي اتخذها النبي عليه السلام، وهي ما يثبت نيته بجلاء تجاه الآخرين من حوله من القبائل وعلاقته بالشعوب المجاورة، فلم تكن غايته السيطرة والتسلط أو الإمارة على الشعوب والمجتمعات، بل فقط إيصال رسالة مفادها أن هناك نبي بُعث ليهدي الناس وينقلهم من طريق الباطل إلى طريق الحق والرشاد، وأن هناك مجتمع مسلم متماسك من شأنه أن يكفل الأمن والأمان لأفراده، ومن شأنه أن يلتزم بعهود الأمان والحماية لكل من يتحالف معه، لأن مسألة نشر الدعوى لم تكن فقط متوقفة على تعريف الناس بها، ولكن إشعارهم بالأمان؛ لأنه من السهل تعريف الناس بمضمون الدين الجديد لكن ليس من السهل توفير عنصر الأمن لهم في ظل هذا الدين الجديد الذي يحاصره الكثير من الأعداء في محاولة للنيل من أهله. بل كان الدين الإسلامي في مهده هو مصدر التعذيب والتنكيل الذي تعرض له المسلمون الأوائل خاصة من أهل مكة قبل هجرتهم، وليس من المعقول تكليف إنسان بتحمل كل هذه المخاطر في سبيل اعتناق دينٍ جديدٍ لا يعرف عنه الكثير أو ما قد يستفيده من هذا الدين إذا لم يوفر له الأمن والأمان. خاصة أن أحداث ذو النواس الذي وضع المؤمنين النصارى في خندق وصب عليهم الزيت وأحرقهم كانت قريبة العهد، فكان الناس يخشون صراعات الأديان هذه.

وقد أدرك النبي ﷺ بذكائه وحسه النبيه ضرورة تمتع المسلمين بالأمن وشعورهم بالأمان وسط ظروفٍ تعج بالصراعات وأطراف القوى التي تتحين الفرص للقضاء عليه، ولذلك عندما تواردت إليه الأخبار عن

تجمعات للمشركين حول دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر من أمامهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، ثم الاعتداء على المدينة لاحقا، وبرغم بعد هذه المنطقة عن المدينة المنورة، حيث تقع دومة على بعد ٦٠٠ كيلو مترا شمال المدينة النبوية كما ذكر الحموي في معجم البلدان، إلا أن النبي ﷺ لم يأل جهدا في تأمين المنطقة وتوسيع رقعة الأمان ونطاقه للجميع، فتحرك بقواته في شهر ربيع الأول 5 هـ ، تحرك المسلمون برفقة رسول الله محمد ﷺ نحو قبيلة قضاعة التي كان موطنها شمال قبائل أسد وغطفان، في حدود قبائل الغساسنة الموالين للدولة الرومية(بيزنطة)، والمشرفة على سوق(دومة الجندل) الشهير. وبمجرد أن اقترب من هذا التجمع تفرق الناس وهربوا بعيدا، وبقى رجلا فأحضره الصحابة للرسول عليه السلام، فسأله عنهم ودعاه إلى الإسلام فقبل، ثم استقر النبي ﷺ أياما قليلة في المكان يبث السرايا الاستطلاعية هنا وهناك، ثم جمع أصحابه وعاد إلى المدينة.

وفي حقيقة الأمر فهذه الواقعة برغم صغر حجمها في تاريخ الدعوة الإسلامية إلا أنها عظيمة القدر خاصة عند تحليل وضع الصراع الحربي الذي عاشه النبي بين قبائل العرب، إذ المشاهد من بعيد قد يتوقع أن النبي كانت حياته كلها للقتال والحرب أو أن غايته كانت تحقيق الانتصارات أو مآرب أخرى مترتبة عليها، لكن هذه الواقعة تثبت وتكشف بجلاء عن مكنونه وعظمة أهدافه ونبل أخلاقه. فبرغم كون منطقة دمة الجندل هذه تبعد عن المدينة حوالي ٦٠٠ كيلوا متر، إلا أنه ترك القبائل القريبة والأحياء المحيطة به، وتوجه إلى تلك المنطقة النائية فقط لوجود مصدر خطرٍ يهدد الأمن القومي لمجتمعه وحقوقه المشروعة، وبرغم مروره على العديد من القبائل والأحياء في طريقه الطويلة إلا أنه لم يتعرض لأيٍ منهم، وبرغم قرب قبائل غسان الموالية للدولة البيزنطية من هذه المنطقة إلا أنه لم يتعرض لها، وبرغم تشتت التجمع الذي سافر النبي ٦٠٠ كيلو متر من أجله، وتفرق الناس وهروبهم، إلا أنه لم يتتبع فلولهم ولم يبطش بهم إذ الغاية لديه هي تأمين المنطقة من الخطر الأمني لا تهديد الناس والقوافل العابرة وتهديد تجارتهم أو ما قد يشكل نواة للتحالف والتخطيط للهجوم على المدينة فيما بعد. وبرغم أنهم تركوا بلدهم وهربوا إلا أن النبي ((لم يدخل بلدهم ولم يعتدي على متاعهم ولم يسلب أموالهم ولم يسبي نسائهم)) ولم يقترب أصلا من مساكنهم، بل وجد رجلا بقى منهم فأرسل له نفر من الصحابة أحضروه وتحدث معه النبي وعرض عليه الإسلام خارج مدينته ولم يدخل النبي المدينة ولم يقترب منها برغم أنها خالية تماما من سكانها وكانت فرصة ذهبية لاحتلالها ونهب ما بها من أموال ومتاع وثروات، لكنه كان مؤدبا أدبه ربه فأحسن تأديبه.

وفي فتح مكة كان أهل مكة قد غدروا بحلفاء النبي وعاونوا في الإغارة عليهم ونقضوا عهدهم مع النبي الذي كانوا أبرموه في صلح الحديبية والتزموا بموجبه بعدم التعرض لأيٍ من صحابته أو حلفائه، لكنهم نقضوا العهد، مما يعني أنهم ما زالوا يبيتون النية للقضاء على المسلمين ولو لم يتمكنوا من الفرصة في بدرٍ وأحدٍ والخندق على التوالي، ومن هنا توجه النبي لفتح مكة وتأديب قريشٍ على نقض عهودها معه، ومع ذلك بقدومه إلى المدينة اضطرب مشركي مكة مع وصول جيش النبيﷺ فأراد النبي أن يطمئن قلوبهم فقال لهم: من دخل بيت أبي سفيانٍ كان آمنا" ومعروف أن أبا سفيان كان من أعيان قريش ومن ذوي الوجاهة والكلمة، فتجمع عنده أغلبهم، واستسلموا وطلبوا الأمان، فقال لهم النبي: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ولم يعتدي على أحد منهم ولم يأسر منهم أحد على الإطلاق برغم كونهم جميعا تحت رحمته، وفي هذا الموقف تحديدا نقرأ ما يثبت بيقين أيضا أنه لم يكن شخصية عسكرية على الإطلاق، فسلوكه هذا لم يحدث من قبل على مدار التاريخ لأنه نبي وليس فارسا مغوارا.

وبمجرد دخوله مكة، بدأ الذعر ينتشر في الأحياء المجاورة في قبيلتي هوازن وثقيف فتجمعوا بقيادة مالك عوف النصري في وادٍ يسمى حنين بين مكة والطائف. بدأ أهلها بإمارة مالك عوفٍ يجهز جنوده ويعد جيشه، وقد أمرهم بجمع أموالهم ونسائهم وأطفالهم خلفهم حتى يقاتلوا لآخر لحظة في حياتهم؛ ذلك ظنا منه أن النبي محمدﷺ يستدير من مكة إليه مباشرة، (لأن النفسية العربية منشأها الحرب والإغارة) وهذا ما جعله يتوقع هجوم المسلمين عليه ويستعد للحرب حتى فاجأ المسلمين بخطة هجومية تكتيكية محكمة في وادي حنين. ففي البداية ترك مالك عوف بعض متاعه كطعمٍ للمسلمين وانسحب برجاله مشتتين خلف الجبل مما جعل المسلمين يندفعون بسذاجة حربية على هذه المتاع لجمعها، فانقض رماة مالك على المسلمين من فوق الجبل وأمطروهم بوابلٍ من السهام فارتدوا وتفرقوا. ثم جمع النبيﷺ شملهم وأعاد تنظيمهم حتى تحقق لهم النصر.

ولما انهزم مالك عوف النصري لجأ إلى منطقة الطائف وتحصن بها فبعث إليه رسول الله سرية بقيادة أبي عامر الأشعري فغلبهم، ثم جمع مالك ابن عوفٍ أهل الطائف وعسكر بهم في منطقة أوطاس. وتحصن أهل الطائف واستعدوا للقتال من داخل حصونهم وحاصرهم النبيﷺ ما يقارب ثلاثين يوما ثم تركهم عائدا إلى المدينة، فقال له أحد أصحابه: يا رسول الله ادع عليهم، فقالﷺ : اللهم اهدهم وائت بهم" ولم يشأ أن يهجم عليهم داخل مدينتهم لأنهم تحصنوا بديارهم، ولم تكن فلسفة النبي تقبل دخول مجتمع مدني

بجيش مسلح أبدا ولذلك حاصرهم بسبب استعداداتهم الحربية وحالة التعبئة العسكرية التي اشتركوا فيها مع مالك عوف، وانتظر النبي خروجهم فلم يخرجوا، فتركهم.

ولنا هنا لمحة جميلة، فبرغم أن الناس عسكروا داخل حصونهم مستعدين للقتال، إلا أن النبي ﷺ لم يقتحم مدينتهم، ففيها أعراضهم وأبناءهم ونسائهم وأموالهم وما كان النبي ليتعدي على حرمات الناس، ثم أن تحصنهم داخل حصونهم لا يمكن اعتباره هجوم على المسلمين، بل ظلوا في موقف الدفاع عن أنفسهم وأموالهم ولهذا لم يهاجمهم النبي داخل حصونهم وإنما ترك الحصار وعاد للمدينة، فالنبي لم يكن ليدخل بجيشه بلدا فيه مجتمع مدني أبدا، فالحرب لا تكون إلا في صحارى مفتوحة وبين مقاتلين فقط.

وفي موقعة أخرى، حيث غضب النبي جدا لما حل برجل كان واليا للرومان في مدينة معان (في الأردن الآن)، اسمه فروة عمر الجُذامي، هذا الرجل شرح الله صدره للإسلام فأسلم عندما وصله خبر الإسلام، فلما علم الروم بذالك استشاطوا غضبا فالقوا القبض عليه، فتنوه لكي يثنوه عن دينه الجديد، فلم يرتضي أن يعود عن الإسلام، فصلبوه على ماء في فلسطين يُدعى عفراء، صلبوه ثم أصدر هرقل أمره بقتل كل من أسلم من أهل الشام، مما أغضب النبي ﷺ وأحزنه جدا (وكانت من طبيعة الرومان إكراه الشعوب على الدين). وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة. وفي السنة السابعة، النبي ﷺ يُرسل رجلا رسولا إلى ملك غسان، وغسان كانوا في بلاد الشام وكانوا حلفاء للروم، وهم نصارى، قبائل نصرانية كبيرة من أكبر القبائل العربية، وكانوا حلفاء وكانوا ولاة خاضعين للروم، فأرسل النبي الحارث ابن عُمير الأسدي رسولا ومعه الهدايا إلى غسان فتعرض له في الطريق شرحبيل بن عمرو بن جبلة الغساني والي البلقاء الواقع تحت الحماية الرومانية؛ و أوثقه رباطا وضرب عنقه فقتله ظلما وعدوانا، ثم عبأ الروم جيشا كبيرا وهددوا بالزحف على مدينة رسول الله عليه الصلاة والسلام، يريدون أن يجتثوا الإسلام من جذوره وأن يقضوا عليه تماما. وفي السنة الثامنة للهجرة، النبي ﷺ يرسل جماعة صغيرة قوامها خمس عشرة رجلا إلى الحدود الشرقية للأردن للدعوة لله وتبليغ الناس بالإسلام هناك واستطلاع الأحوال، فيسطوا عليهم جماعة من النصارى أو الروم فيقتلونهم أيضا ولم يلذ بالفرار منهم إلا واحدا فقط نجا بفضل الله وحكا للرسول عما حدث مع أصحابه.

ولا شك أن مثل هذه الأعمال لا يمكن اعتبارها محض جريمة قتلٍ فردية؛ لأن القائم بالقتل هو حاكم دولة أو ولاية ذات سيادة وجيش، فإقدامه على أسر سفير السلام الذي أرسله النبي ﷺ وهو في

طريقه – عابر سبيل – ثم قتله بهذه الطريقة، فهذا لا يمكن تفسيره إلا بأنه أذان الحرب، ثم صدور أمر الحاكم بقتل كل من يعتنق الإسلام، فهذا قرار تصفية عرقية.

وفي العام التاسع للهجرة كانت الإمبراطورية الرومانية في الشام قد وصلتها أخبار انتصارات المسلمين المتتالية في منطقة شبه الجزيرة مما أشعرها بخطر هذه الانتصارات وجاء دورها في إعداد عدتها للقضاء على هذه القوة الإسلامية الصاعدة بسرعة البرق في الصحراء. وبدؤوا يعدون العدة ويجهزون جيشهم للهجوم على شبه الجزيرة العربية، وانتشرت أخبار التعبئة العسكرية وتطايرت الشائعات في كل مكان، حتى أن الصحابة في بيوتهم كانوا مذعورين طول الوقت، كان أحدهم كلما طرق بابه أحد شك أن يكون الطارق قد جاءه بخبر هجوم جيش الروم.. وهكذا عاشوا ليالٍ وأيام من الرعب والخوف من الهجوم المحتمل. ومن هنا جاء حث النبي ﷺ للمسلمين بالخروج لملاقاة جيش الروم المتربص بهم لإبادتهم، وكنوعٍ من الإشعار بالقوة ولغرس الثقة والطمأنينة، تحرك النبي ﷺ بجيشه في ثلاثين ألفا من المدينة إلى منطقة تبوك وانتظر قدوم أعدائه كما فعل في معركة بدرٍ الأولى في حياته. لكن لم يخرج له أحدٌ من الروم أو نصارى الشام الواقعين تحت سلطة الدولة الرومانية، فعسكر النبي ﷺ في المنطقة قرابة العشرين يوما، وخلال هذه المدة توافد بعض أمراء الأحياء القريبة طالبين الود من رسول الله ﷺ بعدما تخلى عنهم جيش الروم، وتحالفوا مع النبي وكتب لهم عهدا بذلك ودفعوا الجزية للنبي قدموا له الهدايا. وكانت هذه أول جزية يحصلها النبي ﷺ، ومن الملاحظ هنا عدة دروس:

الأول: أن النبي ﷺ لم يهاجم بلاد الروم بمجرد تشتت قوتهم ولم يتتبع فلولهم ولم يأسر منهم أحدا ولم يفتك بحلفائهم العرب الذين تحالفوا معهم في البداية ضد النبي عليه السلام، وبمجرد انسحاب الروم قبل بدء المعركة لجأ أنصارهم إلى النبي ﷺ وطلبوا منه الصلح، وقدموا له الجزية ووقع لهم عهدا بهذا الصلح وأمنهم على بلادهم، ولم يدخلها ولم يهاجمها ولم يفرض عليهم خراجا، ولم يعزل حكامهم، ولم يستول على سلطة بلادهم، وإنما منحهم الصلح وأعطاهم الأمان، وقبل منهم الجزية(نتيجة تعبئتهم الحربية واستعدادهم لحربه) ووقع معهم عهدا بذلك دون أي وجود أو استخدام لقوة عسكرية.

الثاني: هو أن غرض النبي ﷺ لم يكن الهجوم أو الإغارة على الروم لكن صد هجومهم المحتمل وعندما وصل مشارف بلادهم عسكر هناك فلم يخرجوا له، تركهم وعاد دون أن يدخل بلادهم، وكان من السهل عليه أن يهجم على هذه البلاد، بعد أن انسحب جيشها تجاه الشمال وانضم حلفاءهم العرب إلى الرسول وطلبوا منه الصلح والأمان، وقدموا له الجزية مع ما تعنيه الجزية من تحالفٍ عسكري وتعهد بعدم

التعرض، أي أن قواته تضاعفت بعد انسحاب جيش الروم دون حرب، وتوافرت الموارد والمؤن بغزارة، وكان من السهل عليه أن يكمل الزحف ويدخل البلاد فاتحا وحاكما وحاصدا للضرائب وغيرها من عوائد البلاد وأن يهرس المدنيين العزل، لكنه لم يكن فارسا ولا محتلاً بل كان نبيا، وليس العدوان من شيمه، وليس من شأنه دخول بلاد ليحتل أرضها ويهتك أعراض أبنائها أو يأسر نساءها وبناتها وأطفالها ويسلب أموالهم، وليس من شأنه أن يشرد طفلا بعيدا عن أمه أو يبيعه في أسواق النخاسة كما حدث في عصر الفتوحات..

ومن الملاحظ أن الرسول لم تكن تحركاته العسكرية عشوائية وإنما كانت فقط مقابل تحركات عسكرية مقابلة، فإذا لم تكن هناك تحركات عسكرية معادية له ، لا يمكن أن يتحرك بأي حال، ولا يبادر بالحركة العسكرية ولا حتى التعبئة، ولم يكن الجيش ضمن أدواته أو آلياته المطروحة لنشر دينه أو لتأسيس دولة أو غيره، بل فقط كانت تحركاته العسكرية مصادفة لتحركات عسكرية معادية ومبادرة بالتحرك. وإذا ما امتنعت التحركات المعادية عن القتال لم يكن ليبدأ هو أو يشتبك بأي حال أو يجري مناوشات أو يستحث أحد على الحرب أو يستخدم قوته العسكرية في أي مصلحة أيا كانت.. فكان جيشه فقط للدفاع.. ولذلك وجدنا في كل مرة ينسحب فيها الجيش المعادي، يتوقف النبي تماما، ولم نعثر له على مدار التاريخ على أي حركة عسكرية أو استفادة أو استغلال لقوة جيشه بمجرد توقف القوى العسكرية المعادية. ففي لحظة توقف الهجوم عليه تسكن قوة جيشه وتصير القوة كأن لم تكن.

وبالطبع لو كان النبي ﷺ قد بدأ دعوته هنا في إيجبت ما كان قد تعرض لكل هذه الحروب، حتى وإن تمسك الجبتيين بعقيدتهم ودينهم، فليس من طبيعتهم العداء للعبادة والتوحيد كما وجدناها في مكة وشبه الجزيرة، فالطبيعة المدنية في إيجبت مختلفة جذريا عن العرب وعاداتهم وأعرافهم وميلهم الغريزي للعدوان والبطش حتى بالرسل! أما نهر النيل والخضرة والزهور والحقول والطمي وجداول المياه الجارية تطبع ملامحها على الإنسان الذي اعتاد العيش في هذه البيئة الخضراء.. كان أجدادنا الجبتيون يتغنون بأزهار اللوتس الجميلة، ويرسمونها على بيوتهم وقصورهم، وكانوا يقدمونها هدايا في المراسم وحفلات الزواج وأعياد الربيع، ويزرعونها في حدائقهم وحقولهم ويحصدونها في النهاية لتجفيفها وطحنها مثل الغلال ويصنعون طعامهم منها، فكانت مفيدة من كافة النواحي ولها فوائد صحية وعلاجية أيضا، وكانوا يستخدمون الشاي المصنوع من أوراق اللوتس كمطهر طبي أيضا، ويشربون الشاي المصنوع

من جذور زهرة اللوتس وهو مهدئ للنفس وله آثار جمة على الصحة بوجهٍ عام، حتى أن شركات الأدوية العالمية الآن تستخدم هذه الزهرة في صناعة مواد التجميل ومقاومة الشيخوخة..بل وصلت الأمور الصحية في إيجبت القديمة إلى أعلى درجات الكمال، وقد أبدى اليونانيون إعجابهم بعادة الجبتيين في غسل الأيدي وتعاطي ملينات كل شهر لتنظيف أحشائهم واستعمالهم ملح النطرون للنظافة باستمرار.

كانت إيجبت عامرة بالعلوم والفكر والحضارة، فنقرأ تعاليم الملك الجبتي "خيتي" وهو يحث ابنه على القراءة، والمداومة على الاطلاع على ما كتبه آباؤه وأجداده ليتعلم منه، فيقول: **اتبع آباءك السابقين الذين سبقوك، انظر؛ إن كلماتهم لا تزال خالدة تنبض بالحياة فيما خلفوه من كتب، افتح الكتاب واقرأ ما فيه، واستفد بعلم أجدادك، واتبع تعاليمهم، تصبح عالما حكيمًا مثلهم"...**

وكذا الحكيم «أمن موبي» ينصح ابنه "حور ماخر"؛ بالإصغاء إلى العلماء، مبينًا له أن النجاح مرتبط بوعيه لما يسمعه منهم؛ فيقول داعيًا إياه: **أن يفتح أذنيه، ويستمع إلى ما يُقال ويتفهمه؛ حتى يستقر في عقله وقلبه، وأن تكون له منه ذخيرة، وبذلك يكون النجاح من نصيبه".**

وها هو أحدهم يحث ابنه على علو الهمة، ويحذره من الكسل والخمول عند التعلم، فيقول: **عندما تتسلم واجبك اليومي لا تكن خاملا، واقرأ بهمة من الكتاب، اكتب بيدك واقرأ بفمك، واطلب النصح ممن هم أنبه منك، لا تكن متوانيًا، ولا تقضي يومًا في خمول، وتفهم طرق أستاذك، واتبع تعاليمه، لا توجه قلبك نحو الملاهي وإلا هلكت، واستشر من هم أكثر منك علما "**[5]. وبطبيعة الحال، فالإنسان الذي ينبت في هذه البيئة الخضراء حتما سيختلف عن أبي لهب وأبي جهل الذي نبت في صحراء العرب.

---

٥ ـ مقال للدكتور حسين دقيل بعنوان " من أخلاق المصريين القدماء ج(٧).. احترام العلم والعلماء " منشور على موقع ساسة بوست بتاريخ ٢٣يونيو، ٢٠١٨

على رابط : https://www.sasapost.com/opinion/respect-for-science-and-scientists/

نقلا عن: نصائح أمنموبى لابنه حور ماخر؛ موجودة ببردية بالمتحف البريطاني تحت رقم ١٠٤٧٤ وتعود إلى الفترة ما بين الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين، وحصل عليها عام ١٨٨٨من أحد تجار الأقصر.

فالمجتمع العربي حول النبي فكانت له رؤية مختلفة تماما، لم يكن جميع الصحابة أنبياء مثله، ولم يكونوا شركاء في النبوة، هم كانوا أناس عاديين وأغلبهم قلبه ملئ بالفساد وأكثرهم مرضى عقائديا، ولهذا اختصهم الله بهذا النبي دون غيرهم. لكنهم تناقلوا أخباره فيما بعد رحيله بصورة مغايرة للحقيقة، هذه الحقيقة نعرفها من بين كلامهم ذاته، ففيه ما يثبت صحته وكذبه. وأذكر أن بعضهم حكى أن تحرك جيش العثرة تجاه الروم في الشام؛ كانت المرة الأولى للنبي عليه السلام؛" أن يفصح عن وجهته في الغزو في موقعة تبوك" فهذه العبارة الفاسدة تشير إلى أن النبي كان فارسا حربيا مهمته الإغارة على الشعوب ليس إلا.

في حين أننا عندما نتصفح كتب المؤرخين الذين ذكروا هذه العبارة نجد جميع المراجع تثبت بجلاء أن كافة الحروب التي حضرها النبي كانت حروب دفاعية، كما تناولناها سابقا في موقعة بدر وأحد وفتح مكة وحنين والطائف، وهو ما يؤكد فلسفة النبيﷺ ويؤكد على نبوته؛ ومجرد التحقق من أن كافة معاركه كانت دفاعية فهذا يعني أن وجهة تحرك الجيش معلومة ومحددة مسبقا في كل مرة، وأن من يحددها ليس النبي ولا أحد من أصحابه، وإنما الجيش المهاجم بالطبع أو القوة مصدر الخطر. لكن العرب حكوا في كتب تاريخهم أن النبي كان يخفي وجهة الغزو كل مرة عن أصحابه، وأن المرة الوحيدة التي أفصح فيها عن وجهة الغزو كانت هي غزوة تبوك، وذلك بسبب طول المسافة وحتى يستعد المسلمون..

كل هذا افتراء من العرب على النبي بعد وفاته، وكما أثبتنا أن جميع معاركه كانت دفاعية، والمعركة الدفاعية من يحدد مكانها ووجهتها هو الجيش المهاجم وليس المدافع بطبيعة الحال. فليس من شأن الأنبياء الإغارة على الشعوب العزل واحتلال أراضيها ونهب ثرواتها أو تهديد نسائها وأطفالها وشيوخها، ولم يفكر النيﷺ حتى مجرد التفكير في الاقتراب من بلاد نصارى الشام الموالين للإمبراطورية الرومانية بمجرد انسحاب جيشهم أو عدم خروجه لهم؛ مع أن الله تعالى أمره أمرا مباشرا في سورة التوبة التي أجمع المؤرخون والمفسرون على أن توقيت نزولها وسببها جاء بمناسبة تهديد الروم للمسلمين وتحالف الشام وبعض العرب معهم ضد المسلمين للقضاء عليهم وإبادتهم.

وهذا من طبيعة الروم إذ أنهم انفردوا بإكراه شعوبهم على الدين، حتى أنهم أجبروا نصارى الشام وإيجبت على اعتناق مذهب الكنسية الرومانية ونكلوا بالجبتيين واضطهدوهم حتى هرب القساوسة والرهبان وبنوا الأديرة في الصحارى للتعبد بعيدا عن اضطهاد الرومان. فما أقدم عليه الروم في هذا الوقت

من إجراءات تعسفية ضد المسلمين هو إعلان للحرب، ليس فقط وفقا للأعراف السارية في عصره، ولكن أيضا في عصورنا الحالية. ولذلك جهز النبي ﷺ جيشه ووضع عليه ثلاثة من القادة على التوالي هم؛ زيد بن حارثة، وجعفر أبي طالب وعبد الله رواحة، وقال: (إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة)، وعقد لهم لواءً أبيضا، ودفعه إلى زيد بن حارثة. وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: " لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة، ولا تقطعوا نخلا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء".

وهنا يتبين لنا من وصية الرسول لأصحابه عندما أرسلهم، كانت مهمتهم هي التخلص من الخطر المحدق بالمسلمين في هذه المنطقة تحديدا، فهو أرسل جيشه لنصرة المسلمين المظلومين تحت وطأة الروم، وليس لاحتلال بلاد الشام. وإنما فقط دفع ضرر وقع على المسلمين هناك وليس الأمر متعلقا بنشر الدين ولا حتى تمهيد الطريق كما قال المفسرون، لأن تمهيد الطريق يكون بالخطاب الدبلوماسي الناعم وبالكلمة الطيبة، وبالترغيب لا الترهيب، ولم يكن النبي أقل ذكاءً ليدرك ذلك. ولم تكن غاية الرسول هي احتلال هذا البلد أو غيره، ولا جمع الإتاوات ولا الجزية ولا حكم البلاد أو احتلالها، ولكن فقط نصرة المسلمين من الظلم والاضطهاد هناك.. كانت فلسفته دفاعية ولذلك أعطاهم لواءا أبيض، ومعروف أن العلم الأبيض هو رمز السلام، ومن يراه من بعيد يفهم تلقائيا أنه سلام، ولا يمكن لجيش مهاجم أن يرفع راية بيضاء أبدا، فالجيش المهاجم يمشي بخطى فيها تهديد وترويع ويرفع علما فيه قوة وتهديد، ولا يمكن أن يرفع العلم الأبيض أبدا. ولذلك أوصاهم عند التحرك بوصيته : " لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة، ولا تقطعوا نخلا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء."

وقوله: لا تغدروا: أي لا تعتدوا بالغدر والخديعة. ولا تغلوا: أي لا تختلسوا الغنائم وغير ذلك من بقايا الحروب، ولا تبالغوا في إنزال الخسائر، وإذا انهزم الأعداء لا تمثلوا بجثثهم ولا تتبعوا أذيالهم ولا تقتحموا مساكنهم.. أما قوله: ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة، ولا تقطعوا نخلا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء" فمعناه عدم الاعتداء على المجتمعات المدنية بأي حال، وكما كان يفعل هو ﷺ. فأمر أصحابه بألا يغدروا ولا يعتدوا ولا يغالوا؛ أي لا يتتبعون ذيول المنهزمين وفلولهم فيقتلونهم عن بكرة أبيهم أو ينكلون بهم، وهذا من عزة الإسلام أنه لا يرقص على جثث القتلى ولا يستغل نقاط ضعف الآخرين ويلوي عنقهم. وأما باقي الوصية فتدور حول حرمة المجتمع المدني من غير المقاتلين

وهذا ما يعني بوضوح أن هذا التحرك في عصر النبي لم يكن غزوا ولا عدوانا ولا هجوما بأي حال، بل كان ردا على ممارسات الرومان ضد المسلمين. ودخل الجيش معركة سُميت بموقعة مؤتة، قتل فيها القادة الثلاثة على التوالي، وازداد الوضع سوءا، حيث كانت الحرب غير متكافئة بين جيش المسلمين وجيش أعدائهم، وهنا ظهرت عبقرية خالد الوليد للمرة الأولى في تاريخه الإسلامي، كان ذلك بعد مرور سنة واحدة من انضمامه للمسلمين ومغادرته قريش، حيث تقلد قيادة الجيش بعد مقتل القادة الثلاثة الذين حددهم النبي على التوالي، وبارز بجدارة، ما يعني أنه كان جيشا بمفرده، ومع ذلك أحس برؤيته العسكرية الثاقبة أنه لا طائل من الاستمرار على هذا الوضع المتأزم، فاستطاع بعبقريته وتكتيكه الحربي أن يسحب الجيش سالما من تحت يد الأعداء، بدل مواقعه وراياته وقام بمناورة حربية ما زالت تدرس في أعرق الأكاديميات العسكرية إلى اليوم، إذ جعل فرقة من الجيش تبدي جلبة وحركة غير معتادة تثير الغبار في الصحراء بحركاتٍ عنيفة، مما يوهم العدو أن هناك مدد جديد لا قبل له به، وهذا التكتيك من الحرب النفسية لم يكن معهودا لدى العرب برغم أن حياتهم تعج بالفروسية وفنون القتال. فتمكن بذلك من إنقاذ الجيش وعاد به سالما إلى النبيﷺ.

(إشارة: عاد خالد الوليد بالجيش سالما إلى المدينة، وقيل في بعض الروايات أن الرسول وصفه بأنه " سيف من سيوف الله" أو " سيف الله المسلول" وهذه الرواية وردت ضمن رواية قيل فيها أن النبي تنبأ باستشهاد قادة الجيش الثلاثة وأن خالدا تولى قيادة الجيش بعدهم فقال الرسول: ((حمل الراية سيف من سيوف الله)). وهذا غير صحيح في نظرنا؛ لأن الرسول لم يكن له معجزات مادية إطلاقا سوى القرآن وهو أم المعجزات وهو المعجزة القائمة ليوم الدين، ولم يكن النبي بحاجة لمعجزات أخرى ليثبت للعرب أنه نبي مرسل، ولم يؤت النبي علم الغيب كما قال الله ذلك صراحة (قل لا أملِكُ لِنفسِي نفعا ولا ضرًا إلا ما شاءَ الله ۚ ولو كنت أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ منَ الخيرِ وما مسّنيَ السُّوءُ ۚ إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون) ١٨٨/ الأعراف. وهذا ما يؤكد بداهة أن النبي لا يعلم الغيب، ولم يتنبأ بمقتل قادة الجيش الثلاثة كما وردت الرواية في تاريخ العرب.

والأمر الثاني أن الله لم يرسل الإسلام بسيوفه، وما كان الله أن يكون له سيف اسمه سيف الله المسلول، بل إن الله أرسل رسوله رحمة وهدى للعالمين، فكيف يتخذ من خالد الوليد سيفا مسلولا له ؟ ثم إذا كان الله في حاجة لسيف مسلول ليكون سطوة على الناس، فلماذا أعطى النبي قادة جيشه راية بيضاء؟ ولماذا قال أنه جاء رحمة للعالمين ؟ ثم ما هي سيوف الله الأخرى كي يكون خالد الوليد أحد هذه

السيوف؟ فالنبي اضطر فقط لخوض المعارك مدافعا عن نفسه والدين الذي يحمله في صدره إلى الناس أجمعين بالبشرى والسلام،حتى أنه حينما ذهب إلى فتح مكة لم يقتل أحدا، وحينما قال سعد بن عبادة «اليوم يوم الملحمة»، عزله الرسول الكريم وولى نجله، وقال «بل اليوم يوم المرحمة»، وبالتالي كلما قاله الفقهاء في فقه الجهاد يخالف صحيح الدين، وعبارة "سيف الله المسلول" تخالف مبادئ الدين كلية، وتلك الألفاظ والأحكام التراثية البشرية ما هي إلا نتاج فلسفة العقلية العربية.

فلا ينبغي أن نصدق العرب في كل ما قالوه عن نبيهم لأنهم في الأصل شعب ذا طبيعة برية وحشية ماكرة، حتى الصحابة أنفسهم المقربين من النبي لم ينشأوا في مجتمع مدني أو في سهول وادي النيل أو الفرات، ولم يتعلموا صناعة أوراق البردي ولم يشارك أحدهم في بناء الهرم ولم يصعد واحد منهم لمنارة الإسكندرية أو يعرف كيف يتم تزويد مشاعلها بالوقود لتضيء البحر على اتساعه.. ولم يطلعوا على علوم طبيعية وإنسانية مثل علوم العظماء الآشوريين والبابليين، ولم يتأملوا في خلق الله بفطرتهم وبدوافع الفضول العلمي الذاتي، ولم تكن الأخلاق غريزة مولودة مع طفولتهم، ولم يكن في مجتمعهم علماء ولا مكتبات ولا حدائق، بل إن الصحابة هؤلاء بذرة نبتت في ذات المجتمع العربي الحربي الموحش، وبإمكاناته المتواضعة ونزعاته النفسية وثقافته البدائية، وهؤلاء الصحابة أنفسهم هم أحفاد العماليق الجبارين والفجار والذين منهم كان الهكسوس، والإنسان مهما تعلم الأخلاق فليس من السهل التخلص من النزعة البيئية التي تربى عليها وتغذت نفسه على مفرداتها، فالطبع يغلب التطبع. خصوصا أنهم لم يتربوا على مبادئ الدين والأخلاق في صغرهم وفي مجتمع سوي، بل كانت نفوسهم وعقلياتهم مشوهة من الأساس، وإن تلقوا الدين على كِبَر، فكان ذلك علاجا لأمراضهم العقلية والعقائدية والأخلاقية، ولا يمكن أن يتحول المريض بعد تلقي جرعة علاج إلى طبيب استشاري. فلا يمكن المساواة بين أخلاق النبي وأخلاق الصحابة باعتبارهم تلامذته لأن المادة الخام مختلفة، هؤلاء مرضى، وهذا طبيب معالج، ولأن الله عندما اختار رجلاً من العرب يحمله مسؤولية الدين اختار أفضل الخلق وليس أفضل العرب، وربّاه وأدبه على يده، أما النبي فلم يختر من العرب أفضلهم كي يتلقى الدين عنه، لأنه موجه إلى أكثرهم فسادا وشركا. أي أن الدين انتقل مرتين في مرحلتين متتابعتين، وهنا يظهر الفارق بحسبة بسيطة؛

ـ النقلة الأولى ((الله ألقى الدين إلى محمد وهو مؤهل تربويا خلقيا ونفسيا وعقليا قبل التلقي ومنذ طفولته، فكانت النتيجة: محمد نموذج حقيقي وتطبيق عملي مثالي للدين))

ـ النقلة الثانية ((النبي محمد ألقى الدين إلى الصحابة ولم يكونوا مؤهلين تربويا ولا نفسيا وعقليا وخلقيا من الأساس الاجتماعي الذي نشأوا فيه)) فهل تكون النتيجة مماثلة للنقلة الأولى؟ !

فالمرحلة الثانية "المتلقي" مختلفة في النقلة الأولى (من الله إلى محمد) عن النقلة الثانية (من محمد إلى الصحابة) من حيث المادة الخام الوعاء المستقبل المتلقي للدين، لأنه كان مؤهلا تربويا وأخلاقيا وعقليا قبل بدء البعثة، فنقل الرسالة صحيحة بقدر تأهيله من البداية، على عكس حالهم تماما لأن أغلبهم كان يناصبه العداء حتى بعد بدء رسالته، حتى عمر نفسه حاول قتله أكثر من مرة.. فالمسألة بحسابات منطقية بسيطة لا يمكن أن تتماثل النتائج، ولهذا كان النبي ﷺ حريصا على تدوين الوحي أولا بأول، وكان دقيقا في توجيهاته وتعليماته في كتابة الآيات ورسمها ونطقها وترتيبها في السور والسطور، ولم يترك العرب يتداولونه شفويا بأي حال..

إنما ما قيل عن أن أبي بكر جمع القرآن من صدور الصحابة بعد فترة من وفاة الرسول فهذا افتئات عربي جاء فقط لرفع شأن العرب على الشعوب وجعلهم ورثة النبي ولولاهم لما وصل الدين، فهم أصحاب منة على الشعوب (وهذه من الطبيعة النفسية للعرب حتى يومنا هذا)... رغم أن الرسول جاء لعلاجهم وكان حريصا أشد الحرص على حفظ القرآن منذ البداية حتى أنه أخذ يردد ويكرر خلف جبريل حتى لا ينسى حرفا أو كلمة فقال له الله: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) ١٨/ القيامة. أي استمع فقط لقراءة القرآن ونحن متكفلون بحفظه.

وبالتالي إذا كان الله قد أبلغ رسوله أن الدين رحمة وسلاما للعالمين، فمن الطبيعي والمتوقع أن ينشر النبي دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، لأن الوعاء يضع صبغه ولونه ورائحته على المنتج في كل حال، ولذلك كان لا بد أن يكون الوعاء طاهرا وليس كقلوب العرب، فالوعاء النبوي كان متوافقا مع الإسلام وملائما له قبل نزوله، ولهذا انتقل الإسلام إلى العرب في خط سير طبيعي وملائم ودون تغيير في طعمه أو لونه أو رائحته.. أما الوعاء العربي فكان متناقضا كليا مع الإسلام قبل ظهوره. فلا يكون مستغربا أن ينشر الصحابة دينهم بالسيوف والذبح والقتل قرينا بظاهرة السبي والوطء خلال سلسلة الجرائم التي عرفت بالفتوحات.

إن أجيالنا بعد مائتي عام فقط سيدركون ما لم نستطع إدراكه، إا أن القرآن جاء علاجا لهذه القومية العربية المريضة لكنه لم يسلم من بخر أنفاسهم.. فتسببوا في بث الفساد في محتواه الفكري

والقيمي.. إن الصحابة الكرام الذين نعتبرهم اليوم زعماء عظماء وآباء روحيين دينيا وسياسيا، وأنهم حملوا الإسلام على كاهلهم .. سيدرك أحفادنا أن هؤلاء الصحابة ما كانوا إلا عبء ثقيل جدا على الإسلام ! فقد تسببوا في تشويه معالمه حتى أنه لم يعد دين وإنما صار ثقافة عربية وعقلية عربية بملامحها كاملة.. وهناك فروق شاسعة بين أن يكون الصحابة حملوا الإسلام على كاهلهم وأن يكونوا هم أنفسهم كانوا عبء على الإسلام.. لكننا لن ندرك ذلك لأننا ما زلنا نفكر تحت وصايتهم ولم نرتقي فوق أفكارهم وأفهامهم، بل هبطنا لما هو أسفل منهم فصاروا هم زعماء لنا !

فالفصيلة العربية من جذورها فصيلة فاسدة حتى النخاع، ولهذا اختصهم الله بالعلاج، وجميع فروعهم وعشائرهم بعث فيهم أنبياء بسبب كفرهم وشركهم وفسادهم، فلو نظرنا إلى الشعوب المدنية مثل الآشوريين والبابليين، أو الجبتيين مثلا لهم أصول جبتية جميعها سكنت أراضي إيجبت على طول امتداد وادي النيل ودلتاه، وقد رحل العظماء جيلا وراء الآخر وتركوا حضارة عظيمة، تركوا خيرا كثيرا لأحفادهم. أما أجداد العرب الأوائل فهم العرب البائدة، وقد محق الله بهم الأرض، ولهذا سُموا بالعرب البائدة لأنهم أبيدوا عن بكرة أبيهم مثل قوم عاد وثمود وجديس وطسم، فأما جديس وطسم، فقد قتلوا بعضهم بعضا حتى هلكوا جميعا.. وأما عادٌ فاستكبروا في الأرض وقالوا من أشد منا قوة، وأما ثمود فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذهم الله جل وعلا وأهلكهم جميعا، فقال تعالى: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ(٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ)٨/الحاقة: وثمود هم قوم صالح، وعاد هم قوم هود. هذه هي أصول الفصيلة العربية من جذرها، أما العرب الموجودة الآن فهم الفروع، ولذلك أول ما ظهرت الدعوة في مكة واستمرت ١٣ سنة آمن خلالها ما يقارب ٣٠٠ فرد فقط، وعندما عُرف أمر الدعوة على الملأ بدأت الحرب عليها، وحاصروا النبي حتى أفلت من يدهم بأعجوبة، وهاجر بعض أصحابه إلى المدينة وبعضهم إلى إثيوبيا حيث كانت ملاذا آمنا لهم، لأن الشعب الإثيوبي لم يكن مجتمعا حربيا منافقا يهوى الشرك والكفر مثل العرب، كانوا مسيحيين مثل الجبتيين، ولهذا استقبلوا الصحابة وأكرموهم.

ونعود بعد هذه الاستطرادة القصيرة، إلى الأمر الثالث أنه برغم نجاح خالد الوليد في إنقاذ الجيش من الفناء والعودة به سالما إلى المدينة، فلماذا عزل الرسول خالد من قيادة الجيش ووضع القيادة بيد صبي مراهق في السادسة عشر من عمره؟، وهو أسامة ابن زيد؟ فلو كان صحيحا أن النبي وصف خالد بأنه سيف من

سيوف الله أو سيف الله المسلول، لكان النبي من باب أولى أن يترك خالد الوليد يكمل مسيرته قائدا للجيش في المرة التالية حتى يحقق النصر للمسلمين على الأقل بعدما أثبت خالد كفاءته الحربية التي لا نظير لها في شبه جزيرة العرب، فكيف يمدحه ويصفه بأنه سيف الله ثم يعزله في ذات الوقت؟ فالواقع أن الرسول أنزل خالد من قيادة الجيش ورفع أسامة زيد مكانه، والسبب في رأينا المتواضع أن النبي يعلم يقينا أن خالد الوليد (يمتاز بالفروسية لا الإيمان) هو قائد حربي محترف في شؤون الحرب والعسكرية، لكنه لا يراعي مبادئ الإسلام في حربه ولا يمثل منهج الإسلام في تصرفاته وسلوكياته، فهو مسلم نعم، لكنه يتصرف بثقافة الجاهلية والهمجية والعنف، هو يتصرف وفق بيئته وطبيعة المنشأ ومدرسة الفروسية القرشية التي تربى فيها.

وبمعيار الرسول فليست الكفاءة الحربية معيارا لحسن الإيمان إطلاقا، فالفروسية لم تكن أبدا معيارا لصحة الإيمان أو حسنه، لأن رومل قائد قوات المحور في الحرب العالمية الثانية ربما كان الأكفأ عسكريا ولا أحد يعلم عن إيمانه أو إلحاده شيئا. وخالد الوليد في هذا الوقت كان قد مضى على إسلامه عام واحد تقريبا وكان في الثانية والخمسين من عمره. وقد سبق وتبرأ الرسول من أفعال خالد أكثر من مرة قبل ذلك حينما قتل أبرياء من بني جزيمة، أعطاهم الأمان وغدر بهم وقتلهم، ثم تبجح في الحديث مع عبد الرحمن ابن عوف في حضرة النبي، فحذره النبي ونهاه عن سب أصحابه أو الحديث معهم بأسلوب غير لائق.. وقال له: " مَهْلا يَا خَالِدُ دَعْ عَنْكَ أَصْحَابِي؛ فَوَاللهِ، لَوْ كَانَ لَكَ أُحُدٌ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا أَدْرَكْتَ غَدْوَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي وَلا رَوْحَتَه" غير أن خالد ليس من أصحاب الرسول، وإن كان من "الصحابة" في سياق الاصطلاح الذي ابتكره الفقهاء.. لكل هذه الأسباب نعتقد أن الرسول لم يطلق على خالد لقب" سيف مسلول"، بل إن ذلك محض تراث العرب وجزء من تاريخهم الذي اندمج بالدين.

إلى هنا وكان النبي ﷺ قد أدى أمانته وأشرف على لقاء ربه ولم يبق له إلا تأمين هذه الثغرة تجاه الدولة الرومانية التي كشرت عن أنيابها في أواخر أيامه، فأوصى قبيل وفاته بإرسال جيش المسلمين بقيادة أسامة زيد حارثة لسد هذه الثغرة الأمنية، فقد أفنى حياته في نشر الدعوة وتأمين مجتمعها، حيث بدأ في مكة من محور الدفاع السلبي عن "حق الوجود " وانتقل بعد ذلك إلى ممارسة حق الدفاع الشرعي بالوقوف وجها لوجه أمام جيوش الأعداء في مواقع عدة، ثم إلى محور الحقوق والحريات اللازمة لنشر دعوته وتتمحور جميعها حول محور الأمن والأمان لكل مسلم. وقد تعرض النبي ﷺ لخوض الكثير من الحروب دفاعا عن أصحابه وأهلهم، ولم تكن هذه الحروب وسيلة لنشر الدعوة بأي حال بل كانت حروب

عسكرية بحتة لظروف عسكرية بحتة يتقابل فيها جيشان في صحارى خالية تماما، وكانت جميعها حروب دفاعية، وكانت انتقائية وليست حصادة، ولم تقع حرب هجومية واحدة طوال حياته. لم يرد على لسانه ﷺ ذكرا لنشر الإسلام بالحرب أو في ظروفها ولم ينطق كلمة غزو أو غزوة أو هجوم أو إغارة أو غيرها، ولم يستغل انتصاراته في إكراه أحد على اعتناق دينه، ولم يتتبع فلول المنهزمين أمامه، ولم ينكل بهم أو بضحاياهم ، ولم يفرض على أحد جزية لمجرد رفضه الدين الإسلامي، بل كانت الجزية فرضا على من بدأ العدوان ثم انهزم ووقع تحت يد المسلمين، أي أن الجزية مسألة سياسية عسكرية وليس لها أي علاقة بالمعتقد الديني، غير أنه عندما فتح مكة لم يعاتب أهلها، برغم ما لاقاه وأصحابه من عناء ومشقة وتعذيب وتنكيل على مدار ثلاثة وعشرين عاما هي عمر الدعوة، تركهم لحالهم وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء" ليلقي درسا إنسانيا لأعدائه الذين ناصبوه العداء طيلة حياته وليلقي درسا أخلاقيا لأصحابه الذين تنتظرهم مقاليد السيادة في شبه الجزيرة العربية.. إنما الصحابة الكرام اصطلحوا إطلاق مسمى غزوة على كل معركة دخلها النبي برغم أن جميع معاركه كانت دفاعية ولم تتجاوز حدود الدفاع الشرعي.

وعلى كل حال، ينبغي عدم تدريس هذا التاريخ العسكري للأطفال المسلمين في المدارس والمعاهد، لأنه ليس جزءا من الإسلام، وليس شرطا لاكتمال العقيدة، وليس ركنا من أركان الدين، بل هو حدث سياسي عسكري اضطر النبي لفعله اضطرارا ولم يكن اختيارا منه، حتى وإن كانت هذه "الغزوات" قام بها النبي بنفسه، فلا ينبغي تقديسها باعتبارها من أفعال النبي أو أنها ركن من الدين لأنها في الأصل فعل مكروه عند النبي نفسه، فالنبي لم يكن يحب الحرب ولا القتال ولا العنف ولا الثأر، ولكن حظه أنه بعث في مجتمع حربي فاسد، ناصبوه العداء وشنوا ضده حروب عديدة، فاضطر لخوضها اضطرارا للدفاع عن الدين، إذن هي ليست من الدين، وليست من فعل النبي بل كان النبي مجرد رد فعل لكنه مشروع في حالة الضرورة والطوارئ ولا مفر منه.. وهي كره له وللمسلمين جميعا حوله، فالحرب لم تكن من أفعال النبي المحببة إلى قلبه وليست من عاداته أو هواياته، ولكن عدوان على النبي والإسلام، ومن ثم تحتم أن يكون له رد فعل يحمي نفسه ودينه، كما كان يسكن هو منزل من الطوب اللبن المسقوف بالخشب أو كان يبني خيمة بأربعة أوتاد أو ستة أو اثنا عشر ليحمي نفسه من الرياح أو المطر أو حرارة الشمس.. فلا يعني ذلك فرض علينا دراسة نوعية الخشب الذي استخدمه في مسكنه أو خامات غطاء الخيمة أو عدد أوتادها. فليست هذه الأمور من الدين حتى وإن فعلها النبي. ولو لم يشن الأعداء عليه حروبهم المتواصلة لما

فعل النبي هذا الفعل وما كان ليشتبك في هذه الحروب، ولمنع كل الناس منها، فهو رسول السلام جاء رحمة وسلاما للعالمين..

أما هذه الأحداث فكانت ظرف سياسي عسكري متعلق بالواقع وبالقومية العربية حصرا، وليس بالتشريع الديني أبدا ولا صلة له بالعقيدة إطلاقا، بل هي فعل من الأفعال العادية الضرورية لكل إنسان كمن يحتاج إلى الطعام أو تغيير ملبسه أو تجديد مسكنه أو زراعة أرضه أو سقي أنعامه..إلخ. فليس مجرد أن النبي فعل ذلك أن يصبح هذا الفعل مقدسا محببا لنفوس المؤمنين على مدار الزمان، أو أن نفهم أن حب الغزوات والحرب هو ما يقوي إيماننا بالله على اعتبار أن حياة الصحابة كانت هكذا !. فقط يجب على كل شعب إعداد كلية حربية جيدة وتدريب الضباط جيدا كضرورة معيشية لأي شعب دون أن تكون الكلية الحربية ركنا من أركان الدين، ودون أن يلتزم كل جبتي بمعرفة أدق تفاصيل مدرسة الصاعقة وتكتيكات سلاح المدرعات والمشاة وغيره ليكتمل إيمانهم بالله.. فهذه تخصصات من ضرورات الحياة وليس الدين والعقيدة، فشؤون الحرب هي ضرورة من ضرورات الحياة وليست ركنا من الدين، وهذه الضرورة ملجئة وليست مستحبة لأنها لا تقدم خيرا للبشرية، بل فقط لرد العدوان..

حتى وإن قال الله للعرب أن في الجهاد خيرا وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرّ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم.. فالخير العائد من الجهاد ليس هو السبي وإنما إحياء الدين والدفاع عنه وصونه (حماية الدين وليس نشره)، فإذا كان الدين في الأساس هو خير لشبه جزيرة العرب وعلاج لأمراضهم العقائدية والخلقية، فمن الطبيعي أن وسائل حمايته تنتسب لهذا الخير. فالجهاد ليس خيرا في ذاته وإنما وسيلة للخير، ليس غاية في حد ذاته، وإنما كانت حماية الدين هي الغاية التي يتحقق بها الخير. فقد يقول الأب لابنه أن العمل خير، ولا يعني ذلك بقصر نظر أن مشقة العمل وقسوته وتكاليفه المجهدة هي الخير، وإنما الخير هو عوائد هذا العمل، ولذلك نجد الله لم يقل مباشرة الجهاد خير وإنما تحدث ببعد نظر "وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم" وهذا الأسلوب غير المباشر في الخطاب يحتم أن يكون الخير غير مباشر وإنما في غايات أبعد من أن يدركها العقل الساذج.

ولو رجعنا إلى النبي ﷺ لوجدنا جميع المعارك التي خاضها كانت دفاعية، أي أن تحركه كان ضرورة ملجئة للدفاع، وإذا لم يأت عدوان لن يتحرك، إذن هل يكون الجهاد عبادة وتتوقف هذه العبادة لعدم هجوم أعداء؟ فالصلاة مستمرة طول الوقت كركن من أركان العبادة، وكذلك الصيام، لكن هل الجهاد ركن من أركان العبادة ومع ذلك تتعطل هذه العبادة لعدم هجوم أعداء؟! بالطبع فالحرب ضرورة

ملجئة وليست عبادة، فقط كان الجهاد في عصر النبي عبادة لأنه دفاع عن شخص النبي ورسالته، والحروب كانت على المدينة بسبب وجود النبي فيها، وليس الإنسان بحاجة لأن ينتظر دينا يأمره بالدفاع عن نفسه، إنما أمرهم الدين بالجهاد دفاعا عن النبي، (وهذا تكليف وقتي خاص بمن عاصر النبي فقط من المؤمنين) أما بعد وفاة النبي فلم يعد هناك جهاد، وإنما لكل شخص ولكل مجتمع حق الدفاع بالطريقة التي تناسبه، وليس للدين دخل في الحروب إلا بقدر ما تدخل في الزراعة والصناعة بمبادئه، فإذا كان الأمر كذلك فما هو تأثير دراسة العلوم العسكرية على العقيدة؟ وما هو تأثير دراسة الطب على العقيدة؟ برغم أنها من ضرورات الحياة أو ما أو علاقة الهندسة بالعقيدة؟.. لا شيء بالطبع، لكن المسلمين على مدار التاريخ اعتادوا أن يدرسوا لأطفالهم تاريخ الفتوحات والغزوات وكأنها مدخل إلى الجنة، وكأنها شيء مقدس ومحبب إلى النفوس، ولهذا خرجت النفوس مشبعة بروح الغزو والحرب والعنف باعتباره كان طريق الصحابة إلى الجنة..

إن الغزوات والمعارك التي خاضها النبي في شبه الجزيرة العربية ليست من الدين وإنما كانت في عصره ضرورة من ضرورات وجوده، خصوصا إذا عرفنا أن النبي بعث في مجتمع حربي بطبيعته يهوى الحرب والإغارة، فهي ضرورة من ضرورات الوجود وحق الدفاع عن الوجود وليست للعبادة، لأن النبي ما كان بحاجة إلى معارك لنشر دينه ورسالته، فهو قد أوتي من البلاغة والفصاحة وعوامل الجذب الروحي وكمال النبوة ما يغنيه عن استخدام القوة وإكراه الشعوب على احترامه واتباعه، لكن من طبيعة المجتمع العربي أنه مجتمع حربي ولديه من الدهاء والمكر ما تزول منه الجبال، وهو ما تفرد به على كل شعوب الأرض، ولهذا واجهوا دعوة النبي بشن الحروب والحملات العسكرية عليه ومحاصرته في أكثر من موقعة عسكرية للقضاء عليه ومن حوله، وحاولوا اغتياله أكثر من مرة، ووضعوا له السم في الطعام، واستهانوا وسخروا منه كثيرا في مكة، ووضعوا على ظهره سلى الجذور وهو ساجد يصلي عند المسجد الحرام، وكان جهاد الصحابة في سبيل الله في هذا الوقت لأنهم لم يكونوا يدافعون عن حياتهم بالدرجة الأولى، ولكن يدافعون عن حياة هذا النبي، فإذا تم اغتياله يكون قد تم اغتيال الدين في صدره، ولذلك كان الله يحفزهم بالجهاد في سبيله دفاعا عن الدين المتمثل وقتها في حياة النبي ووجوده واستمرار نزول الوحي حتى يتم دينه على الأمة. فإذا تمت الرسالة وتوفى النبي فلا جهاد بعد ذلك، لأنه لو فرضنا وحدث هجوم على المجتمع، فمن الطبيعي أن يدافع المجتمع عن نفسه دون حاجة لدين يأمره بالدفاع عن نفسه.

هذا الوضع عكس الحال تماما من الشعوب المدنية مثل البابليين والآشوريين، إذ أن الجبتيين مثلا شعب مدني ومتدين بطبعه وفطرته يميل إلى نزعة الطواعية الدينية، ولذلك بعد مرور عشرين عاما من رحيل عيسى عليه السلام، انتقل من فلسطين إلى إيجبت أحد أصحابه من الحواريين، جاء بنسخة من الإنجيل ونشر الديانة المسيحية في إيجبت كلها، دون أن يحاربه أحد من الجبتيين أو يسخر منه كما كانت قريش تسخر من النبي، نشر دينه في الشعب الجبتي كاملا برغم أنه ليس نبي.. علم الجبتيين الإيمان والتوحيد بمفرده ودون أن يكون له معرفة سابقة بالجبتيين ودون أن يكون له جيش يحميه، ودون أن يشن عليه الجبتيين حملات عسكرية ولا حروب ودون أن تتشكل حوله حلقات وجيوش من المنافقين والأفاقين.. وهو ليس نبي مرسل ولا يتمتع ببلاغة وفصاحة النبي ولا حكمته، ومع ذلك تمكن من نشر الدين لأنه وجد التربة الجبتية خصبة.. وشتان ما بين العظماء والأعراب.

بينما الشعب العربي أرسل الله إليهم نبي رسول وهو أفضل رسل الله فحاربوه وناصبوه العداء وشنوا عليه حملات عسكرية لمقاومته.. إذن لو لم تكن هذه الطبيعة الوحشية للشعب العربي ما احتاج النبي إلى الانخراط في معارك عسكرية من هذا النوع، ولو كان النبي محمد إيجبتيا لتمكن من نشر دعوته في إيجبت كلها خلال عام واحد، ولساعده الجبتيون في نشر دينه في العالم كله دون الحاجة إلى دخول حربٍ واحدة إلا في جزيرة العرب، لأن طبيعتهم وعقليتهم مختلفة عن كافة شعوب الأرض، بينما هو استمر في العرب ٢٣ عاما يحاربونه ويناصبونه العداء، ثم في النهاية اكتشف أن نصف المسلمين حوله في المدينة منافقين، وأن المؤمنين الأتقياء معدودين، ونزلت سورة التوبة لتفضح هذا النفاق الذي كان مرضا نفسيا في العقلية العربية جاء ممتزجا مع المكر والدهاء الذي جبلوا عليه من طبيعتهم الصحراوية الفجة المتوحشة، ثم بعد رحيله ظهر الوجه الأكمل للنفاق العربي حينما ارتدت القبائل العربية عن الدين.

وهذا ما يعني أن الإسلام جاء بطبيعتين ثقافيتين مزدوجتين، الأولى محلية والثانية عالمية؛ وأما الأولى المحلية فقد حملت في طياتها ملامح القومية العربي وعلاج روحاني للعرب لأن طبيعتهم الموحشة (سلوكيا وفكريا) كانت تقتضي علاجا من نوعٍ خاص، وكانت تقتضي أساليب وقاية من نوعٍ خاص كان من بينها أسلوب الجهاد لحث المؤمنين على حماية النبي والدفاع عنه ضد العدائيات العربية، بما يعني أن الجهاد كان فريضة خاصة بالقومية العربية طالما كان الإسلام في مرحلة الحضانة التي تحتاج إلى وقاية وحماية من العرب أنفسهم.

ولذلك يجب علينا تنقية الإسلام من كل ما يتعلق بالقومية العربية، سواء كان عادات المجتمع العربي وأعرافه أو طبيعته النفسية أو حروبه وغزواته أو أحداثه التاريخية، حتى وإن وردت هذه الأمور في القرآن، فهي ليست من الدين ولا تمس العقيدة، ولا ينبغي أن تكون خلفيتنا الثقافية الدينية مشتقة من حياة المجتمع العربي وقت البعثة أو حتى وقت نزول القرآن، لأنه جاء به كثير من الأوامر الوقتية الخاصة بالبيئة العربية، والتي لم تكن لتتلاءم مع الشعوب المدنية لو كان النبي بعث في إيجبت. فطبيعة هذه الأحداث والوقائع ليست من طبيعة الشعب الجبتي ولا شعوب الحضارات بوجهٍ عام، وعلينا أن نستقبل من الإسلام ما يخاطب الحضارة فقط، ما يخاطب حياتنا فقط، أما ما كان يخاطب العرب في عصره فهو محض تاريخ وقصص قرآني للعبرة فقط. لأن (آيات الحرب والجهاد والتوعية من المنافقين) كانت محض وسيلة تغلب على أمراض القومية العربية.. وسيلة تواصل ظرفية بين النبي وربه بشأن كيفية التعامل مع المجتمع العربي المتوحش هذا.. فليس كل ما ورد في القرآن هو من أصل الدين والعقيدة أو أنه أوامر مستديمة دون قيود ظرفية، وعلى سبيل المثال، ورد ذكر اسم أبو لهب في القرآن، فهل أبو لهب ركن أو دعامة في الإسلام؟ بالعكس هو ورد في القرآن تأكيدا على خروجه من الدين أصلا، وتأكيدا على ابتعاده عن العقيدة الدينية، والإشارة إلى الحروب والحركات العسكرية وردت في القرآن ليس بوصفها أركان من الدين واجبة الإيمان بها وتطبيقها كل وقت وحين، وإنما كانت في سياق تاريخي فقط، سياق الحدث والظرف وتأييد لموقف النبي وتوجيه له في التعامل مع هذا المجتمع وخصوصيته القومية.. هذا المجتمع المتوحش ماديا وفكريا، وقد تمثل هذا التوحش المادي في سلسلة الحملات العسكرية التي شنوها عليه، وأما التوحش الفكري فقد تمثل في دوائر المنافقين الذين فضحتهم سورة التوبة حتى أصبحوا لا يبارحون منازلهم خوفا من أن يكون الله قد أخبر النبي بأسمائهم مع سورة التوبة..

وكل هذه الظروف ليست من أركان الدين ولا رسالته إلى العالمين، بل علاج ومعاملة خاصة للقومية العربية الفاسدة، وهي ظرف زماني مكاني محصور بنطاقه، حتى وإن ورد في القرآن فلا يعني استمرارية هذه الظروف باستمرارية الإسلام في الشعوب، لأنه متعلق بنطاق وحدود القومية العربية وظروف الدعوة فيها نظرا لطبيعة العرب الحربية الوحشية الهمجية.. لأن النبي ﷺ بعث في مجتمع يعيش في قيعان الحضارات، نشاطه الرئيس هو الإغارة، ولديه طبيعة حربية غريزية، ليس مجتمعا متآلفا بالفطرة كما شعوب الحضارات؛ البابلية والأشورية والشامية والجبتية..إلخ. فلا يوجد دين على وجه الأرض يأمر بالقتل والعدوان.. وتتساءل الشعوب المعاصرة عن الإسلام وأن الإسلام كان من الممكن أن يكون أفضل لو خلا من الجهاد، متخيلين أن الحرب والقتل ركنٌ من أركان العبادة كما الصلاة!..

متخيلين أن الطبيعة الحربية المتوحشة الخاصة بالقومية العربية صارت ركنا أسياسيا في الإسلام، وأن على كل مسلم أن يتقمص هذه العقلية وهذه القومية، باعتبار أنها قومية النبي ! برغم أن النبي بُعث تحديدا لعلاج هذه القومية وليس لتعميمها على الشعوب!

في الواقع نحن المسلمين من زرعنا هذا الجهاد في الدين وجعلناه حائلا دون اعتناق الشعوب له، نحن من جسّدنا نفوسنا وأفكارنا وأوجدنا للنوازع النفسية العدوانية مبررا دينيا.. والحقيقة أن كافة آيات القتل والقتال والجهاد الواردة بالقرآن لم تعد فاعلة، ليس في عصرنا فقط، بل من لحظة انتهاء الظرف الذي كان السبب في نزولها، فجميعها أوامر وقتية ظرفية وليست مستديمة، لكن الطبيعة النفسية الحربية لدى العرب جعلت منها أوامر مستديمة كما الصلاة.. في الواقع لا جهاد في الإسلام إلا باعتباره حق الدفاع المشروع للمسلم كما لغير المسلم.. لكن الواضح أن الإسلام دخل كهف العرب واصطبغ بعقليتهم البدوية المتوحشة ماديا وفكريا، وظل إلى اليوم ممزوجا بتاريخهم وأعرافهم وتقاليدهم وجرائمهم وأفكارهم المتوحشة ومروياتهم.. وهذه دعوة لإنقاذ الإسلام من كهف الظلم.. فالإسلام لا يمكن أن ينتشر مُحملا بصبغة القومية العربية وملامحها التي جاء خصيصا لعلاجها.

وفي هذه الإضاءة السريعة التي أضاءت لنا جوانب جوهرية من حياة النبي وفلسفته خاصة في ميدان الحرب والقتال، كان متسامحا للدرجة القصوى مع من ناصبوه العداء ولم ينتقم من أحد.. كان تحركه الدعوي فعل ومبادرة، بينما تحركه العسكري فكان محض رد فعل لفعل سابق عليه.. حتى رد الفعل كان في حدود حق الدفاع المشروع، ولم يتطور إلى الانتقام أو التنكيل.. كان متسامحا لأقصى درجة.. لكن كل هذا التسامح لم يغسل بطون العرب، ولم يصفّ نفوسهم بالكامل مما غرسته تقاليد الحياة العربية البدوية.. هذه البيئة والمنشأ كانت مسيطرة لكنها سكنت داخل النفوس طوال عهد النبي، وتوافدت جموع العرب تتحالف مع النبي وتعتنق الإسلام دينا، لكن كثير منهم لم يكونوا مؤمنين حقيقيين، هم فقط فروا من المركب الغارق، كما حدث عند فتح مكة، فكانت مكة هي قلعة قلاع العرب ومحور التجارة والحج والعبادة في شبه الجزيرة، وبمجرد دخوله مكة، انقلبت موازين القوى السياسية، ما جعل الوفود والقبائل تتكاثر عليه عارضة إسلامها، الذي كان أغلبه في واقع الأمر إسلام سياسي وليس عقائدي.. هؤلاء هم فلول الوثنية والشرك القرشي.." وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) ٤٦/إبراهيم، والفلول هم بقايا قريش الذين اضطروا لإعلان إسلامهم عند دخول النبي مكة المكرمة، كان موقفهم صعب من الخزي والعار، برغم أن النبي تركهم

لحالهم، لكنهم فضلوا الانضمام إلى الحلف الغالب المنتصر، وكان ذلك انضماما سياسيا وليس إيمانا عقائديا، لأنه حدث في ظرف انكسار سياسي عسكري انقلبت فيه كل موازين القوى، حتى أن النبي تعامل معهم بمنطق المرتزقة، أو المؤلفة قلوبهم، وزاد أنصبتهم عن غيرهم عند تقسيم الغنائم في محاولة لمداعبة قلوبهم القاسية الجريحة حتى تلين.

وبعد عامين من هذا الحدث الجلل في تاريخ شبه الجزيرة، توفي النبي ورحل إلى رحمة ربه، بينما بدأت حركة الفلول تظهر من جديد لتحمل الراية وتتصدر المشهد السياسي. فعادوا إلى سيرتهم الأولى، وقد فك قيد الإسلام عنهم برحيل الرسول. عادوا لحياة القبلية والحربية والفروسية والسطو المسلح على الشعوب.. وزعموا أنهم ينشرون دين الله.. هجموا على الحضارة الجبتية فسقوا الجبتيين مرارة الصحراء وكحلوا عيونهم بغبارها والجهل والوحشية والهمجية.. ولم يستطع الجبتيون التعامل معهم لأن الجبتيين شعب مدني ودود هادئ الطبع، ظن بهم خيرا في بداية الأمر لكنهم خدعوه وكشروا عن أنيابهم.. هدموا حضارته لأنهم ليسو من شعوب الحضارات..



وصل ابن العاص إلى الإسكندرية وحاصرها فترة حتى سقطت، وبمجرد أن فتحت أبوابها وطل عمرو على شواطئها وشاهد المنشآت واصطدم بحجم الحضارة والقصور والقلاع والعبقرية المعمارية والتنظيم المدني الحضاري.. لم يرد أن يخرج منها، استحب قصورها وقلاعها ومكتباتها وشوارعها وحدائقها وشواطئها ومسلاتها ومنارتها التي تحدت ٢٢ زلزالا على مدار تاريخها.. كانت الإسكندرية مدينة ملكية لم ير عمرو وأمثاله مثلها في صحراء قريش.. ولهذا قرر أن يتخذ له قصرا فيها، لكن عمر الخطاب رفض أن يحقق له ما تمنى وألزمه بالإقامة قريبا منه في القاهرة.. فجلس متكئا في خيمته وعينه على الهرم..



الإضاءة الثانية

ملخص وقائع الفتح العربي لمصر



في مطلع العام الجاري ٢٠١٩ تم القبض على أحد المواطنين السعوديين من أهالي مكة ممن تعود أصولهم إلى المجاهدين القدامى، وكان يبيع الطاسات الخاصة بإطارات سيارة تويوتا للحجاج والمعتمرين الأجانب، ويقول لهم أنها دروع الصحابة الكرام أيام الغزوات والفتوحات... ذكرني هذا التاجر الأمين بحقبة الفتوحات والغزوات، وخاصة الفتح الإسلامي لمصر..

ففي إيجبت كانت الإسكندرية العاصمة الأولى التي بها دوواوين الدولة والحكم، وكان المقوقس حاكم مصر من أصلٍ قوقازي وليس قبطي وضعه الرومان لضمان ولائه لهم في حكم إيجبت، ولم يكن هو الحاكم الفعلي للبلاد، لأن الحاكم الفعلي وقتها كان رومانيا، وكان المقوقس تابعا لكنيسة غير الكنيسة الرئيسية في مصر وقتها أي أنه فعليا لا يمثل الشعب المصري برغم أنه يملك الأمر والنهي إداريا، واتفق مع عمرو العاص على أن يتوسط بينه وبين الرومان للحفاظ على مكانه هو في الحالتين.. وبرغم ما كان يعانيه شعبنا المصري من ويلات تحت الاحتلال الروماني بسبب ما يمارسه من إكراه واضطهاد ديني، إلا أنهم لم يتطلعوا إلى رحمة العرب كما يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل أن المصريين ترقبوا احتلال أقل قسوة، ولم يتعاونوا مع قوات الحاكم الروماني وانتظروا نهاية المشهد خلف الأسوار، بل كان أجدادنا المصريون يجاهدون العرب في كل قرية وكل مدينة ولا توجد قرية واحدة دخلها عمرو باستسلام أهلها إطلاقا، وكل ما في الأمر أنهم لم يكن لديهم جيش، بل كانوا يقاتلون بالسلاح الأبيض وفي تجمعات وليس كتائب، حيث يتجمع أهالي كل قرية وكل مدينة في حالة طوارئ وكثير منهم استطاع صد هجمات عمرو وكلابه من قبيلة بني عك.

بينما اليهود المصريون تعاونوا كثيرا مع الجيش العربي بسبب تنكيل الرومان بهم، فقدموا الكثير من المساعدات والرشاوي السياسية والعسكرية لعمرو ابن العاص، وقد قبلها وأثابهم في النهاية.. كان

سيدنا عمرو ابن العاص يستخدم اليهود في نشر الإسلام وتمهيد الطرق له لدخول بلادنا ! وارتبط فتح مصر بأهميتها السياسية والاقتصادية، وذلك بما لديها من خصائص وما توفره من إمكانات على جانب كبير من الأهمية. وبعدما هرب الحاكم الروماني من الشام بعد فتح فلسطين إلى مصر، فكر العرب في تأمين جانب دولتهم من ناحية مصر لتطويق الرومان. ويروي ابن عبد الحكم أنَ عمرو العاص أشار على عمر الخطاب بفتحها وقال» :إِنكَ إن فتحتَها كَانت قوة للمُسلمِين وعونا لهم، وَهِيَ أكثرُ الأرْضِ أموالا وأعجزها عنِ القِتَالِ والحَربِ«.

وعلى هذا الأساس جاء فتح مصر وضمها لحكم العرب لإعادة توازن القوى بين العرب والروم، فأرشده عمرو العاص لاحتلال إيجبت لإعادة التوازن، على أساس وفرة المال فيها وعجزها عن الحرب، وتردد عمر الخطاب كثيرا في هذا القرار، لكن عمرو العاص كان كثير الإلحاح. وبالنسبة لعمر الخطاب فهو لم يكن منافقا ولم يخدع نفسه والعالم بمقولة أنه إنما وجه الجيش لمصر من أجل نشر الدين، بل كان الأمر محض موازنات في صراع القوى بين العرب والروم وبحث العرب عن مواطن الثروة والقوة لدولتهم الصاعدة. وكان عمر مُصرا على توقيف حركة الفتوحات هذه في حدود موازنات القوى العسكرية والسياسية فقط، ولم يستخدم جيشه لنشر دين.. ولم يخطر بباله فكرة نشر الدين عند دخول جيش عمر لمصر، لأن عمر كان يدرك جيدا أن الجيوش لا تنشر أديان، ولهذا عندنا نعود للتدقيق في الحوارات التي دارت بين عمر وعمرو لن نجد فيها كلمة واحدة تشير إلى أنه كان هناك نية لنشر دين أو خطرت ببالهم مثل هذه الفكرة إطلاقا.

ففي عام ٦٣٨م بعد تسليم بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب، قابله عمرو بن العاص وأعاد عليه الإلحاح في طلب فتح مصر، وجعل يبين للخليفة وضع إيجبت من الغنى والثروة مع سهولة فتحها، وقال له إنه ليس في البلاد ما هو أقل منها قوة ولا أعظم منها غنى وثروة... وأن مصر تكون قوة للمسلمين إذ هم ملكوها، وكان اجتماع القائد بالخليفة في(الجابية) قرب دمشق. وهذا الكلام يعرفه القاصي والداني دون خلاف، وهذا يؤكد لنا أن الأمر لم يكن له علاقة لا بدين ولا نشر دين ولا تأمين دعوة ولا تأمين حدود الدولة العربية كما يزعم المدافعون عنها، فعمرو ابن العاص لم يُعدَ قائمة بأسماء الدعاة والمشايخ الذين سينشرون الإسلام في إيجبت، إنما هو حاول إقناع الخليفة عمر بحجم الثروة والغنى.

ولكي نوضح للقارئ صورة سريعة عن شخصية عمرو، فقد دخل عمرو العاص هذا مع علي ابن أبي طالب في مبارزة يوم معركة صفين، بين عرب وعرب.. صحابة وصحابة، وامتطى كل منهم فرسه واستعد لقتال الآخر، وكان علي ابن أبي طالب ذو حكمة وعلم وأدب، وكان أيضا فارسا شجاعا، فلما أشرف عمرو العاص على الهزيمة أمام علي، ووقع من على ظهر فرسه جرى في الصحراء وكشف عورته.. كما يقول الشيخ الشعراوي: خلع كل ملابسه حتى يستحي علي ابن أبي طالب النظر إليه، فينصرف عنه.. هكذا كانت أخلاقه وقيمه وشجاعته التي جاء بها لينشر الإسلام في مصر ! وهذا هو عمرو العاص الذي دخل مصر فاتحا لينشر فيها الدين، ويعلم المصريين قيمه وأخلاقه ومبادئه !..

وفي ديسمبر ٦٣٩م لقي اقتراح عمرو هذا قبولا لدى الخليفة عمر لتحقيق الأطماع التي وعده بها عمرو، فقد وافق الخليفة وهو متردد على سير عمرو بن العاص لمصر، سار عمرو في جيش صغير من أربعة آلاف جندي أكثرهم من قبيلة عك وإن كان الكندي يقول أن الثلث كانوا من قبيلة غامق، ويروي ابن دقماق أنه كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الروم وممن أسلم من الفرس، وقد سماهم في كتابه، وسار بهم من عند الحدود بين مصر وفلسطين حتى صار عند رفح وهي على مرحلة واحدة من العريش بأرض مصر، فأتت عند ذلك رسل (تحت المطي) تحمل رسالة من الخليفة، ففطن عمرو إلى ما فيها، وظن أن الخليفة لابد قد عاد إلى شكه في الأمر، خاشيا من الإقدام والمضي فيما عزم عليه. فلم يأخذ الرسالة من الرسول حتى عبر مهبط السيل الذي ربما كان الحد الفاصل بين أرض مصر وفلسطين، وبلغ بسيره الوادي الصغير الذي عند العريش، وهناك أتى له بالكتاب فقرأه ثم سأل من حوله أنحن في مصر أم في الشام ؟ فقيل له نحن في مصر. فقرأ على الناس كتاب الخليفة ثم قال: إذن نسير في سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين، وكان الخليفة يأمره بالرجوع إذا كان بعد في فلسطين، فإذا كان قد دخل أرض مصر فليسر على بركة الله ووعده أن يدعوا الله له بالنصر وأن يرسل له الإمداد[٦].

وهنا لا بد أن نعترف صراحة أن احتلال عمر ابن الخطاب لبلادنا إيجبت لم يكن هدفه نشر دين وإنما الثروة التي وعده بها عمرو ابن العاص، لكن حبنا الشديد لعمر ابن الخطاب يمنعنا من الجهر بأنه احتل بلادنا طمعا في ثرواتها، فهل نحن نحب عمر ابن الخطاب أكثر من حبنا لوطننا ؟! عن نفسي.. لا أحب أحد أكثر من وطني وأبناء شعبي، ولا أسمح للصاحبة الكرام بأخذ ميزانية الدولة ٢٣٠ سنة كاملة وتصديرها إلى السعودية كل عام، ولا يمكن أن أسلم بلدي إلى خليفة العرب عمر الذي طمع في ثروة

(٦)ـ د. ألفريد بتلر، كتاب "فتح العرب لمصر" ص ٢٢٨ـ٢٣٠

بلادنا، ولا إلى قائده عمرو الذي طمّعه فيها. بل إننا ضحينا بما يجاوز الخمسة وثلاثين ألف شهيد في أكتوبر للدفاع عن أرض الوطن، فكيف نسلمها لعمر ابن الخطاب بهذه السذاجة ! إنما رجال الدين على مدار التاريخ يقنعونا بأن احتلال عمر ابن الخطاب لبلادنا كان فتحا ! برغم أنه كان طمعا في ثروتها وهم يعلمون ذلك ولا ينكرون، إنما نحن المغفلون.

في يناير ٦٤٠م الاستيلاء على بلوز (الفرما)

وصل العرب إلى مدينة بلوز، واسمها الهيروغليفي (برمون)، ويسميها العرب (الفرما)، في نهاية سنة ٦٣٩م وكانت مدينة قوية بها حصون وبها كثير من الآثار الجبتية والكنائس والأديرة. وكان لها مرفأ متصل بالمدينة بخليج يجري من البحر، وكان فرع من النيل اسمه الفرع البلوزي يصل إلى البحر بقربها، وكان لها شأن كبير إذ كانت بوابة إيجبت من الشرق. استمرت الحرب متقطعة بين العرب وبين حامية المدينة مدة شهر أو شهرين. واستولى العرب عليها بعد قتال عنيف، وهدموا الحصن، وأحرقوا السفن وخربوا الكنائس الباقية بها[٧]. أي أن العرب لم يدخلوا إيجبت صلحا كما اعتادوا أن يكذبوا، بل دخلوها بسلسلة من الحروب بدأت من الحدود. بل إن المشكلة أننا كمسلمين نشعر بالسعادة إذا ما عرض علينا تسليم بلادنا مجاملة للصحابة الكرام! كي ينهبوا ثروتها ويصدرون خزينة الدولة بالكامل إلى السعودية ليتم توزيعها على قبائل بني قينقاع وبني كلب وبني عك!

أوائل مايو ٦٤٠م غارة عمرو الأولى على الفيوم:

كانت ثغور الفيوم ومداخلها قد حرست حراسة حسنة وأقام الروم ربيئة لهم في حجر اللاهون.. فعدل العرب إلى جانب الصحراء وجعلوا يستاقون ما لاقوا من الغنم، فأخذوا منها عددا عظيما، وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة اسمها البهنسا ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال، ولم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم، وعادوا أدراجهم منحدرين مع النهر[٨].. وهذه كانت هذه وسيلة الصحابة الكرام لنشر الدين، أن يبدأوا بخطف الغنم وقتل الأطفال والنساء ! هل يبدأ نشر الدين بخطف قطعان الغنم !

(٧)بتلر ـ ص٢٣٤ وكامل صالح ص٦٥

(٨)بتلر ص٢٥٤ و ٢٥٥

وفي ٦ يونيو ٦٤٠م وصل الإمداد بقيادة الزبير بن العوام أحد رجال الشورى الستة، وكان معه أربعة آلاف رجل، ثم جاء في عقبه كتيبتان كل منهما أربعة آلاف رجل، فكان جميع ما جاء من الإمداد أثنى عشر ألفا[٩]

منتصف يوليو ٦٤٠ عين شمس وموقعة أم دنين:

تجمعت جيوش العرب عند هليوبوليس، وكانوا يسمونها عين شمس واسمها بالقبطية (أون)، وكانت معروفة بعظمة آثارها، ومركزها العلمي، ومما يذكر أن أفلاطون كان يتلقى فيها العلم.[١٠] وأعد العرب كمينين لجيش الروم، وأمرهما عمرو أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته إذا ما سنحت لهما الفرصة، وحدثت المعركة في الموضع الذي يسمى اليوم (العباسية). واستولى العرب بعد انتصارهم هذا على حصن أم دنين (بين عابدين والأزبكية الآن)، وهرب من كان فيه من الروم إلى حصن بابليون أو إلى حصن نقيوس.[١١]

أواخر يوليو ٦٤٠م الاستيلاء على الفيوم؛

لما بلغت أنباء نصر العرب إلى الفيوم غادرها من بها من المسالح، فخرج (دومنتيانوس) من المدينة، في الليل وسار إلى (أبويط) ثم هرب إلى نقيوس، ولما بلغ نبأ هروبه إلى عمرو بن العاص، بعث كتيبة من جنده عبروا النهر وفتحوا مدينتي الفيوم وأبويط وأحدثوا في أهلها مقتلة عظيمة[١٢] .

أوائل سبتمبر ٦٤٠م (بدء حصار حصن بابليون (مدة الحصار كانت ٧ أشهر)

وكان حصنا عظيما، أسواره بارتفاع نحو ستين قدما وسمكها ثمانية عشر قدما، وبه أربعة أبراج بارزة بينها مسافات غير متساوية، وكان ماء النيل يجري تحت أسواره والسفن ترسوا تحتها، وكان به صرحان عظيمان، وكل صرح من هذين الصرحين، دائريا يبلغ قطره نحو مائة قدم، وكان الصاعد إلى أعلى الصروح يشرف على منظر عظيم يبلغ مداه المقطم من الشرق وإلى الجيزة والأهرام وصحراء لوبيا من

---

(٩) ـ كتاب فتح العرب لمصر تأليف الدكتور ألفريد بتلر ص ٢٥٦

(١٠) ـ كتاب فتح العرب لمصر تأليف الدكتور ألفريد بتلر ص٢٥٨

(١١) ـ د. ألفريد بتلر – المرجع السابق ص٢٦٣

(١٢) -بتلر ص٢٦٤

الغرب، وإلى قطع كبيرة من نهر النيل من الشمال والجنوب، وكان الناظر من هناك لا يقف شيء دون بصره حتى يبلغ مدينة عين شمس.(١٣)

وكانت جزيرة الروضة كذلك ذات حصون ومنعة في ذلك الوقت، وكانت تزيد من قوة حصن بابليون وخطره الحربي، بأنها في وسط النهر تملك زمامه. ويظهر من قول بن دقماق أن العرب غزوا تلك الجزيرة في أثناء حصارهم لحصن بابليون، فلما خرج الروم من هناك هدم عمرو بعض أسوارها وحصونها.(١٤)

أكتوبر ٦٤٠م معاهدة بابليون الأولى لتسليم الحصن.

خرج قيرس المقوقس سرا من حصن بابليون وذهب إلى جزيرة الروضة لمفاوضة العرب، وأرسل من هناك رسلا إلى عمرو بن العاص، ورد عمرو على المقوقس بقوله: ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال:ـ

١ـ إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا.

٢ـ وإن أبيتم، فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

٣ـ وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال، حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين.(١٥)

وهذه العبارات الثلاث تؤكد أن هؤلاء العرب الذين اعتبرناهم صحابة كرام، لم يكن لديهم أي خلفية عن حرية الاعتقاد، فهم تعاملوا مع أجدادنا الأقباط إما معنا وإما تحتنا، فلم يعرضوا أي تسامح كما قيل، بل طلبوا دفع الجزية صاغرين، وهذه الجزية بالطبع كانت عقوبة على عدم اعتناق الإسلام، لأن العرب في البند الثالث قرروا القتل إن لم تدفع الجزية، وهذا ما يعني أن القتل هنا على قيمة الجزية ذاتها أي أن الصحابة العرب الفاتحين ما كانوا بذلك إلا قطاع طرق يفرضون الإتاوات على الناس ومن يرفض الدفع تعرض للقتل ! فهل كان ذلك نشر دين ! غير أن الأقباط في هذا الوقت كان مستحيلا لهم أن يتعرفوا على دين العرب وهم جيش بربري دخل عليهم بلادهم بهذه الطريقة، فأين الوقت الذي سمح للأقباط بالتعرف على دين هؤلاء العرب كي يعتقوه ويتفادوا الجزية ! إنهم كانوا في ظرف مفاوضات عسكرية، والأديان هي ثقافات لا يمكن التعاقد عليها في صفقة عسكرية بهذا الشكل أبدا، غير أن

(١٣) ـ بتلر ص ٢٧٠
(١٤) ـ بتلر ص٢٧٢
(١٥) ـ بتلر ص ٢٨٤

العرب كانوا بدو متخلفين جدا بالنسبة للأقباط الذين كانوا مجتمع حضري متمدن، فهل من المنطق وبسهولة أن يقبل الأقباط اعتناق فكر وثقافة هؤلاء البدو الذين دخلوا عليهم بلادهم بطريقة بربرية ! غير أن الأقباط كانت لغتهم الهيروغليفية، والعرب لغتهم العربية، أي كان هناك حاجز لغوي منيع، فكيف ومتى تعرف الأقباط على دين هؤلاء البدو العرب في ظرف المفاوضات العسكرية هذا ! بل إن مجرد تخيير الأقباط بين الجزية والدين لهو إكراه مباشر على الدين.

وقد كرر عبادة بن الصامت، المتكلم باسم العرب، كرر هذه الشروط للمقوقس عدة مرات. وانتهت هذه المقابلة باختلاف الآراء وعاد العرب إلى الحرب، ولكن الدائرة كانت على الروم، فجعلتهم يفكرون في العودة إلى المفاوضة. عادت المفاوضات مرة أخرى، وكانت الخصلة التي أختارها الروم، هي الجزية والإذعان، فعقد الصلح على أن يبعث به إلى الإمبراطور، فإذا أقره نفذ. وعندما وصلت أخبار هذه المعاهدة إلى هرقل أرسل إلى المقوقس يأمره أن يأتي إليه على عجل. (ومجرد اشتراط عرض المعاهدة على الإمبراطور، فهذا يعني أن الأقباط أصحاب البلد الذين عرض عليهم الدين لم يكونوا في الصورة إطلاقا، حتى أن معاهدة عمرو ابن العاص تم تدوينها بلغتين فقط، اليونانية والعربية، أي أن أجدادنا الأقباط لم يكونوا في الصورة ولم يتعرفوا على الإسلام الذي حمله عمرو ورجاله المجاهدين في سبيل الله!

منتصف نوفمبر ٦٤٠م هرقل يستدعي المقوقس إلى القسطنطينية.

وصل المقوقس إلى القسطنطينية، بعد أن استدعاه الإمبراطور هرقل، وحاول أن يدافع عن نفسه أمام الإمبراطور بكلام لم يقتنع به هرقل، وغضب عليه واتهمه بأنه خان الدولة وتخلى عنها للعرب، ونعته بالجبن والكفر وأسلمه إلى حاكم المدينة، فشهر به وأوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده طريدا. وكان المقوقس يرى أن العرب هم قوم الموت[١٦] وأن الله أخرجهم لخراب الأرض[١٧]. وقرب نهاية عام ٦٤٠ بعد رفض هرقل لمعاهدة المقوقس، عاد القتال بين العرب والروم حول الحصن (حصن بابليون)، إلى أن وصلت الأخبار بموت هرقل. وكانت وفاته قبل فتح حصن بابليون بشهرين تقريبا، وبعد وفاته، تولى الأمر بعده، بعهد منه، ولداه قسطنطين ابن زوجته أدوقيه، وهرقل (هرقلوناس) ابن زوجته الأخرى مرتينه.

إبريل ٦٤١م تسليم حصن بابليون للعرب.

---

(١٦) ـ بتلر ص٢٩١

(١٧) ـ بتلر ص٢٨٦

كان لموت هرقل أثره السيئ على جنود الحصن، وبعد محاولة العرب تسلق أسوار الحصن، عرض قائده (جورج) أن يسلم الحصن للعرب على أن يأمن كل من كان هناك من الجنود على أنفسهم، فقبل عمرو منهم الصلح، وكتب عهد الصلح (بين جورج وعمرو) على أن يخرج الجند من الحصن في ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام، أما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذها العرب، ويدفع أهل المدينة للمسلمين الجزاء، وكانت مدة الحصار سبعة أشهر.[١٨]

١٣ مايو ٦٤١م استيلاء العرب على نقيوس وما حولها

مدينة نقيوس، كائنة على فرع رشيد في الشمال الغربي من منوف (قرية ابشادي وزاوية رزين الآن)، وكانت مدينة عظيمة حصينة حافلة بالآثار المصرية، وكانت مركزا لأسقفية كبيرة، وأشهر أساقفتها يوحنا النقيوسي، الذي عاصر الفتح العربي.[١٩] استطاع العرب أن يقتحموا الحصن والمدينة، بعد هروب قائد حاميتها الروماني (دومنتيانوس)، الذي لاذ بالفرار إلى الإسكندرية، ودخلوا المدينة وأوقعوا بأهلها وقعة عظيمة، قال (مؤلف) يوحنا النيقوسي: "فقتلوا كل من وجدوه في الطريق من أهلها، ولم ينج من دخل الكنائس لائذا، ولم يدعوا رجلا ولا امرأة ولا طفلا، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا مدينة (صوونا)، وجدوا بها (اسكوتاوس) وعائلته وكان يمت بالقرابة إلى القائد (تيودور) وكان مختبئا في حائط كرم مع أهله، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم".

وفي مواصلة طريقهم إلى نقيوس، مر العرب بقرية صغيرة على الجانب الغربي للنيل تعرف اليوم بخربة وردان، ويذكر بتلر[٢٠] نقلا عن المقريزي قصة هذه القرية فيقول: وكان عمرو حين توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التي تعرف اليوم بخربة وردان، واختلف علينا السبب الذي خربت لأجله. فحدثنا سعيد بن عفير أن عمر لما توجه إلى نقيوس عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه، ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه في بعض دورهم فأمر بإخرابها وإخراجهم منها، وقيل كان أهل الخربة رهبانا كلهم فغدروا بقوم من صحابة عمرو، ووجه إليهم وردان فقتلهم وخربها، فهي خراب إلى اليوم". (وهكذا كانت طريقة الصحابة الكرام في نشر الدين!).

---

(١٨) ـ بتلرص٢٩٩

(١٩) ـ كامل صالح ص٨٧

(٢٠) ـ في هامش ص٣٠٩

وهذا ما يؤكد أن إكرام العرب لأرمانوسة ابنة المقوقس ما كان إلا رشوة سياسية، فالمقوقس هذا لم يكن قبطيا وإنما كان قوقازيا جلبه الروم حاكما إداريا ودينيا ممثلا لهم في بلادنا، وكان من طبيعة العرب أنهم إذ ظفروا بفتاة حسناء يخطفونها ملك يمين أو سبي ويغتصبونها وإذا زهدوا فيها يصدرونها إلى أسواق النخاسة في بلادهم كما كانت عاداتهم في الجاهلية ولم يغير الإسلام فيهم شيء، إنما كانت الأرماونسة ابنة المقوقس قائد المفاوضات بين العرب والإمبراطور الروماني والذي تواطأ مع العرب وسلم البلاد لهم وأذعن لدفع الجزية وورط الإمبراطور الروماني في صفقة سرية دارت بينه وبين عمرو، فكان من الطبيعي أن يكافئه عمرو لو عثر على ابنته بعد هذه الصفقة، وكان من الطبيعي أن يتواطأ المقوقس معه لو أكرم عمرو الأرماونسة قبل هذه الصفقة، ففي كل الحالات لم يكن العرب يعاملون بناتنا بمثل ما عاملوا ابنة المقوقس. إنما كانت هناك رشوة سياسية، ولا نستبعد أن يكون الوسيط فيها هم اليهود الذين أكرمهم عمرو ابن العاص بتخصص مساكن لهم في الإسكندرية والفسطاط، وتخصيص مقابر البساتين لهم أيضا دون غيرهم.

وبعد مذبحة نقيوس والاستيلاء عليها، واصل العرب سيرهم إلى مدينة كريون وهي آخر سلسلة من الحصون بين حصن بابليون والإسكندرية، وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح، إذ كانت تشرف على الترعة التي عليها جل اعتماد الإسكندرية في طعامها وشرابها، ولكن حصونها لم تكن في المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون ولا حصن نقيوس. وحدث هناك قتال عنيف، ولم تكن تلك الوقعة قتال يوم انجلى عن مصير كريون، بل كان قتالا شديدا استمر بضعة عشر يوما. وبدخول العرب لكريون، خلا أمامهم الطريق إلى الإسكندرية، وكان عدد جيش عمرو عشرين ألفا غير الحاميات التي تركها في بابليون ونقيوس وغيرها.[٢١]

آخر يونيو ٦٤١م الهجوم على الإسكندرية

سار عمرو بن العاص بجيشه متجها إلى الإسكندرية من ناحية الجنوب الشرقي للمدينة، وكانت الإسكندرية، كما يصفها بتلر، ذات عظمة بارعة نادرة تتجلى لمن يسيرون بين الحدائق وحوائط الكروم والأديرة الكثيرة بأرضها. فقد كانت الإسكندرية حتى القرن السابع أجمل مدائن العالم وأبهاها، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئا يعدلها، اللهم إلا روما وقرطاجنة القديمتين.[٢٢]

---

(٢١) ـ بتلر ص ٣١٦ و٣١٧

(٢٢)ـ ص٣١٧

وكانت الأسوار منيعة تحميها آلات المجانيق القوية، ولم تكن للعرب خبرة في فنون الحصار وحربه، وعندما حمل عمرو بن العاص بجيشه أول مقدمه على أسوار المدينة، كانت حملة طائشة غير موفقة، فرمت مجانيق الروم من فوق الأسوار على جنده وابلا من الحجارة العظيمة، فارتدوا باعدين عن مدى رميها، ولم يجرؤا بعد ذلك على أن يتعرضوا لقذائفها، وقنع المسلمون أن يجعلوا عسكرهم بعيدا عن منالها، وانتظروا أن يتجرأ عدوهم ويحمله التهور على الخروج إليهم. ولم يكن ثمة حصار للإسكندرية بالمعنى الصحيح، فقد كان البحر يحمي المدينة من جهة الشمال، وكانت الترعة وبحيرة مريوط تحميانها من الجنوب، وكان إلى الغرب ترعة (الثعبان)، فلم يبق من فرج إلا شرقها وجنوبها الشرقي، ولم يستطع المحاصرون أن يقتربوا من الأسوار من ذلك الفرج، وقد تأكد عمرو أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم.

وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية، فصارت قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء الأسوار فيئا للعرب، فغنموا منها غنيمة عظيمة، وهدموا كثيرا منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك في سفن بالنيل إلى حصن بابليون كي يقيموا به جسرا ليعبروا عليه إلى مدينة لم يستطيعوا من قبل أن يعبروا إليها.[٢٣] (وبهذه الطريقة البديعة جاء الصحابة العرب الكرام لينشروا الدين في بلادنا ! إن سلوك الصحابة هذا منفر لكل دين وليس الإسلام وحده، بل هو سلوك همجي بربري).. بل إن أغرب ما يذكره المؤرخون أن عمرو ابن العاص خلال حصاره لمدينة الإسكندرية قام أحد جنوده من الصحابة الكرام بخطف أحد أهالي الإسكندرية الذي ظهر خارج السور، وقاموا بوضعه داخل المنجنيق وقذف الأهالي به، أي استخدمه كقذيفة مدفعية !! وهكذا جاء عمرو لينشر الدين !!

مضى عند ذلك أكثر شهر يونيو، ولم يكن عمرو بالرجل الذي يخادع نفسه عن المدينة ويعلل نفسه باستطاعته فتحها عنوة، فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وإنما كان واثقا من شيء واحد، وهو أن أصحابه إذا خرج لهم العدو وناجزهم القتال، صبروا وثبتوا وغلبوه. وعلى ذلك عول على أن يخلف في معسكره جيشا كافيا للرباط، وأن يسير هو مع من بقي من الجنود، فيضرب بهم في بلاد مصر السفلى (مدن الدلتا).[٢٤] (وبهذه الطريقة تفرغ الصحابة الكرام لنشر الدعوة والدين في بلادنا !)

---

(٢٣) ـ بتلر ص ٣٢١

(٢٤) ـ بتلر ص ٣٢٠

سار عمرو بن العاص بمجموعة من جنوده إلى(كريون) ومن ثم إلى (دمنهور) ثم سار إلى الشرق يجوس خلال الإقليم الذي يعرف اليوم باسم الغربية، حتى بلغ (سخا) وكان ذلك الموضع إلى شمال المدينة الحديثة (طنطا) على نحو اثنى عشر ميلا منها، وهو قصبة الإقليم، وكان موضعا حصينا، ولم يفلح عمرو في تحقيق ما كان يريده من النزول على تلك المدينة بغتة وأخذها على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه.

فساروا نحو الجنوب ولعلهم اتبعوا (بحر النظام) حتى بلغوا (طوخ) وهي على نحو ستة أميال في الشمال الغربي من موضع (طنطا). ومن (طوخ) ساروا إلى (دمسيس)، وقد ارتدوا كذلك عن هاتين القريتين ولم يستطيعوا فتحهما، ولم يجد أهلهما مشقة في صد العرب. ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوة للقرى التي على فرع النيل الشرقي، قيل إن العرب قد بلغوا فيها مدينة (دمياط)، ولعل تلك الغزوة كانت على يد سرية عمرو نفسه في هذا الوقت. ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع، وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئا من المدائن في مصر السفلى. ولنذكر أن العرب قضوا في عملهم في هذا الإقليم اثنى عشر شهرا إلى ذلك الوقت. وبعد ذلك الغزوة التي أوقع فيها عمرو بالبلاد وغنم منها وعاد إلى حصن بابليون ومن معه دون أن يجني كبير فائدة. (وهكذا نشر الصحابة الكرم الدين في الإسكندرية وبسطوا الخير والسلام في ربوع البلاد وعادوا إلى بابليون !)... يقول بتلر: وإن لنا لدلالة في غزاته تلك في مصر السفلى، وما لاقاه فيها من القتال في مواضع كثيرة، وعجزه في جل ما حاوله من الفتح في بلاد الشمال القصوى، فإن ذلك يزيدنا برهانا على ما تحت أيدينا من البراهين على فساد رأيين يذهب إليهما الناس: أولهما أن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو تدافع، وثانيهما أن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه.[٢٥]

١٤ سبتمبر ٦٤١م عودة قيرس المقوقس إلى مصر

أعاد الإمبراطور الجديد هرقلوناس، أعاد المقوقس من منفاه إلى الإسكندرية، وأباح له أن يصالح العرب. يقول بتلر: وأما ما كان يجول في قرارة نفس المقوقس من مختلف النزعات، فأمر لا يصل إليه الحدس ولا يبلغه التصور، فقد طمع في أن يثيبه المسلمون على مساعدته لهم بأن يبسطوا يده على الكنيسة القبطية في مصر، ويكون عند ذلك مالكا لأمر ليس أحد في القسطنطينية سلطان

(٢٥) ـ بتلر ص ٣٢٢ و٣٢٣

عليه، إذ كان قيرس المقوقس يريد أن يزيد في سلطانه الديني بالإسكندرية ويقيمه على أطلال الدولة بعد خرابها، ولسنا نجد رأيا آخر أكثر ملاءمة لما بدا منه، فهو خير رأي نستطيع به أن ندرك ما كان بينه وبين عمرو من صلات خفية، وما قارفه من خيانة دولته الرومانية، فلنصفه بأنه خائنا للدولة في ما توهمه صلاحا للكنيسة.[٢٦]

وكان عمرو قد عاد إلى بابليون بعد أن فتح بلاد الصعيد، أو على الأقل بلاد مصر الوسطى، كي يستريح بأصحابه في أوان فيضان النيل، وفيما كان هناك في الحصن، وافاه المقوقس وقد جاءه يحمل عقد الإذعان والتسليم، فرحب به عمرو وأكرم وفادته. وكتب عقد الصلح (صلح تسليم الإسكندرية)، يوم ٨ نوفمبر ٦٤١م وأهم شروطه:

١ ـ أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.

٢ ـ أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرا تنتهي في أول شهر بابه القبطي، الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر من سنة ٦٤٢م.

٣ ـ أن يبقى العرب في مواضعهم في مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أي سعي لقتال الإسكندرية، وأن يكف الروم عن القتال.

٤ ـ أن ترحل مسلحة الإسكندرية في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل، على أن يدفع كل شهر جزاء معلومًا ما بقي في إيجبت في رحلته.

٥ ـ أن لا يعود جيش من الروم إلى إيجبت أو يسعى لردها.

٦ ـ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم أي تدخل.

٧ ـ أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.

---

(٢٦)ـ بتلر ص ٣٣١

٨ ـ أن يبعث الروم رهائن من قبلهم، مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لإنفاذ العقد.(٢٧)

وهذا ما يعني أن الصحابة الكرام كانوا متسامحين جدا مع الأقباط ولم ينهبوا كنائسهم كما يبين في البند السادس الذي اشترطه المقوقس على عمرو، فمن خلال شروط الصلح الواردة أعلاه نفهم بجلاء كيف كان الصحابة الكرام ينشرون الحب والسلام في كل مكان دخلوه، وإلا لماذا تم إدراج مثل هذا البند في المعاهدة.. بل إننا إذا فكرنا في المبدأ ذاته سندرك أننا كُنا مغفلين على مدار أربعة عشر قرنا من الزمان، فالصحابة الكرام لم يكونوا يعاقبون من يرفض الإسلام، على اعتبار أن الدين لا إكراه فيه، أما من يرفض الجزية فكانوا يقتلونه فورا !! فهل كانت الجزية أهم من الإيمان والعقيدة ؟! الله تعالى قال أنه لا إكراه في الدين، فهل يكون هناك إكراه في ما هو أدنى من الدين ؟! أم أن الجزية في نظر الصحابة الكرام كانت أهم وأولى من الدين ولذلك كانوا يقتلون من يمتنع عن دفعها !! ثم أن الجزية ذاتها هي نص وارد داخل نطاق الدين الإسلامي، ومن رفض الإسلام لا شيء عليه، فكيف يلتزم بما ورد فيه (الجزية) !! .. إن كل ذلك يؤكد بجلاء أن من احتلوا بلادنا لم تكن غايتهم نشر دين ولا حب ولا سلام، إنما كانت الغاية هي السلب والنهب والجزية، بدليل ما ورد في هذا الصلح من شروط.

١٠ ديسمبر ٦٤١م أداء القسط الأول من جزية الإسكندرية للعرب:

ما كان المقوقس يستطيع أن يبقي خطته في ستر الخفاء بعد ذلك طويلا، فقد علم أهل الإسكندرية بالأمر بغتة، وقد فاجأهم طلوع فئة من العرب على المدينة، وما كان أشد عجبهم ودهشتهم مما علموا، إذ عرفوا عند ذلك أن العدو لم يأت ليقاتلهم، بل أتى ليحمل الجزية التي اتفق عليها المقوقس في عقد الصلح الذي طلبه وكتبه معهم على تسليم المدينة، فهاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا، وذهبوا غير مصدقين حتى أتوا قصر البطريق، وكان الخطر في تلك اللحظة محدقا بحياته، إذ تهافت الناس يريدون أن يحصبوه. ولكنه استطاع بما أوتي من بلاغة وفصاحة على تخفيف جنايته، وتهوين خيانته، في مقالته التي قالها بين الناس، وجعل يبرر ما كان منه قائلا: إنه إنما اضطر إلى ركوب الصعب اضطرارا إذ لم يكن بد منه، وما قصد إلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم، وأن الصلح حقن دمائهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وديانتهم، ومن أراد أن يعيش في أرض مسيحية كان له الخيار في ترك الإسكندرية، وما كان أمر الخيار بين الهجرة من الإسكندرية وبين الإذعان للمسلمين بالأمر الهين، فلم

(٢٧) ـ بتلر ص ٣٤٣

يتمالك البطريرك معه، بل بكى، وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه إنما بذل جهده في أمرهم، وأن عليهم أن يرضوا بالصلح. بهذا استطاع قيرس المقوقس مرة أخرى أن يفوز برأيه المشؤم، وأخذ الناس يجمعون قسط الجزية التي فرضت عليهم، ووضعوا المال في سفينة خرجت من الباب الجنوبي الذي تدخل منه الترعة، وذهب به المقوقس بنفسه، ليحمله إلى قائد المسلمين.(٢٨) فلم يكن يشغل العربان في هذا الوقت أمر الدين ولا نشره بقدر ما شغلهم تحصيل الإتاوات من الأهالي غصبا !

بهذه الطريقة بدا شعب الإسكندرية يتعرف على الإسلام وبالطبع يلعن الإسلام والمسلمين لا شك، فلو كان شعب الإسكندرية قد تعرف على مضمون الدين الإسلامي في هذا الوقت لكان الإسلام قد انتشر مثل النار في الهشيم، إنما هم لم يسمعوا عنه سوى طمع وجشع الصحابة الكرام في حصد الأموال، أي أن سمعة العرب كانت سابقة على سمعة الإسلام ورحمته وسلامه، لأن أهالي الإسكندرية في هذا الوقت دفعوا الجزية راغمين للعرب قبل أن يعرفوا على الإسلام ولم يختلط بهم عربي واحد في ظرف سلام يسمح بالتعرف على الدين.. فكيف نقول نحن بأن هذه الحروب كانت لنشر الدين ! إنما نحن فقط مُغفلون !

والغريب أن الأزهر ما زال إلى اليوم يقنع المغفلين بأن الصحابة الكرام ما كانوا ليدخلوا بلدا إلا لنشر الدين، فإن امتنع أهل البلد حاربوهم من أجل الدين ! فهل دخل العرب بلدا بغير الحرب ! وهل كان كل شعوب الأرض ترفض الدين الإسلامي لهذه الدرجة ما اضطر العرب إلى محاربة جميع الشعوب المجاورة لهم بالدور وعلى التوالي! كما فسر المفسرون الآية رقم ١٢٣ من سورة التوبة وقالوا أن المؤمن لكي يكون مؤمن فهو مكلف بقتال الكافرين من شعوب الجوار له بالدور (الأقرب فالأقرب) !! وبهذا الكلام الفارغ قال كل الفقهاء بالإجماع! حتى شيخ الأزهر سيد طنطاوي في تفسيره! وحتى الشيخ الشعرواي في تفسيره ! بينما الآية تتحدث عن نضال المنافقين من العرب أنفسهم ! (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار؛ أي الذين يقفون تحت لوائكم).. إنما كانت غاية العربان الكرام هي نهب ثروات الشعوب وليس نشر دين، بدليل أنهم في محاولتهم دخول بلاد النوبة لم يستطع عمرو ابن العاص دخولها بسبب شدة بأس أبنائها، فتصافقوا على عدد معين من الرؤوس يقدمها النوبيين لعمرو ابن العاص كل سنة، وعلى هذا الأساس توقف الصحابة الكرام عن فتح بلاد النوبة ونشر الإسلام فيها مقابل الحصول على عدد معين من العبيد كل سنة !

---

(٢٨) ـ بتلر ص ٣٥٤

٢١ مارس ٦٤٢م موت قيرس المقوقس:

في أواخر أيامه استولى عليه الهم وغرق في الحزن، واجتمعت عليه المخاوف. ففي القسطنطينية بويع لقسطانز وحده بالملك في آخر نوفمبر ٦٤١م، وأبعد جميع أصدقاء المقوقس، وأعيد إلى السلطة من كان عدوا شديد العداوة له. وخشي أن يأمر الإمبراطور الجديد بنفيه أو بقتله. ورأى أن الناس قد أنكروا سياسته للدين إنكارا لا أمل معه في عودة الرضى عنه، ورأى سياسته في أمور الدنيا وقد أصابها العار. وكان أكثر ما أصابه من الحزن كان لرفض العرب شفاعته في أمر عودة الأقباط الذين كانوا قد لجأو إلى الإسكندرية، عودتهم إلى قراهم وإلى منازلهم. وذكر ما قارف من الذنوب وما أصابه من الفشل والخذلان، وكان قلبه يؤنبه، وندم على تفريطه في أمر مصر، وبكى على تضيعه لها. وظلت الأقدار تغمره والهموم تحيط به حتى أصابه داء (الدوسنطاريا) في يوم أحد السعف، ومات منه في يوم الخميس الذي بعده في ٢١ مارس ٦٤٢م.(٢٩)

يوليو ٦٤٢م القتال للاستيلاء على مدن شمال الدلتا:

قاومت مدن شمال الدلتا، مثل: إخنا ، رشيد ، البرلس ، دمياط ، خيس ، بلهيب ، سخا ، سلطيس ، فرطسا ، تنيس ، شطا ، وغيرها. قاومت الفتح العربي مقاومة شديدة. ويذكر بتلر(٣٠)، أن مقاومة المصريين للعرب استطال أمرها في بلاد مصر السفلى، وظلت إلى ما بعد فتح الإسكندرية، وإذا ذكر أن أهل تنيس وما يليها من البلاد الواقعة في إقليم تلك البحيرة، كانوا من القبط الخلص، تنبض قلوبهم بما تنبض به قلوب القبط، عرفنا أن وقوع تلك الوقعة في ذلك الوقت، دليل جديد على فساد رأيين طالما خدعا الناس وتقادم عليهما الدهر وهما يكفران الحقيقة، وهذان الرأيان هما : أن مصر سلمت للعرب بغير قتال، وأن القبط رحبوا بالعرب ورأوا فيهم الخلاص مما كانوا فيه.

لقد كانت خيانة قيرس المقوقس للإسكندرية، سببا في القضاء على آخر آمال الأقباط بالفوز في مصر، ولكن من العجب مع ذلك أن تدافع هذه البلاد المتفرقة في مصر السفلى، جيوش الغزاة العرب وتقاومهم نحو عام آخر. ففي هذه آية على أن أهلها كانوا قوما من أولى النخوة، ولكن التاريخ لم يجزهم بذلك ما يستحقونه من حسن الأحدوثة، بل لبث ينكر عليهم زمنا طويلا. وكانت الإسكندرية قد ازدحمت بمن لجأ إليها من جميع أنحاء مصر، خوفا على أنفسهم من مداهمة العرب لمدنهم وقراهم، التي لم

(٢٩) ـ بتلر ص ٣٨٠ و ٣٨١

(٣٠) ـ ص ٣٧٧

تكن بمثل حصانة الإسكندرية ومنعتها.(هكذا كان الصحابة الكرام ينشرون الحب والسلام في بلادنا ولا يروعون الأهالي فيجبرونهم على مغادرة قراهم ومزارعهم ومساكنهم !)

ولما عقدت معاهدة تسليم الإسكندرية بين المقوقس والعرب، كان من شروطها أن جنود الروم ومن حل بالإسكندرية من الرومان لهم الخيار إذا شاءوا جلوا عنها بحرا وبرا، وأما القبط فلم يذكروا فيه بشيء، فلما رأى اللاجئون بالإسكندرية أن السفن تحمل كل يوم طوائف من الناس إلى قبرص وردوس وبيزنطة، قلقوا وحنوا إلى الرجوع إلى قراهم، فذهبوا إلى المقوقس وطلبوا إليه أن يكلم لهم عمرا في ذلك، وكانوا يعرفون صلته الوثيقة بقائد العرب، ولكن الظاهر أن عمرا لم يبيح لهم الجلاء، ولا عجب في أن يخيب سعي البطريرك في هذا الأمر، إذا عرفنا أن طلبه هذا كان قبل شهر مارس، إذ كانت الحرب لا تزال ثائرة في بعض قرى مصر السفلى، وكان أكثر اللائذين من مصر السفلى، فلو أبيح لهم الرجوع إلى قراهم لما أمن أن يقاتلوا جنود المسلمين بأنفسهم، أو أن يمدوا المدائن التي كانت لا تزال مصرة على القتال ولم يفتحها المسلمون بعد. غير أن قيرس آلمه ألا يجيبه عمرو إلى طلبه، وكان ألمه من ذلك شديدا، فقد كان يطمع أن يستميل إليه بعض القبط، ولعله كان يرمي من وراء ذلك إلى أن ينسيهم شيئا من غضبهم عليه، فكان هذا الرفض الذي رفضه عمرو لطلبه، ضربة شديدة أصابت سياسته في هذا الشأن.[٣١]

إضافة إلى ما قاله بتلر عن كذبة ترحيب الأقباط بالعرب، فإن موقف عمرو بن العاص من الأقباط اللاجئين إلى الإسكندرية، ورفضه عودتهم إلى مدنهم وقراهم، خوفا من انضمامهم إلى محاربة العرب وقتال العرب بأنفسهم، يؤكد لنا بوضوح، كذب وبطلان ادعاء ترحيب الأقباط بالعرب الفاتحين، لأنه لو كان هناك أدنى نوع من هذا الترحيب المزعوم من جهة الأقباط، لما رفض عمرو السماح لهم بالعودة إلى ديارهم.

وفي ١٧ سبتمبر ٦٤٢م ، كانت حوالى مائة سفينة من أسطول الروم تحل قلاعها وترفع مراسيها وتسير إلى قبرص بمن كان عليها من فلول الروم الذين كان يقدر عددهم بنحو ثلاثين ألف جندي، يحملون معهم متاعهم، ويرفف عليهم الأسى. وفي ٢٩ سبتمبر ٦٤٢م ؛ بعد رحيل جنود الرومان، وانتهاء مدة الهدنة (أحد عشر شهرا)، التي حددتها معاهدة تسليم المدينة بين المقوقس وعمرو، فتحت أبواب الإسكندرية ليدخلها العرب لأول مرة.

(٣١) ـ بتلر ص ٣٧٩

شتاء ٦٤٢ ـ ٦٤٣ غزوة عمرو الأولى (لبنتابوليس)

سار عمرو حتى بلغ (برقة)، والظاهر أنها سلمت للعرب على أن تدفع ١٣ ألف دينار جزية كل عام، وجاء في شروط الصلح شرطان عجيبان:

١ـ أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة.

٢ـ كان عليهم أن يحملوا الجزية إلى مصر، حتى لا يدخل جباة الجزية إلى بلادهم [٣٢].

وهكذا كان الصحابة الكرام ينشرون الحب والسلام والخير في كل مكان، ولا يتورعون من مص دماء الناس وفرض الإتاوات عليهم حتى لو باعوا أطفالهم لسدادها ! إذا وصل بهم الأمر إلى اضطرار الناس بيع أبنائهم لسداد الجزية التي طلبها الصحابة الكرام كأجرة لهم على نشره الدين !! أي دين هذا لا نعلم .. فقط هو دين الصحابة الكرام، والغريب أن خليفة العرب عمر ابن الخطاب الذي طالما وصفوه بالعدل والرحمة وطالما صدعوا أدمغتنا بأنه (الفاروق عمر) الذي فرق بين الحق والباطل) كان عمر يقبل الجزية من هذه الشعوب التي اضطرت لبيع أبنائها في أسواق العبيد لسداد ضريبة الفاروق عمر كي يملأ بيت المال (بيت مال المسلمين) فأي إسلام هذا الذي يكون مصدر دخله حرام في حرام ! أوا يكون مصدر دخله من ثمن الأطفال الذين اضطر أهلهم لبيعهم في أسواق النخاسة لسداد الأموال التي فرضها عليهم الخليفة العادل الفاروق عمر !! والغريب أن عمر والصحابة الكرام كانوا يقبلون الفتيات المخطوفة يوزعونها هدايا على بعضهم !

ثم سار عمرو إلى (طرابلس) وكانت أمنع حصونا وأعز جيشا، وكانت بها مسلحة كبيرة من الروم، صبرت على الحصار بضعة أسابيع، ولكن لما لم يأتها أى إمداد من جهة البحر، وكاد جيشها يهلك من شدة الجوع، وجهد القتال، وقعت المدينة في أيدي العرب، فأسرع الجنود الرومان إلى سفنهم، وهربوا منها عن طريق البحر. وسار عمرو بعد ذلك مسرعا إلى (سبرة)، وطلع على المدينة بغتة، وهاجمها في أول الصباح، وأخذ الناس على غرة، وأخذ المدينة عنوة، وأعمل فيها النهب. ثم عاد بجيشه، ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدار كبير من الغنائم، إلى مصر، وعاد عمرو إلى حصن بابليون.[٣٣] (وهكذا قيل لنا أن الصحابة الكرام كانوا صحبة رسول الله وكانوا يدافعون عن الدين بأموالهم وأنفسهم ويقدمون

---

(٣٢) ـ بتلر ص ٤٤٥

(٣٣) ـ بتلر ص ٤٤٦

أرواحهم قربانا لله.. بينما بعد وفاته انطلقوا يحصدون أرواح الناس الأبرياء بلا رحمة، يخرجون في غارات همجية موسمية للخطف والسلب والنهب تحت حجة نشر الدين، فهل كان عمرو قد نشر الدين حينما دخل مدن ليبيا وعاد بالأسرى والسبايا والغنائم إلى حصن بابليون! أي دين هذا الذي نشره هناك !! أو ما الفرق بين الغارات الهمجية التي كانت قبائل قريش تشنها على بعضها في الجاهلية لخطف الأطفال والنساء والسلب والنهب، وغارات عمرو ابن العاص والصحابة الكرام على شعوب ليبيا ! فالنتيجة كانت واحدة في النهاية، ما يعني أن الصحابة الكرام كانوا يمارسون الغزو والإغارة الجاهلية وليس الجهاد في الإسلام. وما زالت هذه عادات الشعب السعودي إلى اليوم، فأخلاقهم وأفكارهم وسلوكياتهم لم تتغير قيد أنملة، كما كانوا في الجاهلية، كانوا في الإسلام، وحتى في عصرنا يعيشون بذات النمط العقلي.

خريف سنة ٦٤٤م عودة (ظهور) البابا بنيامين:

كتب عمرو بن العاص (وعد، أو عهد أمان) للبابا بنيامين، وكان البابا مختفيا في مكان مجهول لا يعلم به أحد، وكانت صورة هذا الوعد كما يلي: أينما كان بطريق القبط بنيامين، نعده الحماية والأمان، وعهد الله، فليأت البطريرك إلى ها هنا في أمان واطمئنان ليلي أمر ديانته ويرعى أهل ملته.[٣٤] وكانت مدة غياب البابا عن كرسيه ١٣سنة، عشر سنين في عهد الرومان وحكم المقوقس، وثلاث سنوات في مدة حكم العربان.

ويذكر هنا بتلر ملاحظة هامة، ويقول: "وإنه لمن الجدير بالالتفات أن هذا البطريق الطريد لم يحمله على الخروج من اختفائه فتح المسلمين لمصر واستقرار أمرهم في البلاد، ولا خروج جيوش الروم عنها، وليس أدل من هذا على افتراء التاريخ على القبط، واتهامهم كذبا بأنهم ساعدوا العرب ورحبوا بهم ورأوا فيهم الخلاص، مع أنهم أعداء بلادهم. ولو صح أن القبط رحبوا بالعرب لكان ذلك عن أمر بطريقهم أو رضائه، ولو رضي بنيامين بمثل هذه المساعدة وأقرها لما بقي في منفاه ثلاث سنوات بعد تمام النصر للعرب، ثم لا يعود بعد ذلك من مخبئه إلا بعهد وأمان لا شرط فيه. ولو لم يكن في الحوادث دليل على كذب هذه الفرية غير هذا الحادث، لكان برهانا قويا، وإن لم يكن برهانا قاطعا فهو حلقة نضمه إلى سلسلة ما لدينا من الأدلة، وقد أصبحت سلسلة لا يقوى على نقضها شيء.[٣٥]

(٣٤) ـ بتلر ص ٤٥٥

(٣٥) ـ في ص٤٥٧

ومن الواضح جدا أن عهد الأمان هذا ما كان إلا رشوة سياسية من عمرو ابن العاص لتحقيق الاستقرار له في البلاد بعدما تمكن من إخضاعها عسكريا، لأن عمرو لم يكن مهموما بأمر القبط كي يبحث عن كبيرهم يتولى أمور دينهم، ولو وصل به الأمر لهذه الدرجة لكان قد رحل عن بلادنا.

أكتوبر ٦٤٤م : عمرو بن الخطاب يولي عبد الله سعد بن أبي سرح جباية الخراج؛

كانت العلاقة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص، علاقة متوترة وغير طيبة، وقد كرر ابن الخطاب إرسال خطابات شديدة اللهجة وغير ودية إلى ابن العاص، يؤنبه فيها بشدة، على تأخيره في إرسال الخراج، من الأموال والخيرات إلى دار الخلافة بمكة. ويقول ابن الخطاب في أحد خطاباته: "أما بعد فإني عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج .... ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج ومن حسن سياستك، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فئ المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام".[٣٦]

ومن هذا الخطاب يتبين لنا مدى طمع وجشع الخليفة عمر ابن الخطاب واستعجاله للخراج والجزية، ولم يلتفت إلى مسألة نشر دين ولا دعوة ولا يحزنون، ولم يتحدث في أي من خطاباته عن أمور الدين ونشر الدعوة ولا ترجمة القرآن ولا ترجمة تفسير له ولا أي شيء من الإسلام، إنما تحدث الخليفة العادل الفاروق العظيم، تحدث فقط عن طمع عمرو وعشيرته الصحابة الكرام في ثروة مصر وطمعه هو أيضا في ثروة بلادنا، وكان على علم بجشع ابن العاص في نهب الثروة ولذلك قال له لم أرسلك إلى مصر أجعلها طعمة لك ولقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج، أي كانت غاية الخليفة عمر هي نهب مصر وليس نشر الدين فيها كما يزعم أحفاده.

وبوجهٍ عام، (للتحدي) عمر ابن الخطاب أرسل عشرات الرسائل إلى عمرو ابن العاص في مصر، ولم يكن من بينها رسالة واحدة تتحدث عن نشر الدين ولا الدعوة ولا تخصيص مشايخ ولا دعاة ولا ترجمة للقرآن ولا غيره.. إنما جميع الخطابات جاءت في شأن الحكم والسياسة والخراج والجزية .. فالصحابة الكرام جاؤوا فقط لنهب ثروة بلادنا، ونهب الاقتصاد القومي وتصديره للسعودية على ظهور الجمال ثن السفن بعد ذلك، وهم لم يكذبوا ولم يقولوا أنهم جاؤا لنشر الدين، إنما نحن الذين نكذب على أنفسنا !!

(٣٦) - بتلر ص٤٧٣

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد أرسل محمد بن سلمة إلى مصر و أمره أن يجبي ما استطاع من المال فوق الجزية التي أرسلها عمرو بن العاص من قبل. ثم أرسل بعد ذلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وولاه حكم الصعيد والفيوم، وجباية الخراج. أي أنه اهتم بشؤون الجباية والخراج ولم يذكر التاريخ رسالة واحدة تحدثت في شأن تعيين الوعاظ والدعاة ولا ترجمة آية واحدة من القرآن إلى الهيروغليفية ، فماذا كان نشاطهم في بلادنا إذن ! وفيما بعد جاء بنو أمية ولم يترجموا القرآن أيضا، بل فقط ترجموا ديون الخراج لضمان معرفة حجم الثروات والاقتصاد الوطني الذي بدأ نهبه من عصر عمر الخطاب !!

وفي ٧ نوفمبر ٦٤٤م مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ودفنه، وفي ١٠ نوفمبر ٦٤٤م عثمان بن عفان يتولى الخلافة في مكة. ويذكر بتلر[٣٧] ، أنه عندما تولى عثمان الخلافة ، عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر تماما، وجمع ولايتها جميعها لعبد الله بن أبي سرح، وكان يقيم في مدينة (شطنوه) في إقليم الفيوم. وقد اختلفت الآراء في هذا الوالي الجديد لمصر، فيصفه الطبري بأنه لم يكن في وكلاء عثمان أسوأ من عبد الله والى مصر. وقد ولاه الخليفة عثمان قصدا، لكي يزيد في جباية الجزية، وقد جعل عبد الله بن أبي سرح، أول همه زيادة الضرائب على أهل الإسكندرية. وخرج عمرو بن العاص من مصر بعد عزله، وسار إلى المدينة ناقما على عثمان.[٣٨]

نهاية سنة ٦٤٥م ثورة الإسكندرية بقيادة (منويل)؛

بعدما استجار الأقباط من ظلم الغربان، وقد حنثوا بكل وعودهم السابقة، استغاث الأقباط بالإمبراطور الروماني للعودة مرة أخرى وإنقاذهم من العربان، بعث الإمبراطور قسطانز في القسطنطينية، بأسطول عظيم يتكون من حوالي ٣٠٠ سفينة محملة بالجنود بقيادة منويل للاستيلاء على الإسكندرية، وكان بالمدينة حوالي ألف جندي من العرب للدفاع عنها، فغلبهم الروم وقتلوهم جميعا إلا نفرا قليلا منهم استطاعوا النجاة، وعادت بذلك الإسكندرية إلى ملك الروم، وكان عمرو عند ذلك في مكة معزولا.

آخر فصل الربيع ٦٤٤م : عودة عمرو بن العاص، وموقعة نقيوس الثانية:

---

(٣٧) ـ ص ٤٨١

(٣٨) ـ (تاريخ الخلفاء للسيوطي).

ولما وصلت أنباء ثورة الإسكندرية، إلى مكة، أمر الخليفة عثمان بأن يعود عمرو بن العاص إلى قيادة جيش العرب في مصر ليكمل نشر الإسلام، وكانت نقيوس وحصن بابليون، وغيرها، لا تزال في يد العرب.

ولم يكن من رأي عمرو أن يسرع في أمره، وهذا غير ما كان يراه خارجة بن حذافة، الذي كان عند ذلك قائد مسلحة حصن بابليون، إذ كان يرى أن التأخير ضار بالمسلمين، مصلح لأمر الروم، وأشار على عمرو أن يبادر إلى العدو قبل أن يأتيه المدد، أو يثب أهل مصر جميعا وينقضوا على العرب. ولكن عمرو، كان يرى خلاف ذلك، فقال: لا ولكن أدعهم حتى يسيروا إليّ فإنهم يصيبون من مروا به، فيخزي الله بعضهم ببعض. وإنه لمن الجدير بالذكر أن قواد العرب في هذا الوقت لم يميزوا بين قبطي ورومي، بل ظنوا أن الفئتين معا على قتالهم، ولهذا كانت سيوفهم تحصد الجميع دون تفرقة. وهذا يدل على أنه لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى توقع محبة القبط لهم، ولا حيادهم في قتال الروم. ولو صح أن القبط رحبوا بالعرب عند أول مجيئهم إلى مصر ورأوا فيهم الخلاص، لركن قواد العرب في هذا الوقت إلى ولاء القبط ومحبتهم، ولتوقعوا منهم الود والمساعدة.[٣٩] وسار الروم على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس، وهناك لقيتهم طلائع العرب، ولعل جيشهم كان إذ ذاك خمسة عشر ألفا، ودارت معركة حامية بين الطرفين، انتهت بهزيمة جيش الروم، الذي انسحب إلى الإسكندرية، وأقفل الروم أبواب المدينة واستعدوا للحصار.

صيف سنة ٦٤٦م إعادة فتح العرب للإسكندرية

كما يقول بتلر[٤٠]: إنا لا نكاد نعرف في تاريخ الإسكندرية، أنها أخذت مرة عنوة، بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها. فقد قيل إنه كان في الإسكندرية، بواب اسمه (ابن بسامه)، سأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه ويفتح له الباب، فأجابه عمرو على ذلك. ومهما يكن من الأمر، فقد أخذ العرب المدينة عنوة، ودخلوها يقتلون، ويغنمون، ويحرقون، حتى ذهب في الحريق كل ما كان باقيا على مقربة من الباب في الحي الشرقي، ومن ذلك كنيسة القديس مرقس، واستمر القتل حتى بلغ وسط المدينة، فأمرهم عمرو برفع أيديهم، وبنى مسجدا في الموضع الذي أمر فيه عمرو برفع السيف، وهو مسجد الرحمة. وقد لاذت طائفة من جند الروم بسفنهم، فهربوا في البحر، ولكن كثيرا

(٣٩) ـ بتلر ص ٤٨٦

(٤٠) ـ في ص ٣٥٧

منهم قتل في المدينة، وكان منويل من بين من قتل، وأخذ العرب النساء والذراري فجعلوهم فيئا.[٤١] وهدم عمرو الأسوار الشرقية حتى سواها بالأرض.[٤٢] (وهكذا جاء الصحابة الكرام لينشروا الدين ويعودوا بالذراري سبايا !)

وأخذ أسرى من الإسكندرية ومن البلاد المجاورة مثل بلهيب وخيس وسلطيس وقرطسا وسخا، وبعث بهم إلى المدينة، ولكن الخليفة عثمان أعادهم إلى ذمة المسلمين على شرط الجزية. وكان عمرو يريد أن يتخذ الإسكندرية مقرا له، ولكن الخليفة عثمان لم يرض بذلك، كما أباها عليه الخليفة الذي قبله(عمر). ولم يبق عمرو في مصر بعد استقرار الأمر إلا شهرا واحدا، ثم خرج عنها لعبد الله بن سعد.

خريف سنة ٦٤٦م استدعاء عمرو بن العاص إلى مكة:

عرض الخليفة عثمان بن عفان على عمرو ابن العاص أن يجعله قائد جند مصر، على أن يكون عبد الله بن سعد بن أبى سرح، حاكمها وعاملا على ولاية خراجها، ولكن عمرو بن العاص رفض، ورد بقولته الشهيرة: إنا إذن كماسك البقرة بقرينيها، وآخر يحلبها ". ولكن الخليفة لم يبق عليه إذ قد فرغ من غرضه منه، وقضى به على ثورة المصريين، وكان في حاجة عند ذلك إلى من يستخرج له الأموال من أهلها، فوجد طلبه في عبد الله بن أبي سرح، وخرج عمرو على ذلك من البلاد.[٤٣]

أغسطس سنة ٦٥٨م تولية عمرو حاكما لمصر:

بعد مقتل عثمان، تولى الخلافة، علي بن أبي طالب، ولكن مبايعته للخلافة لم تكن بالإجماع، فثار نزاع دموي طويل، وثارت حروب أهلية بين علي ومعاوية، انتهت بمقتل علي، وتنازل إبنه الحسن عن الخلافة لمعاوية. وكان عمرو بن العاص مولسا لمعاوية في نزاعه مع علي، وجاء إلى إيجبت مناصرا له، فعينه معاوية بعد ذلك، واليا عليها مكافأة له على مساعدته، ودفاعه عنه، ضد على بن أبي طالب.

في النهاية هناك فارق كبير بين المعارك التي خاضها بشرف النبي محمد عليه السلام، وكانت جميعها معارك دفاعية ولم تتجاوز حدود الدفاع الشرعي عن حق الوجود، بل إن النبي عليه السلام كان عندما يهزم جيشا لا يتتبع فلوله ولا ينتقم منهم ولا ينكل بهم ولا يدخل مدينة أو قرية سكنية حتى لا يعرض المدنيين العزل لخطر الجيوش، إنما كانت جميع معاركه في الصحراء.. بينما سيدنا المبجل عمرو

(٤١) ـ بتلر ص ٤٨٨

(٤٢) ـ بتلر ص ٤٩٧

(٤٣) ـ بتلر ص ٥٠٠

ابن العاص قفز بجيشه داخل المدن والقرى المصرية وقتل وخطف الأطفال والنساء وأخذهم سبايا إلى بلاده مكة لبيعهن في أسواق النخاسة.. كان عمرو يدمر ويحرق كل ما يمر عليه جيشه ومعه الصحابة الكرام، ولم يشغل وقته ولا جهده في نشر الدين كما قيل بل شغل نفسه بالإتاوات والجباية والخراج والجزية، حتى أن عمر ابن الخطاب نفسه لم يطلب من عمرو تقديم كشف حساب عن أعمال الدعوة بعد الفتح، وإنما طلب منه مزيدا من الخراج، وإذا كان الصحابة الكرام يقولون بأن الجزية فريضة واردة بالقرآن، فمن أين جاؤا بهذا الخراج ؟! هل فرضوه على الأقباط كأجر لهم مقابل نشرهم الدين ! فلم ينتشر الإسلام خلال عصر الصحابة كاملا ١٠٠ سنة إلا بنسبة ٢٪ فقط، ما يعني أن الصحابة الكرام أخذوا جزية وخراج وجمارك بما يزيد عن أجرتهم في نشر الدين آلاف المرات !

وفي النهاية خلال مائتي عام من يومنا هذا سيدرك أحفادنا بالتدريج أن هؤلاء الصحابة الكرام الذين نعتبرهم نحن في عصرنا آباء روحيين وشخصيات مقدسة ونحتفي بتاريخهم ونعتبرهم شخصيات ورموز دينية، سيدرك أحفادنا أنهم ما كانوا إلا هكسوسا عادوا لاحتلال بلادنا إيجبت للمرة الثانية، حيث كان احتلال الهكسوس لبلادنا في المرة الأولى عام ١٥٥٠ ق.م تقريبا، وجاؤا للمرة الثانية عام ٦٤٠م، وفي المرة الأولى رحلوا بعد مائة وخمسين عاما بيد الأقباط أنفسهم الذين طهروا بلادهم منهم، وفي المرة الثانية رحل الهكسوس بعد مائتين وثلاثين عاما لكن ليس بيد الأقباط ولكن بعدما ضعفت دولة الهكسوس في عاصمتها بغداد وانحل جيشهم وتولى أحمد ابن طولون حكم إيجبت ورفض دفع الجزية لخليفة الهكسوس العباسي... وفي المرة الأولى لاحتلال الهكسوس بلادنا استفدنا منهم بالثقافة العسكرية والعجلات والسيوف الخنجرية، وبالطريقة التي كانوا يصنعون بها لأنهم مجتمع حربي بالأساس، وفي المرة الثانية أخذنا منهم الدين، لكننا لأسف أخذناه بصنعتهم أيضا ! ولذلك نجد السعوديون اليوم يدافعون عن الهكسوس دفاعهم عن الصحابة لأن الجنس لم يتغير!

سيضحك علينا أحفادنا بعد مائتي عام ويقهقهون بملء أفواههم باعتبارنا – نحن أجدادهم المتخلفين ـ تخذلنا وتكاسلنا وخجلنا ولم نستطع التغلب على الثقافة والعقلية العربية كما تغلب سقنن رع وكاموس وأحموس على العقلية الهكسوسية.. يقول الأستاذ نجيب محفوظ متحدثا عن أسرة سقنن رع: " كل الملوك تدين لمصر بمجدها إلا هذه الأسرة، فمصر مدينة لها بالمجد".. أسرة سقنن رع، أولاده الشباب كاموس وأحموس وزوجته الجميلة الكريمة " قمر الزمان ". هذه الأسرة التي كرست حياتها وشبابها لطرد الهكسوس العرب ودفعوا حياتهم ثمنا لهذه الغاية .. استشهد الملك الأب سقنن رع في مقدمة

جيشه.. وتولى القيادة إبنه البكر " كاموس" واستشهد مثل والده.. فأصرت الأم على التضحية بابنها الأصغر أحمس، فدفعت به إلى ميادين التدريب وسط الضباط والجنود حتى تم تأهيله لقيادة الجيش ونجح في طرد الهكسوس وتطهير البلاد منهم.. وأعلن الميثاق الأول لحقوق الإنسان لحظر تجارة العبيد التي جلبها الهكسوس معهم.. جاء في مادته الأولى" يحظر تماما بيع الإنسان مثلما كان يفعل الهمج". ثم عادوا مرة أخرى بعد ألفي عام وعاد تدريس تجارة العبيد في الأزهر لمدة ألف عام أخرى، لكن توقف تدريس هذا النوع من التجارة في مطلع القرن الحادي والعشرين بعد ضغط المجتمع المدني.



الإضاءة الثالثة

مسقط رأسي: كيف حكمت سلالة قريش إيجبت

حينما فكر العرب في الزحف على مصر، هل طردوا الرومان ونشروا الدين وعادوا إلا بلادهم؟ أم انتقلوا بثقافتهم الاجتماعية والأدبية من الصحراء إلى الحضارة وحكموها ألف عام فأصبحت حضارة صحراوية؟ فالدين هو من المعرفة السائلة التي تصلح لكل المجتمعات الحضارية والصحراوية، لكنه ليس كتالوج لبناء الحضارات، وليس تقنية للعمل والبناء والإنتاج، فهل بنا العرب حضارة في مصر بمعايير الفراعنة أم بمعايير صحراء شبه الجزيرة؟ وهل حكموا مصر بنظام الشورى الإسلامي أم بنظام العصبية القبلية العربية؟

لنتعرف الآن على طريقة حكمهم لمصر خلال حقبة "الفتح الإسلامي" من قراءة سريعة لبحث نشره الكاتب عبد الجواد سيد بعنوان " غزو العرب لمصر – أكذوبة الجهاد المقدس" [(٤٤)].

بالنسبة لسياسة العرب الخواجات في حكم مصر خلال مرحلة نشر الدعوة الإسلامية في مصر وتعريف المصريين المسيحيين وقتها بالدين الإسلامي، فقد لبى الصحابة نداء الجهاد في سبيل الله لنشر دينه ودعوة النبي محمد عليه السلام، وجاءوا لمصر حاملين القرآن، قطعوا آلاف الأميال سيرا حتى وصلوا إلى مصر، وبرغم أن المقوقس حاكم مصر في هذه الحقبة تعاون مع العرب ضد الرومان وتوسط بين الرومان وعمرو العاص خلال مرحلة الفتح، ولم يرفض دخول المشايخ المسلمين والدعاة السعوديين الذين كانوا صحابة ليعيشوا ويندمجوا وسط المصريين.. لكن هؤلاء المشايخ والدعاة والوعاظ لم يأتوا أصلا إلى مصر، ولكن جاء عمرو بجيشٍ مسلح قوامه آلاف المقاتلين مسلحين بكافة أنواع التسليح والمدفعية الثقيلة "المنجنيق" ونصبوها حول المدينة وحاصروها ستة أشهر حتى انكسرت حصونها تحت أقدامهم. (حصن بابليون بالصورة).

لكنهم لم يتخذوا مقرا لنشر الدعوة وإعداد الوعاظ وتأهيلهم لينتشروا ويندمجوا وسط المصريين، ولم يتعلموا اللغة الفرعونية كي يحدثوا المصريين عن الإسلام، فقد استن الخواجة عمرو العاص أسلوبا سعوديا جديدا من أساليب النهب الاستعماري لمصر وهو نظام الارتباع، الذي أطلق بموجبه جنوده ينهبون القرى ويروعون الأهالي كل مواسم الربيع، وهو نظام ربما قد عُرف في العصر الروماني على نطاق محدود، ولكن عمرو مضى به إلى حدود أبعد حيث أصبح يستغرق كل فترة الربيع من كل عام، حيث فرض على فلاحي مصر إضافة إلى الجزية والخراج حق قرره العرب لأنفسهم بأن ترعى أغنامهم وإبلهم وخيلهم في حقول المصريين طوال فترة الربيع مجاناً.. فكل قبيلة منهم تتخير أرضاً على ضفاف النيل تستبيح مرعاها كل ربيع وقد استمر هذا النظام السيئ طيلة العصر العربي حيث وردت عنه إشارات فى كتابات العصر المملوكي..

وبعد اغتيال الخليفة عمر الخطاب وتولى عثمان عفان الخلافة بعده ازدادت أحوال مصر سوءً، فقد كانت سياسة عثمان في مصر وغيرها من البلاد ترمى إلى انتزاع أكبر قدر ممكن من الجزية والخراج، فقام بعزل عمرو العاص عن ولايتها سنة ٢٤ هـ وولى بدلا منه أخاه في الرضاعة عبد الله سعد أبى السرح،

(٤٤) ـ مع التصرف ـ مقال للكاتب: عبد الجواد سيد بعنوان " غزو العرب لمصر – أكذوبة الجهاد المقدس" منشور بتاريخ ٢٠١٧/٧/١٣ على موقع الحوار متمدن http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=544580&r=0

فزاد قدر الجزية والخراج على المصريين حتى يرضى الخليفة، مما جعل الأخير يعلق على ذلك في مقولة شهيرة موجهة إلى عمرو العاص (لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو) بمعنى لقد حلبت الناقة بغزارة بعدك يا عمرو، مشيرا إلى زيادة أموال الجزية والخراج بعد عزل عمرو العاص عن مصر، والذي كان الخليفة عمر الخطاب يتهمه صراحة بسرقتها، وقيل أن ثروته قدرت بسبعين جرابا من الأموال السائلة (سبعين جلد بقرة مجفف). وكان المصريين وقتها مستغربين من بدائية العرب هذه، لأن المصريين كان لديهم صناعة متطورة وورش وحرف ومتاجر ومصانع ومجمعات صناعية للورق البردي في منطقة الدلتا الواقعة بين دمياط ورشيد، حيث تخصصت قرية البشموريين في صناعة أوراق البردي، وغيرهم تخصصوا في صناعة سفن الصيد النيلية والبحرية، ومكتبات عليمة وكانوا يحفظون أموالهم في خزن مذهبة وتوابيت مجوهرة وليس في جلد البقر المجفف.

كانت ولاية عبد الله سعد على مصر أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى نشوب الفتنة الكبرى التي أدت فى النهاية إلى مصرع الخليفة عثمان، فقد استبد ابن سعد بأهل مصر من العرب والمصريين على السواء، وأساء وظلم الجميع دون استثناء، وقد ذكر بعض المؤرخين أن قسوته فى معاملة الأقباط كانت هي السبب وراء ثورتهم واستنجادهم بالروم سنة ٦٤٥م/٢٥هـ (وهى الثورة التي اضطرت الخليفة عثمان لاستدعاء عمرو العاص لإخمادها) وعلى كل حال فقد تأزم الموقف فى مصر نتيجة لسياسات عبد الله سعد، وكما ثار المصريين فقد ثار العرب بعد ذلك سنة ٣٥ هـ، وقتلوا الخليفة.

حيث أرسلت القبائل العربية المهاجرة حديثا لمصر وفدا إلى المدينة بقيادة محمد أبى بكر الصديق شقيق السيدة عائشة، وذلك لعرض شكواهم من سلوك عبد الله سعد على الخليفة عثمان ومطالبته بعزله، وبالفعل قابلهم عثمان ووعدهم خيرا حتى انصرفوا عائدين إلى مصر، لكنه وفى نفس الوقت أرسل فى أثرهم رسولا من قبله يحمل خطابا إلى أخيه عبد الله سعد فى مصر يأمره فيه بقتل أعضاء الوفد إذا رجعوا إلى مصر، وكان من سوء حظ عثمان أن قبض أعضاء الوفد ـ فى طريق عودتهم ـ على ذلك الرسول وعثروا على الخطاب الذي يحمله وأطلعوا على محتواه فعادوا إلى المدينة غاضبين، حيث التقوا بوفود أخرى جاءت من الكوفة والبصرة تعرض شكاواها من ولاة عثمان الأمويين وأقاربه لسوء سلوكهم وظلمهم. وحاصر الجميع منزل عثمان وطالبوه بخلع نفسه فرفض وطلب الجيش لهم من دمشق، ولما عرفوا بقدوم الجيش هاجموا منزله وقتلوه، وهذه هي الأحداث التي تعرف فى التاريخ الإسلامي باسم الفتنة

الكبرى أو فتنة الأمصار، والتي لم تكن فى الواقع سوى بداية للصراع الدموي الرهيب الذي بدأ بين الأمويين والهاشميين على زعامة العرب وميراث النبوة.

وبعد مقتل عثمان آلت الخلافة إلى على أبى طالب، فعزل عبد الله أبي السرح وولى مكانه سعد قيس على مصر ثم عزله ووضع الأشتر النخعى ثم عزله ووضع محمد أبى بكر الصديق قائد المجموعة التي قتلت عثمان عفان (الأموي)، وهنا ثار معاوية أبى سفيان (الأموي) والى الشام ورفض الاعتراف بخلافة علي واتهمه علانية فى دم عثمان بمجرد أن عين علي أبي طالب قاتل عثمان حاكما على مصر، وهو ما اعتبره معاوية تواطؤا من علي مسبقا على قتل عثمان وليس مجرد تفريط في دمه، وأتخذ من ثأره حجة لمحاولة نقل الخلافة من البيت الهاشمي إلى البيت الأموي، وهو ما كان يسعى إليه الأمويون بالفعل منذ وصول عثمان إلى الخلافة، وكان للأمويين عصبية قوية فى بلاد الشام منذ ما قبل الإسلام. وإزاء هذا الموقف من معاوية عزم علي على غزو الشام للقضاء على تمرد معاوية، وذلك بعد أن نجح فى القضاء على تمرد طلحة والزبير والسيدة عائشة بالتزامن فى موقعة الجمل سنة ٣٧هـ ، والذين كانوا قد خرجوا على عليّ بدورهم واتهموه فى دم عثمان لأسباب تخص كل منهم على حدا ـ فقد كان كل من طلحة والزبير يطمح فى منصب الخلافة لنفسه، أما عائشة فقد كانت تكره عليّ منذ حادثة الإفك التي أشار فيها علي أبي طالب على النبي بطلاقها.

وأثناء تلك الأحداث أشار بعض الأمويين على معاوية بالاستعانة بعمرو العاص، والذي كان بعد عزله عن ولاية مصر معتزلا السياسة بضيعة له فى فلسطين(فلم يكن عمرو العاص فاتح مصر لينشر فيها الدين ولكن ليمارس سلطة الحكم والجباية، وبمجرد عزله ترك السياسة وترك مصر وترك مكة والمدينة والبيت الحرام ومسجد الرسول، وذهب إلى فلسطين التي احتلها قبل مصر، وانعزل في مزرعة خاصة به بعيدا عن السياسة). ولما دعاه معاوية للتخلص من الخليفة علي أبي طالب، لبى عمرو النداء وحضر مع ابنيه سريعا وأبدى استعداده لمساعدة معاوية بشرط أن يجعل له مصر طعمة مدى الحياة، في حال انتصاره على جيش الخليفة، أي حق حكمها لنفسه مدى الحياة على أن يختص نفسه بعائداتها (الجزية والخراج والضرائب والسبايا والإتاوات). وافق معاوية على شروط عمرو ووضعه على رأس قواته التي واجهت قوات علي في صفين سنة ٣٧هـ. فقد ترك عمرو العاص الجهاد في سبيل الله، ثم عاد لقيادة جيش معاوية للتخلص من الخليفة ! وهو جهاد أيضا لكن بعقل العرب.. فلم يبادر عمرو العاص في

التوسط بين علي ومعاوية لحل الخلاف وديا ولكن أسرع بتقديم الشرط وهو الاستقلال بحكم مصر، ولما وافق معاوية دبر عمرو خططه للخلاص من الخليفة (خطط حربية وسياسية بالطبع وليست دينية)

وبالطبع موقف عمرو هنا لا ينبئ عن أي مروءة ولا شرف ولا علية أخلاق، فنذكر نصيحة جدنا الملك المصري «خيتي» أحد ملوك أهناسيا يحث ابنه «مري كا رع» على حسن الإدارة مع رعيته وكبار موظفيه؛ فيقول: الرجل الغني في بيته لا يميل مع الهوى ولا يتحيز، إذ يكون عنده من المال ما يغنيه، ولكن الرجل الفقير قد لا يتكلم حسب العدالة، لأن الرجل الذي يقول «ليت لي» لا يكون محايدًا بل ينحاز إلى الرجل الذي يعطيه الرشوة، وأن وراء كل عظيم مستشارون عظماء".. وفي الواقع لم يكن هذا المعاوية عظيما بأي حال، ولا كان مستشاره.

وفى بداية المعركة رجحت كفة قوات علي على قوات معاوية فلجأ عمرو إلى حيلة كان قد ادخرها لتلك اللحظة، فأمر الجنود برفع المصاحف على أسنة الرماح والمناداة بتحكيم القرآن ـ وكأن أكف الأيادي لم تكن قادة على حمل المصحف توقيرا له! ـ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى إحداث الفرقة في معسكر علي، وبالفعل أصر كثير من جنود علي على إيقاف القتال وتحكيم القرآن وذهبت تحذيرات علي لهم بأن عمرو ومعاوية ليسا بأصحاب دين ولا قرآن عبثا، (برغم أن الخليفة علي أبي طالب يؤكد أن عمرو العاص ليس صاحب دين ولا قرآن، ومع ذلك ما زال المصريين مقتنعين بأنه هو من علمهم دينهم وفتح مصر ونشر فيها الدين!) وأصر جنود الخليفة على قبول التحكيم واختاروا أبا موسى الأشعري ممثلا لهم، بينما اختار أهل الشام أنصار معاوية عمرو ممثلا لهم. وعلى هذا اجتمع الحكمان في دومة الجندل سنة ٣٧هـ واتفقا على خلع علي ومعاوية وترك الأمر شورى بين المسلمين، لكن عمرو لم يكن يقصد بهذا الاتفاق سوى خديعة أبى موسى الأشعري لإضعاف موقف علي وتقوية موقف معاوية. وبعدما صعد أبو موسى منبر المسجد الجامع وأعلن خلع على ومعاوية تبعه عمرو وأكد خلع علي وأنكر خلعه لمعاوية...

وعندما حاول أبو موسى تكذيبه رد عليه قائلا (بل كذب أبو موسى) قد خلع عليا ولم أخلع معاوية، فانسل أبو موسى من بين الناس وهرب إلى مكة، وانصرف عمرو وأهل الشام وسلموا على معاوية بالخلافة وباركوا له (لاحظ أن عمرو كذب في بيت الله وعلى منبر الدعوة قبل أن يتحرك إلى نشر الدين في مصر... بينما في مصر، ها هو الحكيم «بتاح حتب» ينصح ابنه قائلا: «... احرص على الصدق...»، كما حثه على التخلق بالصدق داخل البيت عند تعامل أفراد الأسرة مع بعضهم؛ فها هو أحد

ملوك أهناسيا ينصح ابنه «مري كا رع» فيقول: «... لا تقل إلا الصدق في بيتك حتى يخشاك الأشراف الذين يسيطرون على البلاد ...»، ولم يتوقف الصدق عندهم على النطق به، بل عبروا عنه أيضًا من خلال ما تخط أقلامهم، فها هو أحدهم يدعو ابنه الكاتب ألا يخط قلمه إلا صدقا فيقول له محذرًا: «... لينطق قلمك بالحق، ولا يخط إلا بالصدق بما يفيد الناس.« [٤٥]

لكن هكذا كان العرب مجتمعا بريا.. وبعد نجاح هذه الحيلة أرسل معاوية عمرو إلى مصر على رأس ستة آلاف مقاتل من أهل الشام ليفتح مصر للمرة الثانية على التوالي، حيث تمكن بالتحالف مع أنصار عثمان هناك من هزيمة قوات محمد أبى بكر الصديق والي علي على مصر ثم قتله وأحرق جثته بالنار فى "جيفة" حمار، ودخلت مصر فى سلطة معاوية فولاها عمرو ومنحه حق استغلالها مدى الحياة تبعا لاتفاقهما السابق. فظل يحكمها إلى أن توفى بها الصحابي الجليل الفاتح سيدنا عمرو ابن العاص رضي الله عنه ودُفن بالفسطاط سنة ٤٣هـ الذي قاد جيش الجهاد في سبيل الله وقوامه ستة آلاف مقاتل لانتزاع حكم مصر من صحابي جليل ابن أكبر صحابي في الأمة، والذي لم يشفع له مقام والده حتى، فأحرقوه في جيفة حمار، وأرسلوا قميصه إلى المدينة !. مع أن النبي نهى عن قتل مؤمن ونهى عن التمثيل بالجثث، ونهى عن طلب الولاية ! فما بالنا بالقتل الشنيع من أجل الولاية؟ والتمثيل بالجثث ! وبما بالنا بتحرك جيش بأكمله من أجل الولاية! وهذا ما يؤكد نظريتنا في أن الأثر الروحي للدين تبخر من العقلية العربية عقب وفاة النبي ببرهة قصيرة..واستمرت الكاريزما العربية على طبيعتها ونشأتها، لأنها عقلية برية متمردة بالفطرة.

أما الخواجة عمرو ابن العاص فكان له مع المصريين حكايات ووقائع غريبة سجلها المؤرخ ابن عبد الحكم. وظف عمرو كل ما عُرف عنه من مكر وحيلة فى عملية غزو مصر. كانت سياساته مع المصريين بقدر دهائه ومكره في التحالف مع معاوية أبي سفيان ضد علي أبي طالب ومناورته الخبيثة في رفع المصاحف على أسنة الرماح - ففى البداية راح يبذل للمصريين الوعود بالأمن والعدل حتى ضمن ولاء قطاع كبير منهم، ثم بعد أن استتب له الأمر وضمن سيطرته على البلاد (فكان جزاءهم جزاء سنمار) تنكر عمرو لكل تلك الوعود، وقد احتفظ التاريخ بكثير من الأمثلة الدالة على إخلاله لعهوده مع

---

[٤٥] - د. حسين دقيل – أستاذ الآثار وكاتب وباحث في الأدب – مقال بعنوان " من أخلاق المصريين القدماء (١) الصدق – منشور على موقع ساسة بوست بتاريخ ١ فبراير ٢٠١٨ على الرابط التالي :
https://www.sasapost.com/opinion/pharaohs/

المصريين، فقد روى ابن عبد الحكم قصة والي إخنا، الذي طلب من عمرو أن يحدد له قيمة الخراج المفروض على قريته حتى يستعد له، فرفض عمرو قائلا وهو يشير إلى ركن إحدى المباني (والله لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم) ! ويعتقد ابن عبد الحكم أن رد عمرو هذا هو الذي جعل صاحب إخنا يستنجد بالروم من ظلم العرب، وربما كان ظلم عبد الله سعد هو الذي دفعهم إلى الاستنجاد بالروم [٤٦]...

بينما يقول الحكيم الشهير "آمون أم أوبي" ينصح ابنه بالرفق عند جمع الضرائب؛ فيقول: " لا تغش في جباية الضرائب، ولا تكن قاسيًا، وإذا ما اكتشفت مبلغا كبيرًا متأخرًا عند أحد الفقراء، فقسمه إلى ثلاثة أجزاء، واحذف جزئين منهما، ولا تبق إلا جزءًا واحدًا "... كما يوصي الحكيم عنخ شاشنقي ابنه أيضًا بالرفق عند التعامل الناس فيقول: " لا تجعل الناس تخافك وعاملهم بالرفق واللين ". كما نرى أحد حكام الأقاليم يفتخر أيضًا بحسن تعامله مع رعيته والرفق بهم أثناء فترة القحط والمجاعة، فيقول: وعندما شحت أقوات البلاد أغدقت على بلدي أرادب وكيلان من الغلال، وسمحت لكل مواطن أن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته، وأعطيت منها الأرملة وولدها، وعندما تعاقبت سنوات المجاعة؛ منحت الأرملة كما منحت ذات البعل، (أي: المتزوجة)، ولم أميز كبيرًا أو صغيرًا فيما فعلته. [٤٧] !

كان العرب جيراننا لكنهم لم يرحمونا.. كانوا جائعين لدرجة جعلتهم يأكلون مصر بنهم كما الفريسة. كما يقول ابن خلدون: طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه. لا يكلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم ولا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن.

---

(٤٦) ـ السياقات التاريخية التي أثبتها المؤرخون و كتاب السيرة كثيرة ومتفقة على وقوع استنزاف اقتصادي للمصريين من قبل العرب، وفي ذات الوقت انعدام للنشاط الدعوي الديني و كل المراجع التاريخية ومنها تاريخ ابن جرير الطبري و الكامل لابن الأثير والمغازي للواقدي كلها وغيرها تؤكد ذلك، إلا أن المقام هنا لا يسمح بالتوقف العلمي التام والتمحيص الموضوعي، ولمن أراد الاستزادة عليه الرجوع لتلك المصادر وغيرها من أمهات كتب السير والتاريخ. فالغاية من هذه الدراسة ليست التحقيق العلمي بقدر ما هي مناوشة لعقلية القارئ بطرح نبذات ولقطات من التاريخ بمسقطٍ رأسي علها تلفت نظر القارئ لتكوين رؤيته.

(٤٧) ـ مقال للدكتور حسين دقيل بعنوان : من أخلاق المصريين القدماء (ج١٣) الرفق والأمانة . منشور على موقع ساسة بوست بتاريخ ١٦ أغسطس، ٢٠١٨ على الرابط التالي:

https://www.sasapost.com/opinion/from-the-morals-of-the-ancient-egyptians-c-13-mercy-and-honesty/

ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا وغرامة "...

وفي لواقع كان المصريون مستسلمين للقمع والظلم وكانت إرادتهم منطفئة بلغة القانونيين ومقهورة بلغة السياسيين، فلم يكن الوعي كافيا لتكوين شبكة من التحالفات في الأقاليم والقرى تأكل العرب عن بكرة أبيهم كما فعلوا بأجدادهم الهكسوس قبل ذلك، لأن العرب في هذا الوقت كان عددهم قليل جدا لكنهم تميزوا بالشراسة، ولم يكونوا قد استعانوا بالجنود الأعاجم من الفرس والترك وغيرهم، وكان المصريون ستة مليون مواطن، بينما أيام الهكسوس كان المصريون عددهم مليون فقط، لكن إرادتهم انكسرت نتيجة تعرضهم للاحتلال الثالث على التوالي لمدة طالت عن الألف عام، ولم يستطع المصريون استغلال طاقاتهم فسعى العرب لتوظيفهم لتحقيق طموحاتهم الاستعمارية، والعجيب أن سقف طموحات العرب لم يصل إلى المستوى المعيشي العادي للمصريين، لأن المصريين كانوا في هذا الوقت رغم الاحتلال أكثر تحضرا ورقيا وعلما من العرب أبناء الصحراء، أما سقف تطلعات العرب فكانت هي النهب وليس البناء، لأنهم بطبيعتهم شعب استهلاكي، حتى أنهم رغم ما حصلوه من ثروات المصريين وغيرهم لم ينشئوا أي معالم لحضارة في مكة، بل استهلكوا كل ما نهبوه في الأكل والشرب وتمتعوا بالنساء..

يقول الكاتب عباس منصور: "ومن الملاحظ أن المصريين ارتضوا دفع الجزية والبقاء على دينهم ضمن البلاد التي غزاها العرب في الشرق بينما هرع الناس في فارس إلى الدين الجديد هروبا من الجزية و الخراج ثم تربصوا بالعرب وتحالفوا مع أحد جناحي قريش – بني هاشم – وانقضوا على دولة العرب – الأمويين ـ و استبدلوا عاصمتها دمشق ببغداد التي كانت عاصمة الفرس القديمة بجوارها في " المدائن " قبل أقل من مئة سنة... وذلك يعني أن المصرين قد دفعوا ثمن تمسكهم بعقيدتهم حسب أقوال المؤرخين ومنهم ابن اسحق والبلاذري " فوضعت الجزية على كل حالم و ألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خل رزقا للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم "بيت المال الحرام"، وأحصى المسلمون الناس فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو عدل – مقابل – الجبة الصوف ثوبا قبطيا ". وهو ما يعني بلسان العرب أنهم جاؤا متطفلين في المأكل والملبس والمشرب وعاشوا عالة على المصريين، ولم يقوموا بأي نشاط ديني دعوي أو ثقافي يعرف المصريين بمبادئ الدين الإسلامي الذي حملوه إسما، حتى أن دواوين الإدارة في

مصر وقتها انحصرت في ديوان العطايا (من اسمه: الجبايات والخراج والجزية والإتاوات والغرامات)، وديوان الجند فقط، ولم يكن من بينها ديون الدعوة التي جاؤا باسمها، وحينما اهتموا بالترجمة بين اللغة العربية واللغة المصرية ترجموا فقط ما يخص الضرائب والجبايات ترجموا "ديوان الخراج " ولم يترجموا أي كتاب فقهي، ولم يثبت تاريخيا أن هناك كتاب إسلامي باللغة المصرية التي كان المصريون يتحدثون بها. ولم يترجموا حتى معاني القرآن للمصريين حتى يعرفوهم كلام الله، وفرضوا على المصريين ٣ إردب قمح وعسل وزيت لتوزيعها على العرب المسلمين، وطلبوا سراويل وجلابيب وعمائم وأحذية لهم، وهذا ما يثبت أنهم جاؤا حفاة عراة من كل كرامة وشرف، فمن يذهب إلى قوم يدعوهم لدين الله لا بد أن يذهب بشرفه وأن يكون طعامه ولباسه من بيته لا عالة على الناس عنوة... حتى السراوييل ! ..

بينما الخواجات الفرنسيس في حملتهم على مصر حملوا معهم سراويلهم وطعامهم ولجنة علمية مكونة من ١٦٧ عالم في جميع التخصصات، واتخذوا لهم مقرا للمعامل والأبحاث في القاهرة، كان هذا المعهد العلمي صورة مصغرة لمجامع العلوم الأوروبية، ومركزا للطب والصيدلة ومستشفى كبير وخدمة (الحجر الصحي) ومختبرا كيميائيا ومرصدا فلكيا ومعرضا للرسم وحديقة للحيوانات ومتحفا للتاريخ الطبيعي وسلاح الهندسة وورش لإنتاج المواد الاستهلاكية والصناعات والمعامل والطواحين... ونظم المعهد العلمي المصري من علماء مصر وعلماء الحملة، فريقا مشتركا أعدوا الأربعة والعشرين مجلدا الضخام التي مولتها ونشرتها الحكومة الفرنسية بعنوان وصف مصر، واكتشف علماء الحملة حجر رشيد الذي حمل نقوشا بلغتين وثلاثة خطوط (الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية)، وقد مكنت هذه الكتابات من وضع أسس ترجمة النصوص الهيروغليفية، ففتحوا بذلك أمام أوربا "الحديثة" أبواب حضارة مصر القديمة، وأنشأوا أول مجلة دورية مطبوعة وأنشأوا أول مطبعة في القاهرة وأشعلوا حركة فكرية ثقافية جعلوها امتدادا للحضارة الأوروبية في باريس.

أما العرب فقد جعلوا القاهرة امتدادا للجاهلية القرشية في الحجاز، وأعادوها عصورا طويلة إلى الوراء، حتى أن العرب عندما دخلوا القاهرة عانوا كثيرا من الحياة المدنية، فهم قد ألفوا الصحراء المفتوحة والجبال الوعرة وليس لديهم حضارة ولا التزام عام بنظافة شوارع ولا قنوات ري ولا زراعة ولا صناعة، وليس لديهم خبرة في تنظيم هذه الأمور وإدارة الخدمات، فكان لدى المصريين القدماء شعور قوى بأهمية الصحة والنظافة العامة، لذا عرفوا دورات المياه وكانوا يحددون مكانها في الجنوب الشرقي من البيت

عكس اتجاه الرياح لأن رياح مصر طوال العام شمالية غربية، وكان المرحاض عبارة عن جدارين منخفضين بينهما حفرة ممتلئة بالرمال، وعرف المصريين القدماء الحمامات الخشبية المرتفعة، وكذلك المتنقلة، وكان هناك حمام آخر بجوار المرحاض للاستحمام إما بصب الماء من إناء أو إبريق، وفى العصر البطلمي (قبيل دخول العرب)، وجد في الإسكندرية وحدها ٤ آلاف حمام عام مزودة بأجهزة تسخين وكان هناك مواسير في المدن عبارة عن مجارى حجرية مكشوفة غير عميقة، لتصريف المياه وعثر على نموذج لذلك في «اللاهون» في الفيوم وكانت تستخدم لصرف مياه البيوت والمطر .

بينما كان مخيم العرب "الفسطاط" حرفيا عبارة عن مزبلة، يلقون بالقمامة خلف كل جدار، ولا مانع من إلقاء الرمم والحيوانات النافقة وبقايا الذبائح في نهر النيل، ولم يعرفوا نظام الحمامات في شبه الجزيرة، حيث كانوا يقضون حوائجهم في الخلاء، فكانوا يطلقون حمامات الفسطاط في نهر النيل مع الرمم والنفايات مما تسبب في كثير من الأوبئة والأمراض حتى وقع طاعون الفسطاط، ولا عبرة لهم من دينهم بأن النظافة من الإيمان، لأن هذا سلوك اجتماعي لا خبرة لهم به.. وما زلنا إلى اليوم نتبرك بانتسابنا لهم ونعتبر جاهلية العرب خلفية ثقافية لنا ! ونسمي دولتنا "جمهورية مصر العربية" بينما نحن لسنا عرب ولا مهنتنا الرعي ولا التجارة ولا الدعارة ولا الإغارة !

ومع ذلك ظلت الحملة الفرنسية احتلالا لمصر، وأصبح دخول عمرو العاصي فتحا لمصر! مع أن كلاهما احتلال لكن هناك احتلال أكثر نزاهة من الآخر، هناك احتلال نظيف واحتلال أجرب.. ولم يكن الفرنسيون في مصر يقتلون بعضهم بعضا بالسم في العسل تارة والخنجر الغادر تارة، ولم يقتلوا أحدهم ويضعوه في جيفة حمار ويحرقوه كما فعل الهمج، بل إنه عندما قتل سليمان الحلبي قائد الحملة الجنرال مينو، أخذوا هيكله العظمي في صندوق ووضعوه في المتحف الوطني في باريس.. ولم يغتصبوا سيدة مصرية أو فتاة، حتى أن قائد حملة نابليون حينما أراد الزواج بفتاة مصرية أعلن إسلامه (ولو شكليا) كي يتزوجها، بينما العرب اتخذوا بنات مصر ونساءها سبايا وقالوا أن ذلك شرع الله ! [(٤٨)]

---

(٤٨) ـ وللقارئ النبيل أن يجري مسقطا رأسيا بنفسه من حيث السلوك الاجتماعي بين الشعبين، فهذه طبائع مجتمعات جعلها الله مختلفة عن بعضها بالفطرة ليختبر كل إنسان حسب مكوناته النفسية ومعطياته، وهذه هي حكمة الله من خلق الأمم شعوبا وقبائل لتتعارف. ننتظر من القارئ النبيل فتح حوارٍ فكري حيادي ونزيه بمعايير علمية صحيحة، ودون تدخل للاعتبارات الدينية التي غطت تاريخ المجتمع العربي بهالة من القدسية جعلته معصوما من النقد على المستوى الاجتماعي والسياسي.. لأن الثمرة في النهاية هي ما يقتنع به القارئ، وليس ما اقتنع به المؤلف، لأنه ليس أكثر ذكاءً من القارئ بأي حال، ومن واجب المفكر أن يكون صادقا وأمينا مع القارئ، حريصا على أن يطرح الموضوعات بطريقة تحترم

ثم يأتي مثقفينا ومفكرينا العظماء أمثال طه حسين ليضيّع عمره في دراسة الشعر الجاهلي وبحث مدى شرعية "بنوة الشعر الجاهلي لعصر الجاهلية" ! لكي يثبت أنه شعر عباسي وليس جاهلي! ثم لا يجد ما يخدم طموحات شعبنا الحضارية فيدعوا إلى قبول الحضارة الغربية الأوروبية بحلوها ومرها عوضا عن عجز الحضارة العربية وفقرها.. ويأتي مفكرين عظام أمثال الأستاذ عباس العقاد ليضيّع عمره في ترهات من نوعية "عبقرية عمرو ابن العاص" !... في الواقع لم يثبت التاريخ أن المصريين يوما ما خانوا وطنهم أو خانوا ذاتهم وحضارتهم بشكل إرادي مباشر، إنما للأسف هم خانوا أنفسهم ووطنهم وذاتهم لا إراديا حينما استسلموا للاحتلال المعرفي العربي هذا.

اعتقد المصريين وقتها أن عقيدة الرومان أخطر على دينهم من العرب، فما كان من المصريين إلا التساهل تجاه العرب ضد المستعمر من دينهم (بسبب الخلاف المذهبي) وقبول مستعمر أجنبي عربي قرشي بدين مختلف عن دينهم وهو الإسلام، توقعوا أن يكون العرب أكثر رحمة ورأفة من الرومان، وهذا ما أظهره الخواجات العرب في البداية ووعدوا المصريين به، لكن سرعان ما اختفى وجه الإسلام الحنيف وظهر وجه قريش الأسود، وسرعان ما انقلب الاضطهاد الديني الروماني إلى استنزاف اقتصادي عربي وإهانة وإهدار للإنسانية دفع الكثير من المصريين ترك دينهم بالكلية هربا من الأعباء الاقتصادية، أي انتقلت عدوى النفاق من مكة إلى القاهرة، وهذه الظاهرة ليست من نسيج العقلية المصرية بالشكل الذي وجدناه في العقلية العربية حول النبي في مكة والمدينة، حيث أن المبالغة في تحصيل الجزية والخراج ومضاعفة قيمهما وختم المسيحيين على قفاهم بغير إنسانية ولا عدالة اجتماعية، دفعت بعض المصريين إلى التظاهر باعتناق الإسلام، وجاء ذلك دفعات متتالية هروبا من الجزية والخراج والإتاوات والإهانات والأختام وعنصرية العرب الفجة، حتى أنه في مرة واحدة أعلن ٢٢ ألف مصري إسلامهم جملة هروبا من الإفلاس، فكان العرب يميزون بين ثلاث فئات في مصر (قبائل العرب المهاجرة ـ المصريين المسلمين ـ المصريين المسيحيين) وكانت التكاليف الضريبية تختلف تدريجيا حسب صنف المواطن ودرجته، وما إذا كان مسلما عربيا أو مسلما مصريا أم مسيحيا، واستمرت الزيادة في قيم الجزية والخراج والإتاوات حتى عجز المصريون عن السداد وترك بعضهم أعماله، ولم يكن الخليفة منشغلا بحملات الدعاة والمبشرين والوعاظ وتأهيلهم بالعلم والمعرفة وتزويدهم بالكتب والمراجع العلمية أو ترجمة المرويات والتراث الديني وتصديره إلى الشعوب الكافرة كي تفهم الدين، فقط كان يسأل عن مزيد من الجزية والخراج

عقله وتنشئ قنوات للحوار والفكر والإبداع، ولن ندرك ذلك إلا إذا اشترك القارئ في طرح الأفكار والرؤى التي تعبر عن قناعته هو.

لتعويض العجز الاقتصادي والمجاعة التي وقعت في شبه الجزيرة، ولتغطية نفقات المساجد والقصور الملكية.. حتى أن أحد الخلفاء العرب فرض على المصريين تحميل جزية الميت على الحي! بمعنى أن من يتوفى والده أو إبنه يستمر في دفع الجزية عنه طالما توفى قبل دخول الإسلام ليستغل العرب هذه الأموال في بناء المساجد!

وقد روى المقريزي وابن عبد الحكم قصة أخرى عن مصري من أهل الصعيد كان قد أخفى ذهبا له حتى لا يدفع ضريبة عليه، فعرف عمرو العاص ذلك من أعوانه من البصاصين والجواسيس، فقبض عليه واستمر في تعذيبه لكن الرجل أنكر أن تكون له أموال مخفية، احتال عليه عمرو بحيلة عرف بها منه الراهب الأمين على أمواله، فكتب عمرو رسالة إلى هذا الراهب يطلب منه معرفة مكان الأموال لديه، ووقعها عمرو باسم المصري المقبوض عليه، وما كان إلا أن جاء رد الراهب :" تحت الفسقية " فعرف بذلك عمرو مكان الذهب فاستخرجه ثم حكم بإعدام الرجل عند باب المسجد، فخاف المصريين وأظهروا ما عندهم من ذهب وكنوز فرعونية خشية أن يصيبهم ما أصابه.. فإذا كان البطل الأول خالد الوليد كان يرهب الناس بصب دماء أبنائهم في النهر ليشربوا ويرتعبوا ليعتنقوا الدين، فإن البطل الثاني عمرو العاص يذبح آباءهم على باب المسجد ليدفعوا ! .. ثم يصعد المنبر ليخطب فيهم الجمعة، فماذا قال لهم؟

وعمرو بن العاص كان رائدا للدولة الأموية في شراهتها في جمع الجزية من المصريين وغيرهم، وحتى من أسلم من المصريين كانوا لا يعفونه من دفع الجزية، والاستثناء الوحيد من خلفاء بني أمية كان الخليفة عمر بن عبد العزيز في حكمه القصير، فقد رفع الجزية عمن أسلم فكتب إليه والى مصر حيان بن شريح يخبره بتناقص الجزية بهذا القرار، فكتب إليه عمر ابن عبد العزيز يؤنبه ويقول له: ضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا!!.. ورد عمر ابن العزيز هنا يؤكد أن الوجود العربي في مصر لم يكن نشر دين وإنما أكل السحت وجمع الإتاوات باسم الدين.

ويذكر المقريزى أن عمرا اعتقل مصريا اتهمه بموالاة الروم واستجوبه، وكانت التهمة ملفقة بهدف ابتزاز الرجل المسكين، بدليل أن عمرو أطلق سراح الرجل بعد أن حصل منه على أكثر من خمسين إردبا من الذهب !. وهذا من رجل واحد فقط.. فقد شرهت نفس عمرو لكنوز الآثار المصرية وذهبها المدفون وما يتم الكشف عنه، يقول المقريزى أن عمرا أعلن لأهل مصر: أن من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته !. ونشر عمرو عيونه تتحسّس وتتجسّس عمن لديه كنوز فرعونية.. ومن مجموع هذه المصادرات

تضخمت ثروة عمرو الشخصية من هذا السلب والنهب، وحين حضرته الوفاة استحضر أمواله فكانت (١٤٠) إردبا من الذهب، وقال لولديه: من يأخذ هذا المال؟ فأبى ولداه أخذه وقالا له: حتى ترد إلى كل ذي حق حقه. ومات عمرو واستولى الخليفة معاوية على كل تلك الأموال التي خلفها عمرو في ميراثه وقال: نحن نأخذه بما فيه .. أي بما فيه من ظلم وسحت..!!

ومع ذلك فإن عمرو العاص هو أفضل من حكم مصر وأكثرهم رفقا بالمصريين بالمقارنة بغيره.. والثابت أنه لم يكن مسرفا فى سفك الدماء كما فعل غيره من الولاة كما أنه كان حسن السياسة فى جباية الخراج والجزية، فلم يرهق المصريين، وكان يجمع الجزية ١٢ مليون دينار، فأصبح الوالي بعده عبد الله بن أبى سرح يجمعها ١٤ مليون دينار فى خلافة عثمان عفان وبتوجيهاته [(٤٩)].

هكذا كانت نوعية الثقافة التي جاء بها عمرو من شبه الجزيرة زاحفا عبر الصحراء حاملا أسفارا من الكتب والعلم ما لم يعلمه المصريون، ومن الحرمة ما لم يدركه المصريون، ومن التحضر والرقي والسمو الأخلاقي ما أدركه العرب في صحراء قريش، لدرجة أنه أبدع في التشنيع والذبح والقتل والتمثيل بالجثث، فمن عجائب وإبداعات عمرو القتالية في مصر أنه كما روى عنه التاريخ عندما ذهب لقتال أهل الإسكندرية، وحاصر المدينة، ظفر أهالي الإسكندرية برأس أعرابي منهم، فقال عمرو: خذوا رجلا منهم فاقطعوا رأسه، فارموا به إليهم في المنجنيق. ففعلوا ذلك فرمى أهل الإسكندرية برأس المسلم إلى قومه.! أي أن أهالي الإسكندرية فعلوا ما اعتادت عليه البشرية في الحروب (خطف أحد الأعداء المحاصرين لمدينتهم)، أما عمرو فقد أبدع في تعبئة جثة قتيل من الأهالي في المنجنيق وقذفها إليهم داخل المدينة..! كنا نتوقع أن ما يخرج من فوهة المنجنيق هي مقذوفات المدفعية فقط، أما على يد عمرو فقد بدأت تخرج جثث بشرية !.. دون أن يتحدث أحد الصحابة العاملين على المنجنيق عن حرمة التشنيع والتمثيل بالجثث.. لكن عمرو مع ذلك، وبرغم شهرته في كتب التاريخ بأنه من فتح مصر ونشر فيها الإسلام، إلا أننا إلى الآن لم نعرف شيئا عن إسلامه هو، ولم نعرف ماذا تعلم منه المصريون، فقط تعلموا منه قطع الرأس وقذفها بيدهم، أما هو فقد كان يقذفها بالمنجنيق !

(٤٩) ـ د. أحمد صبحي منصور في مقال له بعنوان: الباب الثاني موقف المقريزى من اضطهاد المصريين بعد الفتح العربي الفصل الأول (عصر الراشدين والأمويين) على الرابط التالي: http://www.ahl-alquran.com/arabic/chapter.php?main_id=336

وبالطبع تتعارض مثل تلك الحوادث مع عهد الأمان الذي بذله عمرو للمصريين ـ على النفس والمال ـ أثناء صراعه مع الرومان بقدر اتساقها مع تحالفات(عمرو معاوية). وتتعارض مع مبدأ الجزية الذي يقول به الفقهاء لأنه لا جزية على المال. وتفسر لنا لماذا لم يدخل المصريين الإسلام إلا بنسبة ٢٪ بما فيهم المسلمين العرب المهاجرين خلال ١٠٠ سنة من دخول العرب، فالعرب نفّروا المصريين من الدين الإسلامي قبل أن يتعرف عليه المصريون.

والواقع أن عمرو بعد أن استتب له الأمر أنكر كل عهوده، وراح يقول صراحة (لقد قعدت مقعدي هذا وليس لأحد على عهد فإن شئت سبيت وإن شئت قتلت وإن شئت خمّست) .. وإن كان عمرو العاص حين دخل لم يتدخل في عقائد المصريين أو يمارس ضغطا دينيا عليهم بل أعاد بنيامين الهارب إلى موقعه في الكنيسة وتوقف اضطهاد المسحيين في مصر من قبل الرومان، لكنه تفرغ لمهمته الأساسية، ولم يكن ذلك ببعيد عن دهاء عمرو العاص فهو داهية العرب، وقد بلانا الله به، لكن الغريب أنه أصبح في نفوسنا بطلا قوميا إسلاميا ! وما زلنا نرفض الاعتراف بأنه احتل بلدنا وقهر أجدادنا، فلم تكن غاية عمرو لا نشر دين ولا اضطهاد دين، وإنما عينه على ضرع البقرة الحلوب؛ لأنه لم ير مثل لبنها في الصحراء. ولم يكن عمرو أول محتلٍ يتودد إلى المصريين كنوعٍ من الخداع والمناورة الحربية السياسية، فلإسكندر الأكبر عندما دخل أرض مصر عامل أهلها معاملة حسنة، ودخل معابدهم حتى يتقرب منهم، ويذكر أنه دخل معبد أمون خان، فلقنه الفراعنة الطقوس الدينية الخاصة بهم واستجاب لهم على أمل أن يتقربوا منه ويتوددون إليه..

أما عمرو العاص، فهو لا يختلف عن سكان مكة في يومنا هذا، لأنهم أحفاده، فبعدما انتهى من إخماد ثورة الإسكندرية وإعادة مصر إلى حكم دولة المدينة اقترح عليه الخليفة عثمان عفان أن يظل واليا بالمشاركة مع عبد الله سعد، على أن يكون شؤون الجند من صلاحيات عمرو، وتحصيل الجزية والخراج من صلاحيات بن سعد، فرفض عمرو ذلك قائلا قولته المشهورة (إنني إذن كماسك البقرة وغيري يحلبها) فلم تكن مصر بالنسبة إليه، ولا بالنسبة للخليفة عثمان عفّان، ولا لمن جاء بعدهما في الواقع أكثر من بقرة حلوب، كان عليهم أن يعتصرون دمها لآخر قطرة ليتجاوزا عصور الجوع والشظف التي عاشوها في مكة مع قريش، وأن يتخذوا منها ومن مواردها قاعدة لتمويل غزوات أخرى أشد قسوة باتجاه شمال إفريقيا، ولهذا حنث عمرو بكل عهوده مع المصريين، برغم أن الله تعالى يقول (وأوفوا بالعهود) لكنه نكل بكتاب الله ونكل بعهوده للمصريين مقابل تحقيق غاياته، فكان أشد قسوة على

المصريين من الرومان بعدما وعدهم بالأمان على (النفس والمال).. وهذا ما أثر سلبيا على نفسية المصريين، يقول الأديب العالمي "شارلز ديكينز": الوعد إذا كُسر لا يُصدر صوتا؛ بل الكثير والكثير من الألم)

هذا ما تعرض له أجدادنا المصريين علي يد العرب المسلمين، كان شعب مصر بنسبة ٩٨٪ أقباط مسيحيين، إذن أنا من أصلٍ فرعوني قبطي ووطني فرعوني مصري، ولست من أصل عربي، ولن أتنكر لوطني، ولن أتنكر لأجدادي الأقباط مجاملة لجيراني العرب المسلمين، لأن الحقوق الإنسانية لا مجاملة فيها، ولا دخل للأديان فيها، فالأقباط المصريين في هذا الوقت كانوا ٩٨٪ من شعب ويمثلون الوطن، ورفضوا الاستعمار والظلم العربي لوطنهم، فكيف أقبله أنا؟ وأنا ابنهم؟ وكيف أدينهم على رفضهم ظلم العرب؟ أو كيف أنكر أنه كان هناك ظلم عربي إذا كانت مراجع التاريخ العربي الإسلامي جميعها تثبت وقوع هذا الظلم، ليس فقط المراجع التاريخية، بل إن المراجع الفقهية نقلت هذا الظلم وجعلته تشريعا فقهيا، فأصبح تاريخ العرب دينا للشعوب !

وحتى وإن صبرنا على هذا التخريج الفقهي الديني الذي يتبناه الأزهر في محاولة لتبرير حقبة الفتوحات ومشروعية الغزو والجهاد لنشر الدين، باعتبار أن عملية التدخل العسكري بالجيش كانت فقط لإزالة العقبات ورفع الظلم والإطاحة بالطغاة حكام هذه البلاد عن شعوبها، وفي ذات الوقت يسهل دخول العرب هذه البلاد لنشر الدين، فلماذا شرع الفقهاء على المذاهب الأربعة ظاهرة السبي والوطء (خطف واغتصاب النساء والأطفال والبنات) كحق مشروع مرافق للجهاد؟ في الواقع أن هذا الفقه هو تفقه في تاريخ العرب وليس في الدين أصلاً، وحتى الحجة الواهنة التي قالوا بأنها لإزالة العقبات أمام الدعوة والإطاحة بالطغاة من حكام هذه الشعوب، فلماذا لم يخرج منها العرب بعدما حرروها كما خرج المصريين والأمريكان من الكويت بعد تحريرها من الغزو العراقي؟ بل إننا نقرأ عن حجم الثورات وحركات التمرد التي قامت بها هذه الشعوب بعد وقوعها تحت نير الاحتلال العربي، فلو كان العرب دخلوا لنشر الدين والإطاحة بالحاكم الظالم، فلماذا لم يخرج عمرو العاص من مصر بعد تحريرها من الحكم الروماني؟ ولماذا استمر حاكما على مصر حتى وفاته؟ ولماذا استعان به عثمان عفان في قمع ثورة المصريين ؟ ألم يأت لتحريرهم من الرومان؟ ولماذا فرض على المصريين دفع الخراج؟

إذا قلنا أن الجزية ضريبة الحماية حال عدم اعتناق الإسلام، فلماذا الخراج؟ وهل كان يتم إنفاقه على المرافق العامة للمصريين من حفر الترع والقنوات وإقامة الجسور وغيرها أم كان يتم تهريبه إلى السعودية عبر القناة التي تربط بين نهر النيل والبحر الأحمر؟ والتي تم حفرها خصيصا لهذا الغرض؟ ولماذا

استمرت سلالة قريش في التناوب على حكم مصر؟ ولماذا جاء عثمان عفان بأخيه الهارب من حكم الإعدام عبد الله سعد أبي السرح ؟ وتبعه بن أبي حذيفة، ثم الأشتر النخعي، ثم عتبة أبى سفيان ابن حرب، ثم قرة بن شريك العبسي، ثم شرحبيل أيوب، ثم بشر صفوان الكلبي، ثم حنظلة صفوان الكلبي، ثم حفص الوليد يوسف الحضرمي، ثم حنظلة صفوان الكلبي مرة أخرى، ثم محمد الأشعث الخزاعي، ثم سالم سوادة التميمي، ثم داود يزيد المهلبي، ثم مالك دلهم الكلبي، ثم جابر بن الأشعث الطائي، ثم المطلب عبد الله الخزاعي..إلخ. وهكذا قبائل بدوية جلست على عرش مصر الفرعونية . وهذه قائمة حكام سلالة قريش في مصر، وجميعهم حكموا مصر باللغة العربية بينما كان الشعب المصري يتحدث لغته الفرعونية

١. عمرو ابن العاص	٤٠. عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية	٧٩. المطلب بن عبد الله الخزاعى
٢. عبد الله بن أبي السرح	٤١. محمد بن عبد الرحمن بن معاوية	٨٠. السرى بن الحكم
٣. محمد بن أبي حذيفة	٤٢. موسى بن على بن رباح اللخمى	٨١. سليمان بن غالب بن جبريل البجلى
٤. قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري	٤٣. عيسى بن لقمان الجمحى	٨٢. السرى بن الحكم
٥. الأشتر مالك بن الحارث النخعي	٤٤. واضح بن عبد الله الخصى المنصورى	٨٣. محمد (أبو النصر)بن السرى بن الحكم
٦. محمد بن أبي بكر الصديق	٤٥. مصنور بن يزيد الزنجانى	٨٤. عبيد الله بن السرى بن الحكم
٧. عمرو ابن العاص	٤٦. يحى بن داود الشهير بابن ممدود	٨٥. عبد الله بن طاهر
٨. عتبة بن أبي سفيان	٤٧. سالم بن سوادة التميمى	٨٦. عيسى بن يزيد الجلودى
٩. عقبة بن عامر الجهني	٤٨. إبراهيم بن صالح العباسي	٨٧. عمير بن الوليد الطائى
١٠. معاوية بن خديج السكوني	٤٩. موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمى	٨٨. عيسى بن يزيد الجلودى
١١. مسلمة بن مخلد الأنصاري	٥٠. عسامة بن عمرو أبو داجن المعافرى	٨٩. عبدويه بن جبلة
١٢. سعيد بن يزيد الأزدي	٥١. الفضل بن صالح العباسي	٩٠. عيسى بن منصور الرافقى
١٣. عبد الرحمن بن جحدم الفهري	٥٢. على بن سليمان بن على العباسي	٩١. كيدر بن عبد الله
١٤. عبد العزيز بن مروان	٥٣. موسى بن عيسى بن موسى	٩٢. المظفر بن كيدر
١٥. عبد الله بن عبد الملك	٥٤. مسلمة بن يحى بن قرة	٩٣. موسى بن أبى العباس ثابت
١٦. قرة بن شريك العبسي	٥٥. محمد بن زهير الأزدى	٩٤. مالك بن كيدر
١٧. عبد الملك بن رفاعة	٥٦. داود بن يزيد بن حاتم	٩٥. على بن يحى الأرمنى
١٨. أيوب بن شرحبيل الأصبحي	٥٧. موسى بن عيسى بن موسى	٩٦. عيسى بن منصور الرافقى
١٩. بشر بن صفوان الكلبي	٥٨. إبراهيم بن صالح العباسي	٩٧. هرثمة بن نصر الجبلى
٢٠. حنظلة بن صفوان الكلبي	٥٩. عبد الله بن المسيب بن زهير	٩٨. حاتم بن هرثمة بن نصر
٢١. محمد بن عبد الملك بن مروان	٦٠. إسحق بن سليمان بن على العباسي	٩٩. على بن يحى الأرمنى
٢٢. الحر بن يوسف	٦١. هرثمة بن أعين	١٠٠. إسحق بن يحى بن معاذ
٢٣. حفص بن الوليد الحضري	٦٢. عبد الملك بن صالح العباسي	١٠١. خوط عبد الواحد بن يحى بن منصور
٢٤. عبد الملك بن رفاعة	٦٣. عبيد الله بن المهدى العباسي	١٠٢. عنبسة بن إسحق بن شمر الضبى
٢٥. الوليد بن رفاعة	٦٤. موسى بن عيسى بن موسى	١٠٣. يزيد بن عبد الله بن دينار التركي
٢٦. عبد الرحمن بن خالد الفهمي	٦٥. عبيد الله بن المهدى العباسي	١٠٤. مزاحم بن خاقان
٢٧. حنظلة بن صفوان الكلبي	٦٦. إسماعيل بن صالح العباسي	١٠٥. أحمد بن مزاحم بن خاقان
٢٨. حفص بن الوليد الحضري	٦٧. إسماعيل بن عيسى العباسي	١٠٦. أزجور بن أولوغ طرخان التركي
٢٩. الحوثرة بن سهيل الباهلي	٦٨. الليث بن الفضل الأبيوردى	١٠٧. محمد بن سليمان الكاتب
٣٠. المغيرة بن عبيد الله الفزاري	٦٩. أحمد بن إسماعيل بن على العباسي	١٠٨. عيسى بن محمد النوشرى

٣١. عبد الملك بن مروان بن موسى	٧٠. عبيد الله بن محمد بن إبراهيم العباسي	١٠٩. تكين الخرزى
٣٢. صالح بن على بن عبد الله العباسي	٧١. الحسين بن جميل	١١٠. ذكا الأعور الرومى
٣٣. أبو عون عبد الملك بن يزيد	٧٢. مالك بن دلهم الكلبى	١١١. تكين الخرزى
٣٤. صالح بن على بن عبد الله العباسي	٧٣. الحسن بن التختاخ	١١٢. محمود بن حمك (أبو قابوس(
٣٥. أبو عون عبد الملك بن يزيد	٧٤. حاتم بن هرثمة بن أعين	١١٣. هلال بن بدر
٣٦. موسى بن كعب أبو عيينة	٧٥. جابر بن الأشعث الطائى	١١٤. أحمد بن كيغلغ
٣٧. محمد بن الأشعث بن عقبة	٧٦. عباد بن محمد بن حيان	١١٥. تكين الخرزى
٣٨. حميد بن قحطبة بن شبيب	٧٧. المطلب بن عبد الله الخزاعى	١١٦. محمد بن طغج الإخشيد
٣٩. يزيد بن حاتم بن قبيصة	٧٨. العباس بن موسى بن عيسى العباسي	١١٧. أحمد بن كيغلغ

هذه قائمة بأسماء حكام مصر من سلالة قريش خلال ٢٦٠ سنة فقط، وجميعهم حكموا مصر بلغة أجنبية لم تكن هي لغة الشعب، بينما كان الشعب المصري يتحدث لغته الفرعونية، وكانت أسماءهم هكذا قرشية ما أنزل الله بها من سلطان، وحتى المصريين في هذا الوقت لم يكونوا يعرفوا اسم الرئيس المصري لأنه ليس مصري وإنما من فصيلة قرشية لا نعلم أصلها وفصلها، وبرغم أن الدستور المصري ينص في مادة (١٤١) يشترط فيمن يترشح رئيسًا للجمهورية أن يكون مصريًا من أبوين مصريين، وألا يكون قد حمل، أو أيٌ من والديه أو زوجه جنسية دولة أخرى... وأن يكون قد أدى الخدمة العسكرية أو أعفى منها قانونا " حتى أن الدكتور أحمد زويل كان ينوي الترشح لرئاسة الجمهورية عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١، وما منعه إلا أن زوجته كانت سورية الأصل، وليست مصرية.. بينما الأشتر النخعي وحنظلة الكلبي، وجميع هؤلاء الأعراب والأتراك لم يحمل الجنسية المصرية ولم يؤد الخدمة العسكرية، بل أدى خدمته العسكرية في جيشٍ عربي اقتحم حدود مصر كي يحكمها ! ثم نستمر في غبائنا ونطلق عليه فتحا !

ولم يكن العرب يشركون المصريين في أي قرار سياسي أو إداري يتخذونه في شؤون الحكم، ولم يطبق واحد فيهم مبدأ الشورى الذي قالوا عنه في الخلافة، وكانوا يتبدلون بسرعة رهيبة لدرجة أن كل هؤلاء المائة وسبعة عشر قرشي حكموا متتابعين ٢٦٠ سنة فقط أي كل واحد منهم سنتين وشهرين ويتم عزله أو سجنه أو قتله، ذلك لأن العرب من طبيعتهم التخوين والغدر، فلم يثقوا في بعضهم، حتى أنهم جاؤوا بحكام أجانب ليسوا عرب وإنما أتراك ولم يسمحوا لواحد من المصريين أن يحكم مصر كما سمح النبي عليه السلام لمالك بن نويرة أن يحكم قومه، ونلاحظ في آخر القائمة جميعهم خواجات أتراك ؛ تكين الخرزى. ذكا الأعور الرومى ـ تكين الخرزى ـ محمود بن حمك ـ هلال بن بدر ـ أحمد بن كيغلغ ـ تكين الخرزى ـ محمد بن طغج الإخشيد ـ أحمد بن كيغلغ..إلخ.. وكان الخليفة لا يسأل ولا يحاسب أحد فيهم (كم مصري اعتنق الإسلام خلال فترة حكمه)، كان الخليفة يسأل فقط كم شوال

قمح حصلته من الفلاحين المصريين، وكم قسطا من العسل والزيت وكم إردبا من الأرز والشعير، وكم سروال من القطن المصري...إلخ)

ويذكر المقريزي [٥٠] : "ثم كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف عرضا، ... ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين في ملبوسهم. وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان من حنطة وثلاثة أقساط من زيت في كل شهر لكل إنسان من أهل الشام والجزيرة، وودك، وعسل لا أدري كم هو. ومن كان من أهل مصر فإردب في كل شهر لكل إنسان، ولا أدري كم الودك والعسل، وعليهم من البز الكسوة التي يكسوها أمير المؤمنين الناس، ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام. "

وكانت دواوين الحكومة فقط خراج وجزية وجمارك وجند، لم يكن من بينها وزارة للدعوة أو الدين، ولم يتركوا أي أثر يدل على اهتمامهم بشؤون الدين، فقط جمع الجبايات والضرائب من الفلاحين المصريين بالسوط. ولم ينشئوا مركزا دعويا في مصر، لأنهم لو أنشأوا لكان قد ترك أثر، إنما استمر المسلمين في مصر أقلية خلال حكم جميع هؤلاء الخواجات، فقد اهتموا بالنهب والسلب. بينما المسيحية انتشرت في مصر كلها خلال ٥٠ سنة فقط على يد رجل واحد، جاء من أجل الدين وليس من أجل النهب.

وبوجهٍ عام، فلا يمكن الإنكار بأن الوجود العربي كان منبوذا في مصر، ليس على خلفية اختلاف الدين كما يحلوا لرجال الأزهر ، ولكن بسبب صلف العرب وجبروتهم وخشونتهم وقسوتهم في معاملة غير العرب بوجهٍ عام وليس المصريين حصرا.. حتى في يومنا هذا ! ، حتى أنهم لم يندمجوا في نسيج المجتمع المصري وظلوا متعالين في برجهم العاجي متمسكين بالعصبية القبلية والعنصرية رافعين الأصل العربي على غيره من الأجناس، ولهذا نبذهم المصريون كما نبذهم الفرس والأتراك وظلوا بعيدين عنهم لفترة طالت أربعة قرون أو أكثر لم يعتنق فيها المصريون الإسلام، ولو كان العرب يعاملون المصريين بسماحة لكان المصرين قد اعتنقوا الإسلام منذ اليوم الأول، فجميع المصريين الذين قابلوا النبي محمد عليه السلام وجها لوجه اعتنقوا الإسلام فورا ولم يحاربوه كما فعلت قريش.. وأبسط دليل على كره المصريين للعرب خلال فترة الفتح هذه وما بعدها، هو مقارنتها بغيرهم من الغزاة (الهكسوس- الإغريق – الرومان) سنجد العلاقة كانت متوترة جدا بين المصريين والهكسوس كما كانت متوترة مع العرب تماما، في حين أنها استمرت لأكثر من ثلاثمائة عام في سلام ووئام مع البطالمة الإغريق، حيث

---

[٥٠] ـ الخطط المقريزية في الجزء الأول صفحة ١٤٠

بدأ عصر إيجبت البطلمية عندما أعلن بطليموس الأول نفسه ملكا على إيجبت في عام 305 ق. م، وانتهى مع وفاة الملكة كليوباترا، وكان الحكام الإغريق يعتبرون أنفسهم مصريين وينتسبون للفراعنة وينتمون للوطن المصري، وكانوا ينقشون أختامهم باللغة الفرعونية "الخرطوش الملكي" وكان المصريون يقومون بتحنيط جسامين الحكام البطالمة كما المصريين سواءً بسواء.

ومن أهم المعالم التي تركها العصر البطلمي في مصر هو حجر رشيد الذي أصبح فيما بعد ألفي عام هو مفتاح لغز الحضارة المصرية القديمة.. وقد جاء هذه الحجر إهداءً لأحد الحكام اليونانيين في مصر، والغريب العجيب أنه كان عبارة عن مرسوم شعبي موجه للحاكم والشعب نفسه، فالمعروف أن المراسيم والقرارات تصدر ملكية فقط من الملك أو الحاكم، بينما حجر رشيد مرسوم من نوعٍ خاص ! هذا المرسوم صدر في ممفيس عاصمة مصر، في عام ١٩٦ قبل الميلاد باسم الشعب نيابة عن الملك بطليموس الخامس.

ويظهر المرسوم في ثلاثة نصوص: النص العلوي باللغة المصرية الهيروغليفية (لغة رجال الدين)، والجزء الأوسط بالديموطيقية (العامية المصرية)، والجزء الأدنى باليونانية القديمة (لغة الحاكم) وجميع النصوص الثلاثة هي ترجمة لذات المرسوم الشعبي، ويلاحظ في ترتيب النصوص على حجر رشيد جاءت لغة الكهنة والعلماء المصريين في المقام الأول، ثم لغة الشعب العامية في المقام الثاني، ثم لغة الحاكم في المقام الثالث (أي أن الشعب كان حاكما في أمره، عكس الوضع في عصر العرب تماما) وجاء هذا المرسوم الشعبي في نصه رسالة مختصرة لكنها شاملة وافية كافية للتعبير عن حال المصريين الذي لا يمكن مقارنته بعصر العرب، وكان لحجر رشيد نسخ أخرى عديدة تم توزيعها على عامة الناس ليقرأها الشعب، فجاء مضمون النص على حجر رشيد بما يلي

((في اليوم الرابع عشر من شهر كسانديكوس الموافق يوم ١٨ من شهر أمشير المصري. مرسوم: اجتمع كبار الكهنة وهؤلاء المسموح لهم دخول الهيكل المقدس لخدمة الآلهة وحاملو المراوح وكتاب القديسين وكهنة المعابد الآخرين الآتين من جميع أنحاء البلد الذين أتوا إلى منف لمقابلة الملك بمناسبة عيد تتويجه. وشهدوا أنه محسن للمعبد وللعاملين فيه وكذلك لجميع الشعب، وأنه يقدس الآلهة. وقدم للمعبد دخل من الثروة والحبوب وصرف الكثير من أجل رخاء مصر وزوّد المعابد بالإمدادات. وهو سخي بثروته الخاصة، وقام بإلغاء العوائد والضرائب التي كانت واجبة في مصر، كما خفض أخرى حتى يتمكن الشعب من العيش في رفاهية أثناء حكمه، وألغي الديون المستحقة للقصر وهي كثيرة

المستحقة في مصر وباقي المملكة، وكذلك حرر هؤلاء النازلين في السجن وأخرىن الواقعين في قضايا منذ زمن طويل حررهم من التهم الواقعة عليهم وأمر أن يستمر دخل المعبد السنوي سواء من الحبوب أو من الثروات وكذلك من الغيطان والحدائق والأراضي الأخرى الموقوفة التي كانت مخصصة في عهد والده ، وقرر بشأن الكهنة أن هؤلاء لا تزيد رسوم تعميدهم لوظيفة الكهنوت عما كانت مقررة في عهد والده وفي السنة الأولى من حكمه، وأعفى أعضاء سلك الكهنوت من واجب حضورهم كل سنة إلى الإسكندرية وأمر ألا يُرغم أحد على العمل في الأسطول. كما خفض الضرائب التي يقوم المعبد بدفعها للقصر عن منسوجات بيسوس بمقدار الثلثين.



وقام بإصلاح ما تعطل من الأمور خلال السنوات الماضية حيث يهتم بتنفيذ كل الواجبات المتوارثة منذ القديم نحو الآلهة وضمن لجميع الأفراد مساواة في العدالة مثل هيرمس الكبير العظيم وأمر بأن يُسمح للهاربين من صفوف الجيش وآخرين الذين كانت لهم نوايا سيئة خلال أيام التمرد أن يسترجعوا ممتلكاتهم عند عودتهم كما اتخذ إجراءات لتوجيه الفرسان والمشاة والأسطول لصد هؤلاء الذين كانوا يهجمون على مصر من البحر والبر ، ورصد أموالا طائلة وكميات كبيرة من الحبوب لكي تعيش الناس في البلد في أمان. (هذا الوضع من المستحيل أن نجده في عصر العرب، ولا يمكن أن نجد مصريا يقول ربع هذا الكلام عن عمرو ابن العاص أثناء فترة حكمه لمصر، لأن عمرو ومن بعده من سلالة قريش في الواقع لم يكن همهم سوى نهب المصريين)

ثم في عهد الرومان، استمرت الإسكندرية عاصمة وخضعت مصر لولاية الدولة الرومانية، لكن كانت ـ في الغالب – هناك حالة من الوفاق المجتمعي بين الشعب المصري والحاكم الروماني، وكان هناك تواصل وتفاهم وتوافق لدرجة أن المصريين أنشأوا عمود السواري تخليدا لذكرى (حاكم روماني) ولم ينشئوا حتى خرابة تخليدا لذكرى حاكم عربي ! وقد أقيم عمود السواري عام ٢٩٢ ميلاديا، فوق تل باب سدرة. يبلغ طول عمود السواري سبعة وعشرين مترا ،حيث يعتبر من الأعمدة الطويلة الارتفاع والذي تم صناعته من الجرانيت الأحمر الأسواني، ويبلغ قطر قاعدته أكثر من سبعين مترا ،وعند سطحه حوالى مترين ونصف ،ويتصف سطحه بالتصميم المميز الذي يأخذ شكل التاج مما يجعله يجذب الأنظار إليه من بعيد، ويرجع تاريخ العمود إلى انتسابه للإمبراطور "دقلديانوس" والذي تم تشييده تخليدا لذكراه، كما يوجد تمثالان مشابهان لأبى الهول مصنوعان من الجرانيت الوردى. وهذا ما يؤكد الوفاق والتسامح الثقافي الذي كان بين المصريين والرومان رغم كونه احتلال.



أما العرب فكان همهم السلب والنهب وفرض الضرائب والإتاوات وتفتيت المجتمع المصري والتمييز العنصري على أساس طائفي ديني، فكانوا يفرضون على اليهود ارتداء ملابس معينة وعلى المسيحيين ارتداء ملابس معينة مختلفة، وعليهم أن يركبوا الحمار ولا يركبوا الحصان مثل العرب إلا بإذن ! وإن ركبوا بعد الإذن فلا يستخدمون السرج ! ويتم تعليم المرأة المسيحية بزنار في رقبتها... ولا يمشون في جماعات بل يمشون فرادى... ولا يُوقرون في مجلس به مسلم..! ويفرضون ضرائب وجمارك وإتاوات مختلفة حسب الطائفة الدينية، ويسعون جاهدين لبث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد لتحقيق السيادة العربية، ومن ثم يتمكنوا من نهب الأموال وتصديرها إلى بلادهم، فهم لم يهتموا حتى بإنشاء مشاريع

قومية ولا حفر قنوات ولم يهتموا بشؤون المجتمع المصري بأي حال، لدجرة أننا لا نجد المسيحيين في مصر يحترمون أي حاكم عربي كما احترموا حكام يونانيين ورومانيين... ولذلك لم ينشئ المصريون للعرب أي أثر مثل عمود السواري أو حجر رشيد أو غيره.. لدرجة أن الأبحاث ما زالت مستمرة حتى اليوم للعثور على قبر عمرو العاص في مصر دون جدوى... بل إنهم حتى لم ينشئوا أي مشروعات في بلادهم، فقد استخدموا كل ما نهبوه في الاستهلاك في الأكل والشرب ونكح السبايا، وبقيت مكة وشبه جزيرة العرب صحراء قاحلة على حالها.

بينما لو عدنا لتراثنا المصري الفرعوني لوجدناه يتوافق مع الإسلام أكثر مما توافق معه العرب، فالفراعنة كانوا مسلمين قبل أن ينزل الإسلام، بينما العرب كانوا بلا ملة حتى بعد اختصاصهم بالإسلام، فنجد مصر في عهد الدولة الوسطى والقديمة عندما توسعت استعماريا وبسطت سيادتها تجاه الشمال والشرق والغرب والجنوب وصلت إلى إثيوبيا (بلاد بونت) كانت السيادة المصرية تمتد لتحقيق مصالحها في المقام الأول وليس لاستغلال الشعوب وامتصاص دمائها، فنذكر الملكة المصرية حتشبسوت كانت ترسل بعثاتها إلى بلاد بونت (إثيوبيا) لجلب الأخشاب التي تستخدم في صناعة السفن، وكان خضوع بلاد بونت لمصر نوعا من التحالف بين القوي والضعيف.



فلم يكن المصريون يحكمون إثيوبيا حكما فعليا كما كان يفعل العرب في مصر، ولم يجلبوا عبيد من إثيوبيا كما فعل الصحابة في كل البلاد التي فتحوها وكذلك الأوروبيين، إنما هم جلبوا الأخشاب فقط لأن إثيوبيا ينموا في غاباتها نوع من أخشاب الصندل القومية في صناعة السفن ولا توجد بمصر، بل فعل الفراعنة في إثيوبيا ما فعله النبي محمد مع ملك ابن نويرة ملك الحيرة حينما تركه واليا على مملكته مع ضمان ولائه له، ودون استعباده أو استغلاله أو إخضاعه عنوة أو عزله عن حكم بلاده.

بل كان الملك المصري يستقبل ملك بلاد بونت في مصر لتقديم الولاء لا أكثر (باللوحة: الفنان المصري قام بتوثيق استقبال الملك الإثيوبي في مصر معلقا على بدانة زوجته مقارنة بالمصريات، فرسمها بنوع من المبالغة)



إنما العرب حينما دخلوا مصر استعبدوا أهلها وأخذوا منهم سبايا وعبيد بعدد جيش العرب الفاتحين، ولم يتركوا المصريين يحكمون بلادهم أو حتى يشاركون في إدارتها كما كان يفعل الرومان، إنما العرب استقلوا تماما بحكم ديكتاتوري وقمعي مرير.. كان المصريون يرسلون البعثات والحملات للخارج لجلب الأخشاب والمواد الخام اللازمة للصناعة في مصر لأن مصر كانت مركزا فعليا للنشاط الاقتصادي، بينما العرب كان كل همهم في مصر تحصيل الجزية والخراج، ولم يكن لهم أي نشاط اقتصادي لا في مصر ولا في بلادهم. وبدأت حملات الهجرة الجماعية للقبائل من صحارى شبه الجزيرة وهاجرت قبائل كثيرة سكنت في الصحاري المتاخمة للقرى والمدن المصرية.. في البداية سكنوا مخيم الفسطاط بجوار حصن بابليون (بالمعادي حاليا) وكان صحراء متاخمة للمدينة المصرية، لكن المخيم العربي ظل دون مستوى العمارة المصرية... وخلال حكم الدولة الأموية والعباسية وحتى الفاطمية والأيوبية كان الولاة والسلاطين يستخدمونهم في أبناءهم في سلاح الفرسان، وكان العرب يمدون الولاة والسلاطين بالخيول العربية الأصيلة، حتى وإن كانوا غير ماهرين في الفنون الحربية لكنهم تمتعوا بالفروسية... وهذا الوضع يختلف تماما عن المصريين الذين امتدت سيادتهم إلى البلاد المجاورة لهم ومنها بلاد العرب أنفسهم، والعراق والشام وإثيوبيا، لكنهم لم يتركوا بلادهم ولم يهاجروا للسكنى بهذه المناطق كما فعل العرب، بل كان مركز النشاط الثقافي والعلمي والاقتصادي داخل مصر، كانت مصر مركزا للإنتاج المعرفي والاقتصادي، بينما العرب لم يكن لهم أي عملية إنتاجية معرفية أو اقتصادية لا

في داخل بلادهم ولا في البلاد التي احتلوها وهاجروا إليها.. هم فقط هاجروا لتحسين ظروفهم المعيشية خارج الصحراء.

ولاحقا في عهد الخليفة الأموي هشام عبد الملك، جرى تهجير العديد من قبائل قيس [٥١] إلى مصر لأغراض سياسية، وهؤلاء كانوا أضعاف قبائل الجنوب الذين بدأوا في النمو في مصر. يقول الكندي في كتابه (الولاة والقضاة) إن المسئول عن خراج مصر، وكان اسمه عبد الله بن الحبحاب، بعث برسالة للخليفة يشكره على إعلاء شأن بني قيس بعدما استوفد منهم الكثير إلى مصر، وأقطعهم بلبيس وما حولها وأمرهم بالزراعة، وشراء الإبل والخيل... واستمر توافد القبائل على مصر خلال حكم العباسيين والفاطميين، فيقول المقريزي في كتابه (البيان والإعراب عمن نزل أرض مصر من الأعراب) [٥٢] إن في زمن خلافة المستنصر (تقريبا عام ١٠١٠م) حصلت ثورات من قبائل جنوب الجزيرة الذين نزلوا في بادية الشام وغزة ضد الولاة، فأمر الوزير أبو الحسن البازوري باستدعائهم إلى مصر وأقطعهم إقليم البحيرة وما حولها، فاتسعت أحوالهم وعظم شأنهم.

وحاليا تنتشر الحياة القبلية في شرق مصر (سيناء) ولكل قبيلة نظامها الخاص بحيث لو حدث نزاع بين أفرادها لا يلجأ أحد إلى أجهزه الدولة المعنية بل يتم التحاكم إلى نظام القبيلة، وكذلك الحال في غرب مصر بداية من غرب الإسكندرية إلى حدود ليبيا، وتمتد هذه القبائل جنوبا في الصحراء الغربية، وأيضا فى جنوب مصر (الصعيد) تنتشر ظاهرة المجتمع القبلي ولكن ليس بصوره قبائل سيناء، وتسيطر الطبيعة القبلية على المجتمع حتى بالنسبة للذين يعيشون في المدن وكثيرا ما تحدث بين هذه القبائل في مجتمع الصعيد اشتباكات دامية لأسباب تافهة تفضل الدولة الوقوف فيها موقف محايد ومحاولة فض النزاع وعقد مجالس صلح عرفية وترضية كلا القبيلتين. وقد وصل تعداد أبناء هذه القبائل العربية في مصر إلى حوالي ١٥ مليونا ([٥٣])... هؤلاء الخمسة عشر مليون عربي يشكلون مجموعات القبائل العربية في مصر ويعقدون مؤتمرات سنوية لمطالبة السلطات المصرية بحقوق سياسية، برغم أن المنطقي أن يطالبوا السعودية بتخصيص حصة لهم من عوائد النفط لتأهيل مدائن صالح كمساكن لهم،

---

[٥١] ـ الويكيبيديا : https://en.wikipedia.org/wiki/Qays

[٥٢] ـ https://www.goodreads.com/book/show/6670187

(٥٣) ـ مصدر :البلد: في مؤتمرها غدا بالفيوم.. القبائل العربية تناقش إنشاء حزب بعد تجاهلها فى الدستور والشورى http://www.el-balad.com/370852

وكفاهم ما نهبوه من مصر في عهد عمرو العاص وحنظلة الكلبي وأبناءه وأحفاده، لأنهم جاؤوا من بلادهم بلا مأوى ولا مال وعاشوا عالة على المصريين، وقد خصص لهم الحكام العرب وقتها مساحات من الأراضي المصرية الزراعية وخصصوا لهم حظائر ومساكان بالمجان للعيش فيها. وبرغم ذلك لم يقدموا للمجتمع المصري أي شيء ذا قيمة مقارنة بما قدمه الأوروبيين اليونانيين والرومانيين وغيرهم من أصحاب العقول، فأغلب الأوروبيين تركزوا في مدينة الإسكندرية وجعلوا منها عاصمة حضارية، وأنشأوا بها المكتبات والحدائق والمدارس والموانئ والفنارات، بينما العرب سكنوا الصحارى المتاخمة للقرى المصرية، ولا زالوا حتى يومنا هذا يعيشون في ذات المستوى الحضاري الذي جاؤوا به من صحراء شبه الجزيرة، لأنهم ليسو من شعوب الحضارات، ومهما سكنوا في مدن وقرى حضارية يستمر معهم غبار الصحراء.. لكنه من غير الممكن أن يتحول المصريون جميعهم إلى عرب، فكما تقول الحكمة الفرعونية:

" يظـــل البـــحر مـــالحا مــــهما زادت ميــــاه الأمــــطار...

وســـأظل أنـــا كــــما أنـــا مهــــما زاد كــــلام الأحقـــار " !

هؤلاء الخمسة عشر مليونا في مصر هم من أسسوا ووطنوا فكرة اصطلاح "الفتح العربي لمصر" ويعززونها أحيانا باصطلاح " الفتح الإسلامي لمصر" كي يحفظون بقاءهم في رفعة شأن بين أهلها، وعادة ما يتفاخرون بأنهم من أصول عربية جاءت مع عمرو العاص، لا يقولون أنهم هاجروا لتحسين أوضاعهم المعيشية في مصر عقب الفتح وإنما يقولون أنهم جاؤا بصحبة عمرو العاص لينشروا الدين، بينما هم قبائل عربية هاجرت عقب دخول عمرو وتتابعت هجرتهم عبر قرون.. وفي المقابل كان أهل مصر ينبذونهم باصطلاح " الاحتلال العربي لمصر" ، ثم زاد عدد الموالي "المصريين المسلمين" بمرور الزمن وأعطوهم الولاء وتضامنوا معهم في اصطلاح "الفتح" مجاملة لهم، وصار الأغلبية على اصطلاح الفتح بعد انتشار الإسلام في مصر، وأصبح الأقلية المسيحية على اصطلاح الاحتلال. أما الحقيقة الواقعية أن أجدادنا الموالي أخطأوا في مجاملتهم للعرب وتضامنهم معهم في اصطلاح الفتح لأن العرب إنما جاؤا لتحسين أوضاعهم المعيشية في مصر والهروب من غبار الصحراء ليسكنوا وادي النيل وترعى أغنامهم وإبلهم بالمجان ويسترزقون بحصة من الخراج والجزية كل عام، وهو بالفعل كان فتحا على العرب ذاقوا فيه رغد العيش، ومسحوا عن أنوفهم غبار الصحراء واستنشقوا رياح الوادي والخضرة والزهور، بينما هم تطفلوا على أرزاق أجدادنا الموالي وزاحموهم في كل شيء. واستمر اصطلاح الفتح مستوطنا في مصر وشاع بين أبنائها دون وعي بحقيقته ونشأته، بينما ظل الخمسة عشر مليون مسيحي في مصر على موقفهم حتى يومنا هذا ينظرون إلى

الدخول العربي بعين الوطن، أما المسلمين ينظرون للدخول العربي بعين الدين ويعتبرونه فتحا وكأن الدين ما كان ليصل مصر إلا بهذا الفتح وويلاته !

لكن مع مرور الزمان وفي مطلع القرن الحالي تقريبا بدأت صيحات الدولة المدنية تعلوا وظهرت أقلام الكتاب والمفكرين تعود إلى اصطلاح الاحتلال وتتحدث باسم الوطن وبلسان الوطن ومدنية الدولة، وترى أن الدين ليس مبررا لاحتلال أوطان الشعوب، وهو ما رحب به المسيحيون في مصر بينما قابله التيار الآخر السلفي من أحفاد الموالي بنظرة استهجان واتهموا التيار المدني بالموالاة للمسيحيين وليس الوطن، لأن التيار السلفي ليس لديه نزعة وطنية ولا يؤمن في الغالب بفكرة الوطن والارتباط به والإخلاص له إنما يؤمن بفكرة الخلافة التي لا وطن لها وإنما وطنها هو الدين. هذا التيار المدني يريد العودة لوصل حبل التاريخ الحاضر بالماضي الفرعوني وتوحيد الهوية الوطنية المصرية من الجذر إلى الساق متصلا، واختصار علاقة الوطن المصري بالعرب في حدود استفادتنا منهم بالدين الإسلامي، وباعتبار مصر دولة ووطن وهوية وقومية لا يمكن طمسها بالهوية العربية لمجرد الحصول على الثقافة الدينية، فمصر بها تنوع ثقافي وتقبل ثقافات عديدة، منها ما هو هكسوسي ويوناني وروماني وعربي ...إلخ. وكل ذلك يضاف إلى الأصل المصري الفرعوني ويزيد التنوع في الأصل المصري ولا يطمسه لصالح المرحلة العربية، ولا يمكن للهوية العربية أن تطمس كل هذا التنوع أو أن تطمس الأصل المصري..

وهذا التيار المدني ليس مواليا للمسيحيين وإنما يتبنى وجدان الوطن وحقوقه، باعتبار الإنسان مواطن له الحق في العيش بسلام في وطنه أيا كان دينه، وله الحق في أن يشارك في حكم وطنه أيا كان دينه، وبالنظرية التي تبناها ابن خلدون في حق الشعوب في تقرير مصيرها دون أن يكون لحملة الدين حق احتلال هذه الشعوب، ولذلك نجد مؤيدي التيار المدني يلتفون حول مركز ابن خلدون للدراسات والعلوم الإنسانية، ويؤمنون بحق الشعب في تقرير مصيره، بينما الأزهر يهاجم هذا المركز بعنف ويهاجم ابن خلدون برغم أن ابن خلدون كان أستاذا للفقه المالكي بالأزهر ، لكن الأزهر لفظه بسبب نظريته وتجاهل كل مؤلفاته، لأن الأزهر يتبنى فقط وجهة نظر العرب ونظرية الخلافة العباسية والأموية وليس الوطن المصري، فلا يعترف بتقرير المصير وإنما فقط الخلافة، ولهذا يمكننا القول بأن الأزهر إنما هو صوت أجنبي على أرض الوطن، وهو لهجة الاحتلال العربي على أرض مصر، فنحن لا نجد ضمن مقررات الأزهر ما يثبت أن هناك وطن مصري، إنما الوطن بالنسبة للأزهر هو الخلافة أينما كانت بشرط أن يكون الخليفة قرشي... لكن مع ذلك يتغير الحال بمرور الوقت تدريجيا، فلم يكن ممكنا مطلع هذا القرن أن يترك الأزهر أحدا يتكلم عن معاوية ابن أبي سفيان وانقلابه على الدين أو يذكر أخطاءه بأي

وسيلة، بينما بعد الثورة أصبح الأمر مختلف وتعالت أصوات الحرية في الفكر والرأي واستسلم الأزهر لأصوات انتقاد الشخصيات العربية، وبرغم أن معاوية لا يمثل الدين في الشيء إنما يمثل القومية العربية ، ولأن الأزهر ورجال الدين يتبنون القومية العربية قبل الدين فهم يدافعون عن رجالات القومية العربية بثوب الدين، وهذا ما يؤكد أن الأزهر ما زال يمثل أحد رواسب الاحتلال العربي في مصر لأنه لا يقدم الدين وإنما يقدم القومية العربية ويغلبها على القومية المصرية.

يقول الأستاذ فاروق عطية [٥٤] " يظن الكثيرون أن المصريين شعب مستكين قانع بحياته لا يقاوم الظلم ولا يثور، وهذا فهم خاطئ لطبيعة المصريين. كلنا نعلم أن الطبيعة الجغرافية للسكان تشكل الكثير من طبائعهم، والمصريون قد حبتهم الطبيعة بأرض زراعية سهلة الزراعة ونيل متدفق يبعث النماء والاستقرار فانعكس ذلك على سلوكهم الهادئ الوديع. فهم شعب مسالم طيب ودود صبور جدا ولكنه حين يتعرض للظلم يثور ثورة عارمة وينطبق عليه القول" يكفيك شر الحليم إذا غضب".. لكن حتى ثورات الغضب المصري لم تجد نفعا مع الوحشية العربية... ونستعرض بعض ثورات المصريين ضد العرب بعد تربعهم على أرض الفراعنة. وقد ظن المصريون أن العرب أخف وطأة من الرومان ولكنهم كانوا كمن استجار من الرمضاء بالنار، فتوالت ثوراتهم وانتفاضاتهم الواحدة تلو الأخرى.

وفي عام ٨٣١م، في عهد الخواجة المأمون خليفة العرب، يقوم مجموعة من المسيحيين المصريين بثورة كبيرة ضد السلطات العربية، وبعد فشل الثورة، يطلب المسيحيون من الوسطاء بينهم وبين الخليفة أن ينقلوا له أسباب ثورتهم، فقالوا في رسالتهم أن أبا الوزير الوالي كان يرغمهم على دفع جزية لا يستطيعون تحملها، وكان يسجنهم ويربطهم في الطواحين، ويضربهم ضربا مبرحا ويضطرهم إلى طحن الحبوب كالدواب تماما، وعندما تأتي نساؤهم إليهم بالطعام، كان خدمه يهتكون عرضهن". ! [٥٥] .. هذا هو ما جاء العرب من أجله لمصر.. جمع الجزية والخراج، بل لم يكتفوا بالجزية فرفعوا الخراج – الضرائب ـ إلى أقصى درجاته، ثم تحول الأمر في مصر إلى عملية تأميم شامل، فأصبحت الأراضي ملكا للعرب والمصريين يزرعونها مقابل حصة سنويا من محاصيلها .! وما زال العرب مقتنعين أنهم إنما جاؤوا

(٥٤) ـ مقال للأستاذ فاروق عطية: بعنوان: ثورات المصريين ضد الغزاة العرب" منشور بتاريخ، 21 / 2 / 2011 على موقع الحوار المتمدن،

رابط : http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=247167&r=0

(٥٥)ـ مقال عن الغزو العربي منشور على موقع ساسة بوست على الرباط التالي:

، https://www.sasapost.com/was-islamic-invasions-colonial-wars

ليعلمونا الدين ! وما زلنا نحن الموالي مقتنعين بأن آباءنا الروحيين العرب إنما جاؤوا ليعلمونا الدين، وفي الواقع هم في حاجة ماسة لمن يعلمهم مبادئ هذا الدين العظيم.

فلما زاد ظلم جباة الخراج وضوعفت الجزية واشتد الخناق على الجميع، انتفض أهل البلاد جميعا كرجل واحد فى ثورة عارمة، وقد أسفرت هذه الثورة عن هزيمة جيش العرب. وفر أمامهم الوالي ومعه جباة الضرائب، الأمر الذي جعل الخليفة المأمون يرسل أخاه المعتصم على رأس جيش قوامه أربعة آلاف جندي ليدعم جيوش العرب لإخماد الثورة في مصر، وعلى الرغم من وحشيتهم، إلا أن الثورة ازدادت اشتعالا مما اضطر المأمون إلى إرسال جيشٍ آخر من الأتراك بقيادة "أفشين" التركي للتنكيل بالثوار، فحاربوه وقتلوا من الجيش عددا كبيرا، فبعث إليهم جيشا آخر فكسروه. وفي سنة ٨٢٤ م ٢١٦ هـ اضطر الخليفة المأمون أن يزحف بنفسه من بغداد إلى مصر على رأس قوة حربية لإخماد ثورة المصريين التي فشل في إخمادها كل قواده الذين أرسلهم سابقا. وكاد ثوار المصريين أن يفتكوا بجيش المأمون لولا أن الخليفة لجأ إلى أخبث الطرق السياسية وأحطها للقضاء على الثورة، وذلك باستدعاء رجال الدين الأقباط، وطلب منهم تحت التهديد أن يتعاونوا معه في إخماد ثورة المصريين، وعلى الرغم من هذا فقد رفض الثوار الاستسلام وفضلوا الاستمرار، وبعد حروب دموية بينهم وبين جيش المأمون كان النصر دائما فى جانب الثوار، لكن مع استمرار الضغط ضعف الثوار، ودخل الجيش بلاد البشمور وحرق مدنها ودمر كنائسها وقتل صغارها وسبى نساءها وأجلى رجالها إلى جزر الروم الخاضعة له [٥٦].

يقول المقريزى المؤرخ المسلم [٥٧]: "إن هؤلاء القوم (يقصد البشموريين) كانوا أكثر توحشا وتعنتا من سائر سكان مصر، وقد أقلقوا السلطات، ألم يناصبوا العرب العداء سبع سنوات بعد سقوط الإسكندرية في أيدي عمرو؟ ألم يكونوا أول من قام بإعلان الثورة ضد جباة الضرائب؟". ويقول في اختصار: " انتفض القبط فأوقع بهم "الأفشين " على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية، فبيعوا وسُبى أكثرهم، حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر". !!.. ومن شهادة المقريزي المؤرخ المسلم هذا نفهم أن العرب أذلوا المصريين، أي لم يأتوا لمصر كي يعلموا المصريين دينهم ولكن لكي يحكموهم عنوة ويحصلوا منهم الجبايات والإتاوات ويخضعونهم ويقمعونهم عنوة، وبنص شهادة المقريزي نفهم بوضوحٍ شديد أن من دخل الإسلام من المصريين في هذا الوقت لم يكن يتمتع

(٥٦) ـ الأستاذ فاروق عطية، المصدر السابق

(٥٧) ـ فى كتاب الخطط للمقريزى ج١ ، ص٨٩/٧٨

بإرادة حرة بمفهوم القانونيين، بل مورس عليه إكراه غير مباشر لكنه متعدد العناصر، إذ يقول المقريزي " ذلت القبط في جميع أرض مصر".

وتقول مصادر التاريخ أن الخليفة المأمون كان معه مستشاره الخاص على الرضوان الذي قيل إنه طبيب وعالم لغويات فقام بدور المترجم للخواجة المأمون لينقل له الحوار مع المصريين وتقصى بنفسه الأمر ليقف على الحقيقة، كان يريد أن يحاط علما بكل ما يجرى على الأرض وفى البلاد، ضمانا لأمور كثيرة أولها عدم إفلات السلطة منه وثانيها عدم إفلات الثروة، وضمان تسمع ما يقال عنه كحاكم ومعرفة ما يجرى من مؤامرات ضده كأجنبي على أرض الوطن، لأن المصريين لم يكونوا يعرفوا اللغة العربية في هذا الوقت، وكان العرب أجانب منعزلين في قواعدهم العسكرية "الفسطاط" وغيرها .. وفجأة قرر المأمون أن يشطب العرب من ديواني العطاء والجند. هذا القرار جاء سياسيا عسكريا لضمان ولاء الموظفين داخل هذه الدواوين الحكومية، لكنه أيضا بالصدفة أدى إلى معرفة المصريين بالدين الإسلامي واللغة العربية، لأن معنى ذلك أن الأموال والرواتب التي كان يتحصل عليها العرب من عملهم في هذه الدواوين قد ألغاها المأمون، وهو ما يعني نزع كل مكتسبات الأمويين وأعوانهم من العرب والذين اشتركوا في الثورة ضده، لأن هذه هي الثورة الوحيدة التي اشترك بها العرب في مصر ولم تكن أهدافهم مصرية ولا كانت للتظلم من الجباية والجزية أو غيره، وإنما كانت محاولة للانقلاب على حكم الخليفة العباسي أو استقلال بحكم مصر، وبالتالي بعدما تمكن الخليفة المأمون من وأد هذه الحركة نكل بكل من شارك فيها أو يشتبه فيه... فترك العرب الحصون والمواقع الوظيفية ومدن الجنود واندمجوا في الشعب المصري ليتكسبوا قوت يومهم، بعدما عاشوا عالة متطفلين على المصريين، توسلوا وزاحموا المصريين في العمل والتملك والمصاهرة، وتعرف المصريون على ديانة العرب عن قرب وبدأ التأثير والتواصل بين الثقافتين، وتعلم المصريون اللغة العربية ومن هنا تفقه المصريين في الدين الإسلامي أكثر من العرب أنفسهم.

وبعدما تزايدت قيمة الجزية والخراج أضعافا مضاعفة، واستنجد المصريون بالرومان مرة أخرى حتى جاؤا الإسكندرية وفتح المصريون لهم أبوابها كي يخلصوهم من العرب، لكن لم تنجح محاولاتهم. وقامت سلسلة من الثورات، ليس من المسيحيين ضد العرب فقط، ولكن الأكثر كانت من خليط (مسلمين ومسيحيين) بسبب الظلم والجور وفساد الحكم العربي، وتكاد مصر تكون قد عاشت عمرها كله تحت الحكم العربي ثورات متتالية وحركات تمرد يتم قمعها بوحشية غريبة ذكرها المؤرخون

الإسلاميون في كتبهم بهدوء أعصاب غريب. لكن في الغالب كانت حركات التمرد هذه ضد الأعباء الاقتصادية والمشكلة أنها كانت تحدث من قرى مستقلة ونادرا ما تتحد قريتان أو إقليم (محافظة مثلا)، وكانوا في الغالب عزل بلا سلاح، وإن اتخذوا أسلحة بدائية يأتي العرب بقوة عسكرية يكتسحوا القرية بالكامل ويخطفون الأطفال والنساء والبنات ويحرقون بيوت القرية... هؤلاء هم الصحابة الذين عاشوا على أرض مصر وماتوا فيها ودفنوا في ترابها، لكنهم بعد وفاتهم اكتشفنا أنهم كانوا أبطال فاتحين مجاهدين في سبيل الله وخلدنا ذكراهم بعدما اضطهدوا أجدادنا، فقط لأننا أصبحنا مسلمين بينما أجدادنا كانوا مسيحيين، لأنه بالطبع ٨٠٪ من المسلمين الآن في مصر كان أجدادهم مسيحيين في هذا الوقت... وبالتالي قبل أن نتفاخر بحضارة العرب في بغداد والأندلس لا بد أن ننظر إلى حال أجدادنا وأبناء شعبنا كيف كانت حياتهم تحت حكم العرب، هل كانوا يعيشون عز وحضارة وازدهار كما في بغداد والأندلس؟ فمن الغباء أن نولي غيرنا على أجدادنا بحجة أنهم كانوا مسيحيين.

وليس هناك مبرر للتضامن مع الحكام السعوديين سواء من قبيلة بني كلب أو كان الأشتر النخعي أو حنظلة أو صفوان الكلبي أو دود المهلبي، ضد أجدادنا المصريين، حتى وإن كانوا مسيحيين فلهم حرية العقيدة، ولهم حق الدفاع المشروع عن أنفسهم وأموالهم ووطنهم، وقد أمرنا الله بالبر والإحسان إليهم حتى وإن كانوا مشركين، لكنهم كانوا أصحاب البلد وأصحاب عقيدة إلهية ولهم أيضا حق الدفاع المشروع عن بلدهم وحقوقهم، ولا يمكن إجبارهم بالتسليم لسلطان حاكم سعودي يتسلط عليهم ويستنزف طاقتهم الاقتصادية بأي حال، أو يهينهم بالختم على قفاهم كما فعل العرب، وليس المبرر أن العرب خلصوا المصريين من حكم الرومان، لأن جميع المصادر التاريخية والشعب المصري في هذا الوقت قرروا أن العرب كانوا أشد وطأة على المصريين من الرومان، بدليل عدد الثورات وحركات التمرد كانت في عهد سلالة قريش أكثر وأعنف مقارنة بالرومان. وإلا فما موقف التاريخ من هذه الثورات؟ هل كانت خيانة للوطن؟ هل خان الأقباط وطنهم بقيامهم بثوراتٍ ضد الحكم العربي؟ غير أن العقيدة الوطنية تحتم علينا الانتماء لبلدنا ولا يمكن القبول بأن يحكمها سعودي إلا إذا كانت عقيدة إخوانية، والإخوان بطبيعتهم لا يؤمنون بفكرة الوطن، وليس لديهم عقيدة وطنية من الأساس.

ونتيجة هذه القلاقل والثورات وحركات التمرد المتتالية، حاول العرب استقطاب الموالي في جانبهم وإبعادهم عن باقي الشعب المصري للقضاء على الثورات وحركات التمرد، وهذا هو منشأ وبذرة الفتنة

الطائفية وانقسام المصريين إلى مسلمين وأقباط، مسلمين أقلية بنسبة ٢٪ موالين للوجود العربي في مصر في سبيل الهروب من الضغوط الاقتصادية، وأغلبية الشعب المصري مسيحيين معارضين للوجود العربي في مصر، حتى أن كلمة أقباط أو القبط كان تطلق على جميع سكان مصر، فصار يستثنى منها الموالي، وانحصرت في باقي الشعب المصري الذي ظل على المسيحية ٤٠٠ عام. وبالتالي فإن الحكم التاريخي التأريخي هنا لا بد أن يسجل احتلال عربي لمصر، طالما وقف الشعب المصري ضد هذا الطغيان، ومن الأسف أن نجد أغلبنا المسلمون حاليا مقتنعين بأن المسيحيين فقط هم منا قاوموا الطغيان العربي واعتبروه غزوا! الغريب أننا كمسلمين حاليا كان أجدادنا هم هؤلاء المسيحيون الذين تعرضوا لظلم العرب، لأن المسلمون وقتها كانوا ٢٪ فقط وأغلبهم من القبائل العربية التي غادرت أوطانها بعد عناء طويل إلى بورتو قريش بالقاهرة، فهل نحن بذلك نعتبر ناقمين على أجدادنا لمقاومتهم العرب ودفاعهم عن وطنهم! على الأقل هم كانوا مسيحيين أخلاقهم أفضل من أخلاق العرب، ولم يكونوا عنصريين مثل العرب، ولم يكونوا جهلاء مثل العرب، ولم يكونوا همجيين مثل العرب. غير أن الدفاع عن الوطن غير متعلق بدين، فهم دافعوا عن وطنهم بإخلاص، فهل يكون التخلي عن الوطن من أجل الدين؟ وهل لا يمكن اعتناق الدين مع الاحتفاظ بالوطن؟ إن مجرد إطلاق كلمة فتح على دخول العرب مصر لهو خيانة وطنية في حق الوطن؛ لأن العقيدة الوطنية تحددها الأغلبية وليس الأقلية، ولو اتخذنا سجلات الأمم المتحدة كمعيار إنساني عادل للفصل بين الشعوب والأوطان، سنجد سجلاتها تقول بأنه وقع احتلال عربي للأراضي المصرية خلال هذه الفترة. وهنا نقف لنتساءل؛

مع الوضع في الاعتبار أن القضية هي قضية وطن وليس قضية دين، لأن العرب لم يأتوا في الأساس من أجل الدين وفقا للسجال الذي دار بين عمرو وعمر، ولأن الوطن لا يمكن امتلاكه إلا بامتلاك حرية الحكم على أرض هذا الوطن، وحرية العقيدة قرينة بحرية الوطن، أما الدين فيمكن اعتناقه في أي مكان في العالم، غير أن الديانة المسيحية انتشرت في مصر بالكامل دون أن تنتزع سلطة الحكم في مصر، ودون أن تفرض على الشعب المصرية جزية ولا خراج ولا ختم ع القفا برسمة أسد، فلماذا اشترط العرب انتزاع سلطة حكم مصر كي ينشروا الدين؟ وهل فرط المسلمون وقتها في حرية وطنهم حفاظا على دينهم؟ وهل كان هناك ما يمنعهم من اعتناق الدين والحفاظ على الوطن معا؟ فلماذا فرطوا في حرية وطنهم وتضامنوا من العرب الدخلاء طالما أنه ممكن اعتناق الدين دون الخضوع لحكم قبيلة بني كلب؟ وإذا قلنا أن المسلمين انضموا إلى العرب واعتبروا وجودهم في مصر فتحا مقدسا عليهم، فهذا لا يمكن اعتماده حكم لأن المسلمين في هذا الوقت كانوا أقلية بنسبة ٢٪ ولا يمثلون الشعب المصري. ولأن

العقيدة الوطنية يحددها الأغلبية وليس الأقلية. بمعنى لو جاءت بريطانيا الآن وهي دولة مسيحية لدخول مصر ووقف جيشها على الأبواب، وانضم إليه المسيحيون المصريون وبقيت الأغلبية المسلمة تقاوم دخول الانجليز باعتباره احتلال، فكيف يكون الوضع؟ هل الوطن هنا من حق الأقلية المسيحية ليقولوا أن دخول الإنجليز فتح مقدس؟، وهل يحق لهم التضامن مع الإنجليز ضد إرادتنا نحن الأغلبية المسلمة؟

في الواقع إن العرب الذين حكموا مصر خلال هذه الحقبة لم يكونوا يمثلوا الإسلام وإنما كانوا يمثلون أنفسهم وطبيعة مجتمعهم الهمجي، كانت الكاريزما العربية غالبة على الطابع الإسلامي، وما حدث في هذا الوقت من تضامن الأقلية المسلمة مع العرب ضد إرادة أغلبية الشعب المصري ليس نابعا من خيانة وطنية، ومن الصعب اتهامهم بالخيانة الوطنية أو خيانة الذات أو خيانة الوطن لصالح الدين، ولكنه ناتج من أثر الضغوط والصدمة النفسية، لأن الظروف التي وضع العرب المصريين فيها لم تكن أبدا تسمح لمصري باعتناق الإسلام عن قناعة كاملة وبإرادة حرة، بل كانت الحقبة التاريخية كلها عبارة عن " ظرف قهري" كان وضع المسلمين المصريين في هذا الوقت كما حال "عرب ٤٨ " الذين تنازلوا عن هويتهم ولغتهم وقوميتهم الفلسطينية وانضموا إلى إسرائيل وقبلوا أن يحملوا بطاقات هوية إسرائيلية، برغم أنهم ليسو إسرائيليين، ويتحدثون اللغة الإسرائيلية وينتمون للدولة الإسرائيلية، وسيأتي أبناءهم إسرائيليين، يدرسون تاريخ إسرائيل وقوميتها في مدارسهم، وينتمون واقعيا للهوية الإسرائيلية، ومع ذلك من الصعب اتهامهم بالخيانة الوطنية لأن إرادتهم ليست حرة حرية كاملة، بل يعيشون في ظرفٍ قهري جميع عناصره مفروضة عليهم.. وبمرور الوقت تضعف فكرة القومية الفلسطينية في عقول أجيالهم حتى تذوب وتحل محلها القومية الإسرائيلية.

وهكذا كان المصريون تحت الحكم العربي ولذلك لم يتجاوز عدد من أسلموا ٢٪ من الشعب المصري في ظل هذه الظروف، بينما اعتنق جميع المصريين الديانة المسيحية خلال ٥٠ عاما فقط لأنها لم تقترن بظلم وحكم قمعي مثل حكم العرب، وإنما جاءت مصر في ظرفٍ هادئ وعلى منبر الدعوة، أما العرب فقد أساؤوا للإسلام أبلغ إساءة وشوهوا مبادئه السمحة حينما استخدموه وسيلة لمص دماء الشعوب.. وليس معنى صدمة أن تكون وقوع تحت تعذيب أو ضغط بدني مباشر وإنما الصدمة هي مجموع الظروف التي يوضع فيها الإنسان فلا يستطيع التحمل، فيتحول إلى الاستسلام، ومن هنا تنفلت أفكاره وقناعاته وتنعكس على نفسها، كما توضح متلازمة ستوكهولم، بأن الضحية يتحول ليؤمن بأفكار المعتدي عليه ويدافع عنه ويتبنى أفكاره ومبادئه في محاولة لاستشعار الأمان بعدما ضعفت إرادة المقاومة، وقد

حدث هذا معنا نحن المسلمين، ليس المصريين فقط، بل كل الشعوب التي تعرضت للاحتلال العربي أصيبت بهذه المتلازمة الشعبية، وظلت على مدار ألف وأربعمائة عام تؤمن بأفكار خاطئة، هذه الأفكار الخاطئة هي أن الطريقة التي احتل بها العرب بلادهم دين مقدس، وهذا ليس من فقه الدين وإنما من أثر الصدمة التي جعلتنا نؤمن بأفكار العرب وندافع عن مبادئهم ونعتبرهم أبطال. إذ أن مدارسنا لا زالت إلى اليوم تدرس دخول العرب مصر باعتباره جهاد وفتح مقدس، مع أنه مخالفة صريحة لمبادئ الدين الإسلامي، لأن الإسلام لا يقر دخول بلد واغتصاب سلطة الحكم فيها بهذه الطريقة واستنزاف اقتصاد أهلها هكذا.

إن العرب نجحوا بالفعل في تفكيك النسيج الاجتماعي لقمع الثورات وحركات التمرد. لأن الإقبال على الإسلام في هذا الوقت كان ضعيفا جدا، خصوصا أن العرب دخلوا بجيش محارب وبدؤوا فورا تنظيم الضرائب كما الرومانيين لكنهم زادوا عليها الجزية، ولم يكن العرب يتحدثون لغة المصريين ولم يفكر أحدهم في تعلمها والتواصل مع المجتمع المصري، وكانوا متعاليين على المصريين حتى من أسلموا منهم ظلوا في درجة "الموالي". فكان في الغالب من يقبلون على الإسلام يكون دافعهم الهروب من الأعباء الاقتصادية، كما كان وضع الصحابة الكبار حول النبي في مكة، إذ كان معظمهم من العبيد الذين استفادوا من سماحة الإسلام وتقنينه لحق تقرير المصير بنظام المكاتبة، والمساواة في الحقوق الإنسانية بين الأسياد والعبيد، هذه المصالح في الأساس هي ما دفعت الصحابة الأوائل إلى اعتناق الدين الإسلامي والإيمان بدعوة النبي. كذلك في مصر كان الوضع في البداية مجرد هروب من الأعباء الاقتصادية لغير القادرين من المسيحيين فيعلنون إسلامهم للتخلص من الجزية ويبقى الخراج فقط. ثم في محاولات تالية لتخفيف الأعباء عليهم حاولوا استقطاب العرب والتودد إليهم، فاستغلهم العرب لقمع ثورات الشعب المصري.

فالعرب شغلهم الدهاء والمكر وألاعيب سياسية رديئة، وكثير جدا من الحكام العرب من قريش في مصر تم تصفيتهم من قبل الخلافة والمناوئين وجميعها اغتيالات سياسية، لكن بطرق ساذجة ووحشية، بذات الطريقة التي قتلوا بها الصحفي جمال خاشقجي في سفارة السعودية بتركيا ٢٠١٨، حيث كتموا أنفاسه بكيس من البلاستك ثم قاموا بتقطيع أوصاله بمنشار كهربائي وإذابة أشلاء جثته بحمض الكبريتيك.. ثم يأتي رجل الدين للتبرير فيقول " إن الله نجا الأمير محمد بن سلمان من هذا المأزق لسببين: الأول هو رباطة جأشه، وأما الثاني فهو علاقة بينه وبين الله ! بينما رئيس وزراء كندا يقول له " أنتم عبء على المسلمين " [٥٨] .. لكنهم هكذا يجعلون لكل جريمة غطاءً من الدين، حتى أن عمرو

(٥٨) ـ خبر منشور على موقع "الصحافة الحرة" بتاريخ ديسمبر ١٨، ٢٠١٨م

العاص بعد قتل أحدهم في مصر كان يضحك ويقول" إن لله جنودا من عسل" ! في الواقع لقد أخطأ رئيس الوزراء الكندي وخانه التعبير، لأن الحقيقة أن العرب في العصر الحالي يمثلون قرحة مزمنة في جسد البشرية، حتى تاريخهم وفتوحاتهم كانت أكبر قرحة في جسد الإسلام وفي جسد البشرية أيضا، فبرغم أن الله أوصاهم بحسن الجوار إلا أنهم أشعلوا سيوفهم في كل شعوب الجوار حتى نزفت دماء غزيرة.



هكذا كان وضع الحكم تحت سلالة قريش السعوديين في مصر، ولم يكن أمام المصريين سوى الاستسلام للأمر الواقع، لأن القوة المادية لصالح العرب، غير أن القوة المادية وحدها ليست حاسمة لأن العرب كانوا يمتازون بالخشونة والوحشية الانتحارية حتى في قتل بعضهم البعض، كانوا من طبيعة جبلية وحشية كما سلالة المماليك، والمماليك هؤلاء جاؤا من جبال البلقان، حيث نشأوا في طبيعة جبلية صخرية وعرة في سفوح جبال البلقان، وكانت طبيعتهم قاسية وخشنة جدا تحمل ملامح البيئة التي نشأوا فيها وتمكنوا من التغلب على ظروفها الصعبة والعيش فيها، ولذلك كانت قدراتهم في القتل وحشية بدرجة خارقة، يستطيع الواحد منهم أن يقتل عشرة بدم بارد، وكانت الجيوش العابرة على جبال البلقان تجمع هؤلاء البشر الجبليين وتأخذهم أسرى تدربهم وتستعين بهم في القتال مقابل أجور أو مأكل ومعيشة أو مرتزقة دائمين، ولذلك كان أغلب الجيش العثماني من هؤلاء وحقق بهم انتصارات كبيرة جدا.

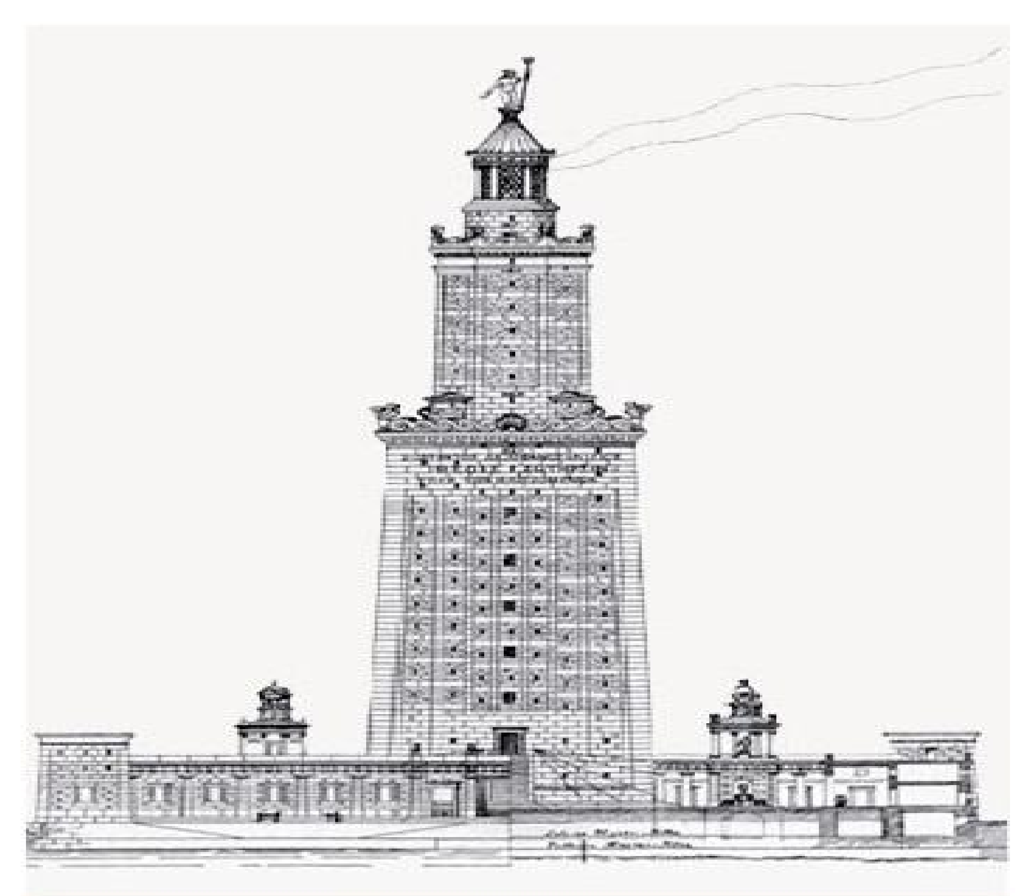
على رابط: https://sahafahurra.com/world-news :

وكذلك كان العرب متوحشين مقارنة بالمصريين، كانوا مثل الوحوش الضارية التي تقتل وتنهب بغير إنسانية، ولم يحملوا من أخلاق نبيهم أي ميزة، إذ أننا لا نجد أي أثر لهذه الوحشية في النبي عليه السلام، حتى أنه رغم خوضه سبع معارك حربية لم يقتل إنسانا في حياته قط، حتى إذا ذهب إليه أحد المشركين لقتله في معركة أحد مد النبي سيفه من بعيد فجرحه جرحا طفيفا عاد على أثره، ولم يتتبعه النبي ولم يقتله ولم يؤذه، لكن العرب لم يحملوا في قلوبهم الجبلية القاسية أي ريحة من ملامح النبي وأخلاقه الطيبة وسماحته وهدؤوه ورحمته بالناس.. كانت طبيعة العربي جبلية وحشية كما وصفه ابن خلدون بدقة، حتى خلافاتهم السياسية عادة ما يتم تصفيتها بأبشع طرق القتل، ولم يتورعوا حتى من التمثيل بجثث أصدقاء النبي المقربين منه، حتى أن عمرو العاص كي يتولى حكم مصر بإيعاز من معاوية وبالتواطؤ ضد على ابن أبي طالب، اتفقوا على قتل الصحابي الجليل محمد ابن أبي بكر الصديق وكان حاكما لمصر وقتها، وقاموا بربطه من ساقيه وجره في الشوارع ليكون عبرة لجميع العرب، ثم قاموا بدفنه في جيفة حمار وقاموا بحرقها وأخذوا قميصه لترقص به النساء في مكة والمدينة.. كانوا يتصرفون مع بعضهم كما الهكسوس...

بينما المصريين ليس من طبيعتهم أن يتصرفوا هكذا، ولم نجد واقعة في التاريخ المصري تثبت أنه تم التمثيل بجثة ملك من الملوك أبدا ولا حتى من عامة الناس، إذ أننا نجد الملك الفرعوني سقنن رع في حروبه ضد الهكسوس وقع في إحدى المعارك بيد الهكسوس وقتلوه ومثلوا بجثته كعادة العرب، لكن المصريين تمكنوا من سحب جثته من تحت أقدامهم وقاموا بتحنيطها ووضعها في المقبرة المجهزة له. غير أن المصريين على مدار تاريخهم تولى الحكم فيهم أكثر من ثلاثين عائلة على مدار خمسة آلاف عامٍ لم تقتل عائلة أخرى من أجل السلطة، ولم يقتل ملكٌ غيره من أجل السلطة، ولم تحدث أي صراعات سياسية أو عسكرية أو فتنة أهلية من أي نوع على مدار تاريخ الحضارة المصرية كاملا، بل إن الملك الوحيد الذي يرجح المؤرخون أنه توفى في ظروف غامضة هو إخناتون الذي قاد ثورة دينية لتوحيد العبادة في مصر ، وانتهى حكمه في ظرفٍ غامض، ما قد يعني اغتياله، ومع ذلك لم يمثل المصريين بجثته كما فعل العرب بجثة الصحابي الجليل محمد ابن أبي بكر الصديق، بل إنهم دفنوه في مقبرته الملكية مثل غيره من الحكام في وادي الملوك والملكات، فقط كل الاختلاف أنه ربما امتنع الكهنة عن التحنيط، ولهذا وجدنا جثته في المقبرة عبارة عن هيكل عظمي ممددة إلى جوار التحف والآثار والمجوهرات الملكية ولم يتم حرقه في جيفة حمار.

لكن المصريين بعدما دخل العرب مصر وتربعوا على عرشها عصورا طويلة كما الضيف الثقيل.. فتوقف الفراعنة عن تحنيط ملوكهم، ونسوا أخلاقهم وقيمهم ومبادئهم السمحة، وثقافتهم وعلومهم ومعارفهم بعدما أجبرهم العرب على ترك لغتهم الفرعونية والتحدث بالعربية، واستجاب المصريون على أمل أن يتعرفوا على الإسلام.. لكنهم للأسف لم يعرفوا الإسلام على حقيقته، بل تقمصوا العقلية العربية وشربوا الثقافة العربية الأدبية، وتقمصوا القومية العربية التي جاء الإسلام لعلاجها من الأساس، واندمج المصريون في النسيج العربي وأصبحوا عربا مثل العرب وجزءا من القومية العربية...

نزل المصريون بإرادتهم من الطابق العلوي لمنارة الإسكندرية وهجروا المرايا وأطفأوا المشاعل كي يتعايشوا مع العرب في خيام الصحراء المتواضعة وينهلون من ثقافتهم وعاداتهم ويتعلمون تاريخهم القرشي بعدما افترش العرب صحراء المعادي بجوار حصن بابليون كما ورد بخطط المقريزي، (وخططوا عدة حارات(خطة = حارة أي شارع بلغة المصريين) واختصت كل قبيلة بخطة أو حارة) في منتجع قريش الذي عرف وقتها بالفسطاط.. ومن هذا التاريخ هجر المصريون المنارات والأهرامات وسكنوا الفسطاط مع العرب... وبرغم أن الشاب الإغريقي الإسكندر دخل مصر من الشمال كما دخل عمرو من الشرق، لكن الإسكندر خطط مدينة الإسكندرية ووضع حدودها ومعالمها وأمر مهندسيه بالعمل على إنجازها حتى صارت تحفة معمارية ومنارة للعالم إلى يومنا هذا.. بينما منتجع قريش الذي بناه عمرو العاص بعد الإسكندر بألف عام أصبح خرابة وذابت معالمه مع عوامل التعرية لأنها قامت بأسلوب البناء الصحراوي لا الحضاري.. للأسف تواضع المصريون لمستوى ثقافة العرب كي يتعرفوا على ثقافة النبي محمد، مع أن النبي محمد ما كان بحاجة إلى ذلك، بل كان بإمكانه التعايش مع المصريين حتى في الطابق العلوي لمنارة الإسكندرية دون اشتراط الهبوط إلى مُخيم الفسطاط.▌





الإضاءة الرابعة

كيف نشر الصحابة الإسلام في مصر

لو كان الصحابة هؤلاء يتحدثون عن الإسلام لما غزوا العالم حولهم بالسيوف والخناجر وشوهوا الدين ومارسوا القتل وخطف واغتصاب بنات الناس تحت مسمى " السبي وملك اليمين وقلة الإدب " وقالوا أن السبي حلال وأن القتل جهاد ..إلخ. اعتمدوا على الغش والكذب والتدليس في كل شيء، وجاء أحفادهم لكي يمجدوا ويقدسوا أجدادهم جعلوا أسماءهم على بيوت الله، فقيل لنا أن أول مسجد بني في مصر هو مسجد عمرو ابن العاص، مع أنه لا ينبغي أن يحمل بيت من بيوت الله اسمه لأنه هو ذاته في سلوكه وأخلاقه لا يمثل الإسلام في شيء، بل إن أول مسجد أنشئ في مصر ليس هو جامع عمرو بن العاص، إنه مسجد سادات قريش في محافظة الشرقية ... فالصحابة الكرام من الأساس لم تدر في أذهانهم فكرة نشر دين أصلا، فحينما تحركت الجيوش من الحجاز باتجاه العراق ثم الشام وفارس ثم انثنت على مصر، لم يخطر ببال الصحابة فكرة نشر الدين في هذه الشعوب، ولو كانت الفكرة خطرت على بالهم لكانوا ساعدوا الناس في فهم هذا الدين بأن يخصصوا عددا منهم لترجمة بعض من مبادئه أو بعض آياته ومعانيه ونشرها بين الناس، إنما هم يعلمون جيدا أن الدين جاء لعلاج أمراضهم القومية، وبالتالي لم يفكروا في نشر هذا الدين فيما حولهم، بدليل الحوار الذي دار بين عمر وعمرو ابن العاص عن فتح مصر، كان حوار ثروة وغنى ومسألة اقتصاد سياسي لا علاقة لها بالدين..

ومسجد سادات قريش يعتبر أول جامع بني في أفريقيا وبهذا فهو يسبق بناء مسجد عمرو بن العاص بحوالي عامين، وموقع هذا المسجد على الطريق التي سلكها جيش العرب من غزة إلى العريش ثم الفرما ثم إلى داخل الشرقية وجرت عدة معارك قبل الوصول إلى بابليون استمرت عدة أشهر عسكروا خلالها أكثر من مرة، والدليل هو ما ذكره الباحث الفرنسي البروفيسور "فرانسوا البريت" المتخصص في التاريخ العربي والإسلامي بجامعة السوربون، أن الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص عند فتحه مصر جاء عن طريق فلسطين، حيث فتح العريش، ووصل للفرما وبلوزيوم وهي مدينة قرب بور فؤاد، اتجه بعد ذلك لتنظيم صفوفه، وأرسل العيون لجمع الأخبار ومكاتبة الخليفة عمر بن الخطاب وغيرها من الأعمال الأخرى.. وبعد ذلك جرت عدة معارك في الشرقية بني خلال هذه الفترة مسجد سادات قريس .. ومن اسمه سادات قريش أي لا علاقة له بالدين وإنما هم استخدموا الدين كعلامة تجارية للتسويق واحتلال

شعوب العالم ... ! لأن قريش في هذا الوقت كانت تسعى إلى السيادة لا نشر الدين، ولهذا لم يأت اسم المسجد " سيادة الإسلام " بل جاء سيادة قريش. وما زال المسجد قائما إلى يومنا هذا تعمل الحكومات المتعاقبة على ترميمه، لكن بعدما استقر ابن العاص في الفسطاط واستقرت حوله قبائل العرب وبنا مسجدا هناك عرف فيما بعد باسمه، وأصبح هو المركز باعتبار موقعه في العاصمة بينما كان مسجد سادات قريش محطة عابرة على الطريق، لكنه ما زال قائما باسمه إلى اليوم، ولا نعرف كيف تسمح الحكومة المصرية باستمرار هذه المهزلة !



ثم بعد عبور التاريخ ومرور أربعمائة عام بدأ المصريون في اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية، وما زال يثور التساؤل حول ما إذا كان عمرو العاص قد أحرق مكتبة الإسكندرية القديمة بما فيها من علوم ومعارف!، وتقول المراجع التاريخية أن عمرو العاص أرسل إلى الخليفة عمر الخطاب يسأله عن مكتبة الإسكندرية، فقال له "إن وجدت فيها ما يغضب الله فاحرقها وإلا فلا"، والمكتبة كان فيها علوم طبيعية من طب وفيزياء وهندسة وفلك وتاريخ، وطبيعي أن مثل عمرو العاص لا يري أي قيمة لهذه المكتبة، لأنه لم يعتد أن يرى مكتبة في بلاده مكة والمدينة، بل فقط الخيل والسيوف والصحراء والغبار. حتى أن أعظم خلفاء العرب (أبو بكر وعمر) لم يشيدوا مكتبة عامة في مكة طيلة فترات حكمهم ! فكيف خرجت جيوشهم لنشر الإسلام في الشعوب المجاورة وهم ليس عندهم مكتبة !



مكتبة الإسكندرية القديمة

وهذا ما يظهر في رسالة عمرو إلى الخليفة من شدة انبهاره وصدمته من حجم الحضارة المعمارية في الإسكندرية.. حضارة لا تقارن بالخيام التي اعتاد النوم فيها في صحراء شبه الجزيرة! وهي ذات الصدمة التي عانى منها العرب عند دخولهم العراق من هول الحضارة هناك وعدم قدرتهم على استيعابها، فهم طالما عاشوا كما ثعالب الصحراء لا صلة لهم بالعمران المدني كما يقول ابن خلدون، ولذلك استحب عمرو العاص أن يبني له مقرا في الإسكندرية وتصبح هي عاصمته ويستقل بمصر وحكمها مدى حياته، لكن الخليفة رفض وأصر أن يكون مركز المعسكر العربي قريبا منه، فكانت الفسطاط، والفسطاط تعني " الخيمة"، وبالطبع الفارق واضح جدا بين حضارة المصريين وخيمة العرب، ولم تكن الفسطاط مدينة سكنية دعوية أو مركزا علميا لنشر الدعوة الإسلامية في مصر بل كانت قاعدة عسكرية يقيم فيها الجيش العربي، واتخذت مقرا للوالي ومقرا لتجميع الضرائب والإتاوات. فكانت الفسطاط هي مقر الخواجات لأن أجدادنا المصريين لم يكونوا يعرفون لغتهم.

وتقول الروايات التاريخية أن عمرو العاص أحرق مكتبة الإسكندرية وقام بتوزيع الكتب على الحمامات العامة بالمدينة لاستخدمها في تسخين المياه، واستمرت خزائن الكتب مصدرا لوقود الحمامات على مدار ستة أشهر.. ثم أنكر المؤرخون بالدليل الدامغ أن يكون عمرو العاص قد فعل ذلك أو أن يكون الخليفة عمر الخطاب قد سمح بذلك.. وقالوا أن مكتبة الإسكندرية كانت قد احترقت قبل ذلك أيام الحرب الرومانية، لكن رسالة عمر الخطاب في الرد على عمرو العاص تؤكد أنه كان هناك مكتبة بالإسكندرية، ربما لم تكن هي مكتبة الإسكندرية العتيقة التي احترقت أيام القيصر، لكن

بالطبع كانت هناك مكتبة عامة في الإسكندرية لأنها كانت العاصمة وبها مقر الكنيسة وهي ديانة كل المصريين في هذا الوقت.

لكن السؤال؛ ليس عن حقيقة إقدام عمرو العاص على حرق المكتبة، بل الأهم هو الإنسانية؛ لأن العلم ليس أهم من الإنسان، فهل يري العرب أن للعلم قيمة تفوق قيمة الإنسان؟ فإذا كان عمرو العاص قد صان آلاف الكتب العلمية بالمكتبة، ففي ذات الوقت أهان مئات الآلاف من المصريين البسطاء والفلاحين اللذين أخذهن سبايا إلى بلاد العرب، وأهان مئات الآلاف من الأطفال والنساء والفتيات التي اغتصبهم العرب أو خطفوهم وقاموا ببيعهم في أسواق النخاسة، وأحرق قلوب آبائهم وإخوانهم حزنا عليهم.. فقد شرع العرب لأنفسهم أحقية اغتصاب وخطف النساء والأطفال بالسبي والنهب والسلب في كل البلاد التي فتحوها، ولا يمكن أن تكون قيمة العلم أولى من قيمة الإنسان ذاته وكرامته وحريته. إنما نحن أسرعنا لإنكار أن يكون عمرو قد نقل الكتب إلى الحمامات لحرقها، وقبلنا أن يكون عمرو قد جرجر الفتيات والسيدات المصريات من شعورهن سبايا للاغتصاب في السعودية ! فالإغارة والدعارة حرفتهم وصنعتهم، ولأننا استسلمنا لهم وتقمصنا عقلياتهم وصرنا هكسوسا مثلهم قبلنا ما قالوه وأقررناه دينا مثلهم !

فمن القرى المصرية التي قاتلت عمرو العاص قرية يقال لها بلهيب وأخري يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس، ولما ظهر عليهم العرب استحلوهم وسبا عمرو أهلها أرسلهم ليباعوا كعبيد فى المدينة المنورة، فردهم عمر بن الخطاب إلى قراهم قائلا: أن تجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث القريات ذمة للمسلمين. وتضرب عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا ففعل ذلك [٥٩] ومات كثير منهم في الرحلة إلى المدينة والعودة من المدينة إلى مصر.

فهل بقي هناك منطق يدعونا لنتساءل هل أحرق عمرو المكتبة أم صانها؟ إذا كان هو قد حصد البشر وخطف النساء والأطفال والبنات وصدرهم لأسواق العبيد في المدينة المنورة، فما القيمة من صيانة مكتبتهم؟ ، وحتى وإن كان عمر الخطاب قد ردهم إلى أهلهم، فهذا دليل يؤكد أن عمرو كان يخطف ويسبي ويرسل لأسواق العبيد في المدينة، وما ردهم عمر إلا لأن المقوقس أخذ عهدا بالأمان (على النفس والمال) من عمرو، لكن عمرو كعادته لا يصون عهود، إنما عمر الخطاب يصون العهود، ومجرد رد عمر

٥٩ ـ كتاب خطط المقريزى ج٨ ص٣٠٩ـ٣١٠

لهؤلاء السبايا يؤكد أن عمرو لا يصون عهوده، فكيف يكون قد نشر الإسلام في مصر رجل لا يصون عهد؟.

فقد كان العرب يفرضون على المصريين في شروط الصلح حق استضافة الخواجات العرب، وبما أن العرب الموجودين في مصر في هذا الوقت كانوا أجانب اتخذوا لهم ثكنات عسكرية متفرقة في الصحارى القريبة من المدن كما الفسطاط، وكان أهالي الفرسان العرب من القبائل يهاجرون إلى مصر بالتتابع بعدما وصلتهم أخبار الخير والعمار في مصر، فتركوا مكة والمدينة وزحفوا قبائل عديدة استقرت في محافظات مصر، وكانوا خلال وصولهم يحتاجون لأماكن إقامة مؤقتة، ففرض عمرو العاص على المصريين حق الاستضافة للعرب لمدة ثلاثة أيام، على أن يكون للعربي حق الأكل والنوم واختيار ما تحلوا له من سبايا البيت ! ومن يرفض من المصريين تقطع رأسه وتسبى نساءه وتصبح ملكا للعربي يغتصب كيفما شاء ووقتما شاء. وهذا ما يؤكد أن العرب دخلوا مصر بصفتهم وملامحهم القومية القرشية العربية الوحشية البربرية وليس بصفتهم صحابة أو ممثلين للإسلام، لأنهم حتى لم يعرفوا المصريين بالدين الإسلامي، ولم يعرفوا لغتهم، عاشوا في مصر أجانب خواجات منعزلين في جزيرة من العنصرية والتعالي على الشعب لدرجة أنهم ظلوا في مصر ١٠٠ سنة كاملة ولم ينتشر الإسلام في مصر سوى بنسبة ٢٪ من الشعب وهذه النسبة فيها القبائل العربية والمقاتلين العرب الذين جاؤوا مصر.

ولذلك فلا قيمة للتساؤل عما إذا كان عمروا العاص قد أحرق المكتبة أم لا، لأنه عدم ما هو أهم من المكتبة والكتب والورق.. وهو القيمة الإنسانية، وهذه من طبيعة العرب عموما، أنهم لا يعرفون قيمة الإنسان، فمن الطبيعي أنهم أيضا لا يعرفون قيمة العلم، ولم تقم في بلادهم حضارة علمية على مدار التاريخ. ويكفي المصريين شرفا أنهم كان عندهم مكتبة بهذا الحجم، تمثل حضارة بمفردها، حتى وإن استخدمها العرب وقودا للحمامات، فهذا شأنهم والإسلام بريء منهم.

والغريب أننا نحن المسلمين أخذنا الإسلام ليس من كتاب الله وإنما من العرب وتبنينا هذا الغبار الثقافي باعتباره الدين الإسلامي، وأطلقنا عليهم مصطلح الصحابة، ومنحناهم مصطلح الفاتحين والمجاهدين الذي جاهدوا في سبيل الله حتى أوصلوا الإسلام إلينا..! وهم بالفعل أوصلوا الإسلام إلينا لكن بالطريقة الخطأ التي تتنافر كليا مع مبادئ الإسلام، والحقيقة أننا تلقينا ثقافتهم (الإسلام مندمجا في سلوكياتهم) .. لدرجة أنه كان لي صديق صحفي مشهور جدا وله صيت عالمي، هذا الصحفي كان يسافر بصورة دورية إلى لندن في مأموريات عمل تقارير صحفية هناك، وكان أول ما ينزل في المطار

يذهب إلى بيوت الدعارة ليقضي فيها استراحة وبعدها يبدأ في مأمورية عمله الصحفي، فقلت له ذات مرة أن الزنا حرام، فقال لي أنه ليس زنا لأن النساء هناك مسيحيات وليسو مسلمين، قلت له يظل زنا، فقال: " لا هم سبايا بالنسبة لنا " ! والحقيقة أن هذا ليس الإسلام وإنما عادات العرب، لكن تاريخهم أصبح دينا لنا.

وفي الواقع لم تكن جرائم الاغتصاب التي مارسها الصحابة العرب تتم تحت هذا المسمى " اغتصاب" لكنهم اتخذوا مسارا آخر في تخريج هذه العملية وتحليلها دينيا، فقالوا وقال الفقهاء خلفهم أنه يحق للفاتحين " وطء السبايا " أي نكاحهم باعتبارهم زوجات أو ملك يمين، وزوروا ودلسوا أحاديث ونسبوها لرسول الله ليقنعوا أنفسهم بأن ما يفعلونه من الإسلام، فكان العربي إذا دخل بلدا يقتل الرجال ويخطف الأطفال لبيعهم في الأسواق، وكذلك النساء والبنات، ويتخذ الجميلات منهن " ملك يمين : أي خادمات يحق له جماعهن جنسيا دون عقد زواج وبمجرد تملكها، والتملك هنا يكون بعد قتل آبائهن أو أزواجهن أو إخوانهن أو خطفهن بأي طريقة، بذلك تصبح الفتاة ملك يمين ويجامعها جنسيا.. وفي الواقع فهذا الوطء وهو عملية اغتصاب واضحة لأنه لم يتزوجها بعقد زواج صحيح ولم تقبل هي الزنا معه، وبالتالي فإذا كان قد جامعها دون رغبتها فذلك يعني اغتصاب. لأن العلاقة بين رجل وامرأة محصورة بين حالات ثلاث هي :(زواج – زنا – اغتصاب) والسبايا ليست زوجة بعقد زواج صحيح، وإنما مخطوفة عنوة، ولم تقبل المعاشرة الجنسية برضاها وبإرادتها وبرغبتها، إذن ليس ذلك زنا وإنما هو الحالة الأخيرة أي اغتصاب، أيا كان المسمى الفقهي الجميل الذي استطاع العرب والفقهاء تخريجه، فكل إنسان منا بإمكانه القياس على أمه أو أخته أو زوجته أو ابنته؛ لأن خير موارد العدل هي القياس على النفس وليس القياس على ما فعله العرب.

أما مسألة انتشار الإسلام في مصر فقد جاءت صدفة على يد الخليفة العباسي المأمون بعد مائتي عام، وكانت صدفة بعيدة كل البعد عن فكرة الجهاد وفكرة الدعوة إلى الله، فقد كانت سياسات عمر الخطاب في الواقع مانعة من انتشار الإسلام، إذ أنه كان مرتكزا على الجانب العسكري والتنظيمي للدولة أكثر، فأنشأ قواعد عسكرية في أنحاء متفرقة من أطراف دولته، خصص معسكرا في كل بلدٍ فتحها، وكانت هذه المعسكرات عبارة عن مدن عسكرية كاملة بها مخازن للسلاح وميادين للتدريب والرماية وأماكن إقامة للجنود والترفيه وكل احتياجاتهم كما كان مخيم الفسطاط في مصر، وكانت تعليماته بعدم خروج الجنود من هذه المدن حتى تظل في حالة تعبئة وجاهزية طول الوقت، ومن القصص النادرة هو تعنيف أمير المؤمنين وعقابه لأحد الجنود العرب القادمين عندما أرسله

عمرو العاص للخليفة بتهمة هروبه من الجيش ولجوئه للفلاحة فى أرض مصر. لكن هذه السياسات منعت اختلاط العرب داخل قلاعهم بالشعوب والمجتمعات حولهم، فهؤلاء الجنود كانوا هم المجاهدين المفروض أنهم من العرب ويعرفون اللغة العربية والإسلام وهم ممن عاصروا النبي وسمعوا منه أو عنه، والمنوط بهم تعريف الشعوب بالدين باعتبارهم الدعاة والمبشرين، لكن هذه السياسة منعت اندماجهم واختلاطهم بهذه الشعوب، وشكلت في الواقع حاجزا مانعا من الاندماج الثقافي في هذه الشعوب، حتى من دخل من العرب والصحابة وعاش حياة مدنية وسط هذه الشعوب لم يتسن له الاندماج فعليا لأنه دخل بصفة محتل أو في حماية محتل وليس رجل مثقف يحمل دينا إنسانيا جميلا، وحتى وإن كان كذلك، فالغطاء العسكري الذي سمح له بدخول هذه البلاد كان حربيا ممقوتا.

وهكذا كان الوضع في مصر واستمر العرب منعزلين عن المجتمع المصري، وكانوا بطبيعتهم متعالين على الناس بأنفة وغرور كما حال سلالاتهم اليوم في السعودية ودول الخليج، ويتعالون على أداء الأعمال اليدوية والصنائع والحرف ويستعبدون غيرهم لأدائها، لا يخرجون إلا لجمع الضرائب والجزية الموسمية أو لوأد الثورات وحركات التمرد.. حتى أنه ذات مرة اختلف عربي مع مصري مسلم من الموالي، فقال له المولى: لا أكثر الله فينا من أمثالك" فرد عليه قائلا: بل أكثر الله فينا من أمثالك"، وهنا بدا لغز عجيب أمام المصري لم يفهمه، كيف يدعو على العربي فيرد العربي بالدعاء له؟ وهذا بالطبع ليس لسذاجة المصري ولكن لاختلاف النسيج العقلي، فالمصري عقليته عملية مباشرة، وإبداعه وبناءه معماري تطبيقي، أما العربي إبداعه أدبي وبناءه لغوي نظري، فلما سئل العربي أيدعو عليك وتدعو له؟ أجاب: يكسحون طرقنا ويصنعون قفالنا ويحوكون ثوبنا" !

ولا زال هذا الغرور والتعالي في الجنس العربي حتى يومنا هذا، فأذكر صديقا حكى لي عن تجربته في السفر إلى إحدى الدول العربية في سبعينات القرن الماضي، وكنت أتحدث معه عن القومية والقوميين بفخرٍ وشموخ، وأن التاريخ العربي شامخ وعظيم، فقال لي نعم، هم فعلا كذلك، فقد كنت ضمن فوجٍ من العمال المصريين سافر للعمل هناك، واضطررنا للنزول ترانزيت، ثم انقطع عنا خط السير لسببٍ ما، ففوجئنا أنه قد تم بيعنا في الطريق ! قلت له كيف؟ قال؛ الكفيل تقابل مع كفيل آخر وعرض عليه الصفقة، بكم تشتري ٥٠ راس ؟ فسأله عن الفصيلة؛ مصريين.. وكأننا في سوق نخاسة ولسنا وافدين للعمل، واتفق الكفيلين التاجرين معا على ثمن الصفقة وعدد الرؤوس وموعد التسليم، وفوجئنا باقتيادنا في

عنبر ثم بعد عدة أيام تحركنا إلى الباص، ثم اكتشفنا أنه ليس كفيل وإنما سمسار يبحث عن كفيل آخر يشتري الصفقة ! فتركنا العمل وعدنا على نفقتنا الخاصة".

كانت عنصرية العربي فجة للغاية لدرجة أن قيل أن جد الإمام الشافعي وهو من أصل غير عربي، حاول مع الخليفة عمر الخطاب أن ينتسب إلى أصل عربي قرشي يصل إلى عبد من عبيد بني العباس، يعني حتى ليس جذرا عربيا شريفا وإنما عبد من عبيد بني العباس، لكن عمر الخطاب رفض، فعاد شافع وحاول مع عثمان عفان، وكانت محاولاته هذه فقط للخروج من وطأة "الموالي" التي عانى منها أغلب الفقهاء لأنهم موالي أعاجم، وكانت وصمة عار في وسط المجتمع العربي، وليس من شأن العلم أن يمحوها، غير أن العلم لم يكن ذا قيمة بالنسبة للعرب ولم يرفع شأن صاحبه على الأصل العربي، حتى أننا نجد في لغتهم الأسماء تبدأ بـ" ابن فلان" مثال : ابن العاص، ابن هشام، ابن عفان، ابن عوف..بن سلمان و آل حمد، و آل ىاسىن، آل الشيخ.. إلخ، وهي جميعها صيغ نسَب عصبية قبلية عرقية، لأن العرب بطبيعتهم يحتفلون بالأنساب، وهذا تمييز للأصل والنسب العربي، وما ذلك إلا من عنصرية العرب التي لا تختلف عن النازية الألمانية، ولذلك العرب لا يفتخرون بإنجازاتهم ولا إنجازات أجدادهم ويفتخرون بالنسب والأصل العربي، وكأن النسب ذاته إنجاز، لأنهم ليسو شعب حضارة وليس لديهم إنجازات تاريخية أو أن فكرة الحضارة والإنجازات الحضارية ليست من أبجديات حياتهم، لدرجة أن الشعب السعودي أخذ جنسيته من اسم حاكمه وليس من وطنه أو قوميته، وأخذت الدولة جنسيتها واسمها من نسب الحاكم آل سعود.. على غرار الدولة الأموية والعباسية، ومن قبل ذلك الإمام الشافعي ورثة متلازمة الخضوع العربي من جده، فشرع أن الخليفة لا بد أن يكون من أصل قرشي، وكأنه يشعر بأن الدين ليس دين الله وإنما دين قريش، ولا بد أن تستمر زعامتها به، والأمر ليس قدحا في الإمام الشافعي إنما إبراز فقط لحالة نفسية مرضية اجتماعية ورثها عن جده، وهي متلازمة ستوكهولم العربية..

وهذه طبيعة العربي على مدار تاريخه، حتى أن سلمان الفارسي رضي الله عنه عندما تقدم لخطبة ابنة عمر ابن الخطاب، ووافق عمر مبدئيا، لكن رفض عبد الله ابنه هذا الزواج لكون سلمان ليس عربي أصيل وإنما من "الموالي" مع أنه صحابي جليل دافع عن المدينة المنورة وجاهد في سبيل الله في غزوة الخندق وأبلى بلاءً حسنا، وكان مقربا من النبي محمد عليه السلام، لكن كل هذا لم يشفع، وهذا ما قد يوضح لنا مدى أثر الجرعات العلاجية على العقلية العربية العنصرية بالفطرة، ولذلك قال النبي " لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى" كان ذلك محاولة لإخماد نوازع العنصرية في نفوس العرب.

أما وهناك نظرية أخرى تفسر سبب ظهور متلازمة "ابن فلان" من طريق آخر في المجتمع العربي دون غيره من شعوب العالم؛ ذلك لأن كثيرين جدا من زعماء العرب لم يكن لهم أب شرعي وإنما كانوا نتاج البغاء والزنا والدعارة، وتم ابتكار أسماء لهم أو نسبهم لأشخاص ذوى رمزية معينة في المجتمع العربي ، فأصبح ذلك مصدرا للفخر عند هؤلاء نتاج البغاء والزنا الذين عاشوا أنصاف أعمارهم يبحثون عن آباء لهم.. وفي الغالب كان ذلك يحدث فقط من أجل استمالة مصالح سياسية أو زعامة حتى أنهم عجزوا في بعض الأحيان عجزوا عن إنساب شخص من نتاج حظيرة الدعارة، فلم يعثروا له على أب أو داعر يمكن نسبه إليه، ولأنه كان ذا ضرورة سياسية فاخترعوا لأبيه اسما دون أن يكون اسم، فأطلقوا عليه "زياد ابن أبيه" ! ولذلك كان من حق الشرفاء مثل عمر ابن الخطاب وعلي ابن أبي طالب وأبي بكر ابن أبي قحافة أن يحتفظ باسمه كاملا متوجا بمتلازمة " ابن " لتأكيد شرعية بنوته لأبيه والافتخار بشرف أصله في هذه الغابة المليئة باللواقط.

ففي مقال كتبه الأستاذ الأديب أسامة أنور عكاشة بعنوان " أولاد القحبة الذين حكموا البلاد الإسلامية حينا من الدهر" مقال هز مصر كلها، كتبة الأديب أسامة أنور عكاشة استنادا إلى مصادر ومراجع معتبرة في التاريخ والسير. قال فيه: هؤلاء هم الرجال الذين أسسوا الدولة الإسلامية[٦٠] .. اشتهر الزنا عند العرب في الجاهلية والإسلام على حد سواء ، يروى أن قبيلة لما أرادت الإسلام سألوا الرسول الأعظم(ص) أن يحل لهم الزنا لأنهم يعيشون على ما تكسبه نسائهم .. وليس من الصدفة أن يبدأ الصراع في الجاهلية بين أولوا الشرف من العرب كبني هاشم ومخزوم وزهرة وغيرهم وبين من اشتهر بالعهر والزنا مثل بني عبد شمس وسلول وهذيل والذي امتد هذا الصراع إلى ما بعد دخول كل العرب الإسلام. ولم

[٦٠] ـ من مقال الأديب أسامة أنور عكاشة نقلا عن المستشار أحمد عبده ماهر – مع التصرف.. ونحن نعتبر تسمية الدولة بأنها " دولة إسلامية" هذا خطأ من الكاتب لأن أفعال العرب تنسب لهم وليس للدين، ودولة العرب تمثل قوميتهم ولا تمثل الدين في شيء، إنما كانت المشكلة أن العرب نسبوا دولتهم للدين، فجاء نقاد التاريخ ولم يستطيعوا تخليص الدين من الدولة فانتقدوا تاريخ العرب بمسمى تاريخ الإسلام.. ولهذا فلا غرابة أن نرى الدماء تلون كل أوراق التاريخ المسمى ظلما بأنه إسلامي... ولا غرابة أن يؤدي هذا المقال إلى اهتزاز المجتمع المصري لدرجة أصدر فيها الأزهر بيان بتكفير الكاتب الذي رد عليهم بأهمية التحاور وقبول الآراء والرجوع للدلائل، لكن الأزهر أصدر خطاب بحرمة زوجته علية أي باعتبار زوجته طالق منه في محاولة للضغط عليه للعدول عن رأيه والاعتذار، لكنه أصر وقدم دلائل في منهجه (وموقف الأزهر هنا هو ما يدفعنا إلى التمسك بوصفه أنه مؤسسة أجنبية تمثل العرب في مصر وتدافع عنهم وتتبنى تاريخهم وتحبذ سيادتهم على مصر واحتلالهم لها، وفي دفاعها عن العرب وشخصياتهم التاريخية تستخدم الدين وتصدر أحكاما دينية على الكاتب لمجرد أنه طرح رأيا في التاريخ، وهذا ما يؤكد أيضا أن تاريخ العرب أصبح دينا للشعوب).. وعموما مواضيع كهذه قد تثير حساسية لدى البعض لكن من الجيد أن نطلع عليها بموضوعية وكتب التأريخ أمامنا لو أحببنا النظر بإنصاف والتأكد مما قاله الكاتب.

تكن من قبيل الصدفة أن نجد أغلب من التحق بالركب الأموي كانوا ممن لهم سوابق بالزنا والبغاء، فهذه المهن تورث الكراهية والحقد لكل من يتحلى بالعفة والطهارة، إضافة الى أنها لا تبقي للحياء سبيل وهي تذهب العفة وتفتح طريق الغدر والإثم.. لنرى بعض ما أنجب البغاء؛

١ـ أمة بنت علقمة بن صفوان أم مروان بن الحكم جدة عبد الملك بن مروان وكانت تمارس البغاء سرا مع أبي سفيان بن الحارث بن كلدة. وهذا مروان هو الذي أتوا به بعد ولادته الى رسول الله (ص) فقال الرسول " أبعدوه عني هذا الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون " وهذا الذي يلعنه الرسول يصبح هو الخليفة وأميرا للمؤمنين !!!..

٢ـ النابغة سلمى بنت حرملة وقد اشتهرت بالبغاء العلني ومن ذوات الأعلام وهي أم عمرو بن العاص بن وائل كانت أمة لعبد الله بن جدعان فاعتقها، فوقع عليها في يوم واحد (أبو لهب بن عبد المطلب وأمية بن خلف وهشام بن المغيرة المخزومي وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل السهمي)، فولدت عمرو، فادعاه كلهم لكنها ألحقته بالعاص بن وائل لأنه كان ينفق عليها كثيرا، فأصبح عمرو ابن العاص .

٣ـ سمية بنت المعطل النوبية وهي من البغايا ذوات الأعلام وكانت أمة للحارث بن كلدة وتنسب أولادها ومنهم زياد مرة لزوجها عبيد بن أبي سرح الثقفي فيقال زياد بن عبيد ومرة يقال زياد ابن سمية ومرة زياد ابن أبيه، حتى استلحقه معاوية بأن أحضر شهود على أن أبو سفيان قد واقع سمية وهي تحت عبيد بن أبي سرح، وبعد تسعة أشهر ولدت صبيا أسموه زياد. ولم يستلحقه معاوية حبا وكرامة، ولكن لأن زياد بن أبيه كان عامل علي أبي طالب على فارس والأهواز فأراد استمالته .

٤ـ مرجانة بنت نوف وهي أمة لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، كان يصلها سفاحا العديد من الرجال من بينهم زياد ابن أبيه، فباعها عبد الرحمن وهي حامل من الزنا، فولدت عبدين هما عباد وعبيد الله ابنا مرجانة لا يعرف لهما أب، فاستدعاهما زياد واستلحقهما به. فكان عباد والي سجستان زمن معاوية وعبيد الله بن زياد واليا على البصرة، حيث يبدو أن أمة العرب قد خلت من الأشراف لتنصيبهم في هكذا مناصب، فلم يبق إلا أولاد الزنا واللقطاء، ولكن الطيور على أشكالها تقع فرجل كمعاوية لا يمكنه استعمال رجل ذو فضيلة... وبعد أن كان عبيد الله ابن زياد واليا على البصرة زمن معاوية ولاه يزيد الكوفة حيث قاتل الإمام الحسين حفيد نبي الأمة، حيث خاطبه الإمام بالدعي ابن الدعي.. وقيل

للحسن البصري: يا أبا سعيد قتل الحسين بن علي، فبكى ثم قال (وا ذلاه لأمة قتل ابن دعيها ابن بنت نبيها ..)

٥ـ قطام بنت شحنة التيمية وقد اشتهرت بالبغاء العلني في الكوفة، وكانت لها قوادة عجوز اسمها لبابة هي الواسطة بينها وبين الزبائن، كان أباها شحنة بن عدي وأخاها حنظلة بن شحنة من الخوارج وقد قتلا معا في معركة النهروان، فأصبحت والغل يأكل قلبها لهذا طلبت من عبد الرحمن ابن ملجم عندما جاء لخطبتها أن يضمن لها قتل سيدنا علي (ر) ويصدقها بثلاثة آلاف درهم وغلام وجارية، (مهرا لها) فلم يشف غليل هذه الزانية مقتل الإمام علي بعدما سمعت بمقتل ابن ملجم أيضا، لهذا بعثت إلى مصر من وشى على جماعة من العلويين هنا عند الوالي عمرو العاص ابن البغي سلمى بنت حرملة.

٦ـ نضلة بنت أسماء الكلبية وهي زوجة ربيعة بن عبد شمس وهي أم عتبة وشيبة الذين قتلا يوم بدر. يذكر الأصفهاني في كتابه الأغاني أن أمية بن عبد شمس جاء ذات ليلة إلى دار أخيه ربيعة فلم يجده فاختلى بزوجة أخيه وواقعها. فحبلت منه بعتبة . ويروى أن أمية هذا ذهب إلى الشام وزنى هناك بأمة يهودية فولدت له ولدا سماه ذكوان ولقبه أبو عمرو، وجاء به إلى مكة داعيا أنه مولى له حتى إذا كبر اعتقه واستلحقه، ثم زوجه امرأته الصهباء، قال ابن أبي الحديد أن أمية فعل في حياته ما لم يفعله أحد من العرب، زوّج ابنه أبو عمرو من امرأته في حياته فولدت له أبا معيط وهو جد الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي ولاه عثمان الكوفة حيث كان يأخذه النوم بعد أن يقضي ليلته في شرب الخمر ولا يصحو على صلاة الفجر.. هكذا كانوا ولاة أمور المسلمين !!!!

٧ـ هند بنت عتبة وقد اشتهرت بالبغاء السري في الجاهلية هي زوجة أبي سفيان، وابنها معاوية يعزى إلى أربعة نفر غير أبي سفيان، مسافر بن أبي عمرو بن أمية، عمارة بن الوليد بن المغيرة، العباس بن عبد المطلب، والصباح مولى مغن لعمارة بن الوليد . و يروى أن سيدنا علي (ر) قال في كتابه ردا على معاوية (.. وأما قولك :(نحن بني عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض) ...فكذلك نحن .. لكن ليس المهاجر كالطليق ولا الصريح كاللصيق..). وهي إشارة واضحة بإلصاق أصول معاوية بعبد مناف .

بينما المصريين كانوا حريصين جدا ومنضبطين جدا في أمور الزواج والعلاقات الأسرية، فها هو الحكيم "حتب بتاح" يكشف لنا عن التفاصيل الدقيقة في التعامل اليومي بين الزوجين، ويحذر ابنه من

اتخاذ ضرة لزوجته في بيتها؛ فيقول: إذا أصبحت كفئا، كون أسرتك، وأحبب زوجتك، عاملها بما تستحق، أشبع جوفها، واستر ظهرها، وعطر بشرتها بالدهن العطر؛ فالدهن ترياق لبدنها، وأسعدها ما حييت، فالمرأة حقل نافع لولي أمرها، ولا تتهمها عن سوء ظن، وامتدحها تخبت شرها، فإن نفرت راقبها، واستمل قلبها بعطاياك، تستقر في دارك، وسوف يكيدها أن تعاشر ضرة في دارها !

أما الحكيم آني فيحث ابنه على حسن التعامل مع زوجته ومساعدتها، وأن يحرص على استقرار البيت، فيقول له: عامل زوجتك برعاية، إن كنت تعرف عنها أنها ممتازة، ولا تقل لها: أين هذا؟ وهاته، إن كنت قد وضعته في مكانه الصحيح. وإن شئت أن تسعد، فاجعل يدك معها وعاونها، حاول أن تمنع أسباب الشقاق في دارك، ولا تعمل على خلقه، واعمل على الاستقرار في دارك، ولكن احذر أن تمشي في طاعة أنثى، أو تسمح لها بأن تسيطر على رأيك.

أما الخيانة الزوجية والتحذير منها، فقد قال عنخ شاشنقي كلمات توزن بماء الذهب؛ إذ يقول: من نكح زوجة على سرير، نكحت زوجته على الطين، ومن نكح امرأة جاره، نكحت زوجته على عتبة داره، وإنما تفجر المرأة برضا زوجها! أي "كما تدين تدان" .... وفي حالة إذا دعت الضرورة للانفصال، فقد أوصى القدماء بأن يُسرحها بمعروف؛ فها هو الحكيم حتب بتاح يقول: إذا رُزئت بزوجة رعناء ومُسيئة لمواطنيها، ترفق بها أمدا، ولا تعجل بتسريحها، ودعها تطعم خبزك! ... وعن التعامل مع المرأة التي لا تنجب، فيقول: لا تهجر امرأة في دارك لأنها عقيم؛ إنما تنكح الزوجة برغبة زوجها[٦١].

وهذا ما قد يفسر سبب الكره الشديد الذي يحمله العرب تجاه حضارتنا ومحاولاتهم الدائمة لطمسها واتهامها بالكفر ... وهو ما يفسر لنا أيضا سبب تمسك العرب دون غيرهم من الشعوب بالأنساب والأصول والأسماء والألقاب ومتلازمة "ابن فلان" قرينة باسم كلٍ منهم لتمييز نسبه وأصله عمن لا نسب

[٦١] ـ من مقال للدكتور حسين دقيل، منشور على موقع ساسة بوست، بعنوان " من أخلاق المصريين القدماء ج(٤) آداب الزواج " 12مايو، ٢٠١٨ – نقلاً عن مصادره من وصايا وتعاليم الحكيم «كاجمني» موجودة في «بردية بريس» المحفوظة بمتحف اللوفر بباريس وترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، وبردية بريس تُعتبر من أشهر البرديات الطبية، وقد عُثر عليها في الأقصر سنة ١٨٦٢، حيث اشتراها جورج أبريس – الذي قام بنشرها – من أدوين سميث، ويبلغ طولها ٢٠,٣ متراً وعرضها ٠,٣ متراً، وتحتوى ١٠٨ عمود، وكانت تحتوى على ٨٨٧ وصفة طبية لأنواع متعددة من الأمراض وأعراضها، ومن بينها وصفات لأمراض الجلد والتجميل والزينة وإنماء الشعر.

على رابط : https://www.sasapost.com/opinion/ancient-egyptians-4/

ولا أصل له، فقد تدخلت عوامل كثيرة شكلت نسيجا غير شرعيا للمجتمع العربي مثل (الخدن ـ المرافقة أو زنا المرأة المشروط بعدم الإفصاح ـ ووطء العبيد وأبناء العبيد ووطء الإماء وأبناء والإماء السبايا وأنباء السبايا والزنا والبغاء والسفاح وحفلات الجنس الجماعي والدعارة كنشاط رئيس عند العرب) وكل هؤلاء وأبناءهم لا نسب لهم، والحر الشريف المولود من أبٍ شرعي سينفر من هذا الوضع المقزز الذي تداخل في كثير من الأنساب، ولهذا كان العرب حريصين جدا على حفظ أنسابهم، فالحاجة أم الاختراع... وبعدما دخل العرب مصر لنشر الإسلام كما قالوا، كان المجتمع المصري متماسكا جدا من الناحية الاجتماعية والأسرية، فلم يكن المصريين يعرفون الدعارة ولا البغاء ولا هذه المفاسد الأخلاقية، ولذلك لم تشع في مصر فكرة الاحتفال بالأنساب أو الافتخار بكلمة "ابن فلان " أو غير ذلك، لأن الدعارة واختلاط الأنساب ليس له وجود في مصر من الأساس. بل كان المجتمع المصري مترابطا وظلت الأسرة ذاتها مترابطة حتى مع دخول الإسلام مصر واعتناق بعض أفراد الأسرة له دون البعض الآخر، ظلت الأسرة المصرية متماسكة لأن الروابط الأسرية وصلة الرحم قويمة جدا في مصر، فالمجتمع المصري ودودٌ بطبعه يحب الألفة والتآلف وتبادل المجاملات في المناسبات وبغير مناسبات، وتهاون في الأعمال الحلقية والزراعة والحصاد وترابط بين الأقارب والأسر والأصدقاء من الأهالي...

وبرغم أن النبي محمد عليه السلام عند وصوله المدينة أطلق أول مشروعاته في ميدان السلام الاجتماعي فوحد القبائل العربية المسيحية واليهودية ووأد تماما ظاهرة الثأر بينهم والتي كانت مستعصية لزمنٍ بعيد، وكان عنوانا للسلام وغرس بذور الحب والود والتآلف بينهم حينما اجتذبهم للتوقيع على المعاهدة النبوية.. وقد ارتضوا العيش في سلام، وتنازلوا عن خيوط الثأر المترسبة بينهم... لكن العرب ما كان لهم أن يفعلوا ذلك عند دخولهم مصر.. بل فعلوا العكس تماما.

فقد بدأ العرب صراعاتهم المسلحة مع (جميع) الشعوب المجاورة لهم في وقت واحد ودون استثناء وفي كل اتجاه، وليس ذلك بشأن العلاقات الخارجية فقط، بل أن حجم الفرقة والفتن والخلافات بين الصحابة والعصبية والصراع هو ذاته فرضوه على الشعوب التي احتلوا أوطانها.. فبدأ انقسام نسيج المجتمع المصري على يد العرب إلى مسلمين يتبنون ثقافة العربي في محاولة للتخلص من جبروت العرب، ومسيحيين متمسكين بدينهم رافضين لجبروت العرب، ونتيجة الختم زادت الفرقة بين نسيج الأسرة الواحدة، أصبح الابن المسلم يتقرب إلى العربي لإدراك مصالحه أو لإدراك الأمن والأمان والأب المسيحي ينفر منهم بسبب الختم، ولم يكن هناك فرق بالنسبة للعربي بينهم غير أن المختوم على قفاه يدفع الجزية والخراج ويمول الخزانة العربية وغير المختوم لا يدفع إلا الخراج، ثم بعدما وقع عجز في ميزانية الدولة العباسية عادت

الجزية على الموالي "المسلمين المصريين" لكن عمر عبد العزيز ألغاها مرة أخرى، وأما بالنسبة للتجار، فكان تجار الموالي يدفعون جمارك بنسبة ٢,٥٪ أما التجار المسيحيين فيدفعون ٥٪، ولما جاء عمر عبد العزيز ألغاها وقال إنها نجس.

ومن هنا كانت تنشأ التفرقة بين مسلم ومسيحي لأن نسيج الأسرة المصرية الفرعونية كان مترابطا بطبيعة الوضع قبل دخول العرب والجميع ينفر من سلوكيات وتصرفات العرب في مصر. وفي الواقع كان العربي يعامل المصريين جميعا مثل العبيد كما يعاملونهم اليوم حتى في الحج والعمرة والمرور على الجوازات نجد عنصرية العربي ظاهرة وطافحة في وجهه يملأه الغرور والصلف والتعالي على خلق الله.. هذه جينات وراثية موصولة إلى قريش حتى عصر الجاهلية الأولى.. ولم يكن مسموحا لهؤلاء "الموالي" أن يتزوجوا بامرأة من أصل عربي حتى وإن كانت من أحط القبائل العربية في مصر، يقوم الوالي بتطليقها من الشاب المصري ويعاقبه بالجلد على التجرؤ على الأصل العربي.. وذات الأوضاع والتفرقة العنصرية نجدها عند العراقيين أيضا، فقد مارس العرب في بلاد فارس والعراق ذات السياسة النجسة منذ عهد الفتح وشرعوا في ختم الناس على قفاهم لتمييز الموالي عن الذميين في كل البلاد التي احتلوها وليس في إيجبت وحدها.

وفي هذا الوقت كان المصريين أغلبهم مسيحيين، وبعضهم اعتنق الإسلام، وكانوا إخوة، أي قد تجد أب مسيحي وابن مسلم أو أم مسلمة وابن مسيحي في منزل واحد دون أي خلافات بينهم. وهكذا في بداية تعرف المصريين على الإسلام، لكن خليفة العرب عمر الخطاب كان قد بدأ سياسة طائفية عنصرية في مصر، حيث أمر واليه على مصر عمرو العاص أن يختم المصريين المسيحيين بخاتم من الرصاص لحصر السكان وتسهيل تحصيل الجزية والخراج، فلم يكن العرب يتعاملون كما النبي بإنسانية، لكنهم كان من طبيعتهم النفسية أن يتلذذوا بإذلال غيرهم، ولم يدركوا أن هذا نقص لأن كريم الأصل لا يتلذذ بإهانة الآخرين، ولم تكن هذه من أخلاق النبي محمد، وإنما من الخصائص النفسية للمجتمع العربي، ومن هنا جاءت العبارة الساخرة على لسان المصريين (أنت فاكرني مختوم على قفايا؟) لأن عمرو العاص ختم المسيحيين على القفا بخاتم يحمل رسم أسد أي إشارة إلى الأسد العربي القرشي الذي ركب على قفا المصريين. !!

وتم ختم جميع المصريين وكان عددهم ٦ مليون ما عدا الموالي (المصريين الذين أسلموا وكانوا ٢٪ من الشعب هم من أعلنوا الولاء للعرب واستبدلوا اصطلاح الاحتلال العربي بالفتح كما كان يسميه العرب).

ولم يكن الأمر نشرا للإسلام تماما ولم يحمل أخلاق الإسلام ولا قيمه ولكن حمل سمات وخصائص المجتمع العربي الصحراوي، ومن هنا تفسخ نسيج المجتمع المصري وأصبح داخل الأسرة الواحدة تجد مصريين مختومين على قفاهم واسمهم "الذميين " أو أهل الذمة، ومصريين رفضوا الختم ودخلوا الإسلام وأصبح اسمهم " الموالي " أي مسلمين غير عرب، كانوا يعتقدون أنه بمجرد إسلامهم سيصبحون مثل العربي سواءً بسواء لأن النبي عليه السلام قال" الناس سواسية كأسنان المشط"، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، لكنهم اكتشفوا أن صفة "مسلم" غير كافية، وينقصهم الأصل العربي القرشي، وهم ليسو من أصل عربي، واكتشفوا أن الموالي مثل المسيحيين، كلهم في النهاية مصريين. وبالمناسبة، عدل عمر الفاروق كان في نطاق القومية العربية فقط، ولم يطل هذا العدل الشعوب الأخرى غير العربية.

وبالنظر إلى أن التكوين الإنساني يقوم على دعامتين رئيستين أو مكونين أصليين؛ هما الوارثة الجينية والثقافة؛ فكل شعب لديه ثقافة دينية واجتماعية وتاريخية وعلمية، ولديه ترابط في النسيج الذهني المتوارث، وهذان العنصران هما ما يشكل الشعب أو القومية، ونحن في مصر شعب له ذات الترابط وذات القومية، حتى وإن تنوعت الثقافة الدينية بين المسيحية والإسلام، فتبقى جميع الروابط متحدة (الأجداد الفراعنة واللغة والتاريخ والعادات والأعراف والشراكة في ملكية الأرض والوطن والنسيج الاجتماعي أي المادة الوراثية الأصل)، فلوا عدنا لخمسة قرون مضت للبحث في أصول شخصين مصريين أحدهما مسلم والآخر مسيحي، سنجد أن أصولهما الوراثية مشتركة، وأنهما يعودان لأبٍ واحد وأم واحدة ومادة وراثية مصرية فرعونية حتى النخاع، ولهما ثقافة اجتماعية واحدة، وسلوك إنساني واحد نتيجة اشتراك ذات المادة الوراثية التي تنتقل جينيا بين الأجيال وتتفرع وتستنسخ بين الأقارب والأنساب. ولو عدنا لذات الفترة. للبحث بشأن هذا الجذر الوراثي (الأب والأم المصريين الذين أنتجا أجيالا مصرية مسلمين ومسيحيين)، بالمقارنة مع جذر آخر سعودي، سنجد اختلافا وفرقا شاسعا في قواعدهما الوراثية والاجتماعية بينهما وبين أسرة من المجتمع العربي السعودي مثلا، فكلا الشعبين له قواعد جينية متوارثة مختلفة جذريا عن الآخر، وله وطن مختلف وله سلوكيات وأعراف وتقاليد متوارثة وله تاريخ مختلف، فالسعوديون يفتخرون بأصولهم وأجدادهم من قريش، والمصريون يفتخرون بأصولهم وأجدادهم الفراعنة، وهذه المادة الوراثية هي ما ينتج أفكارنا ويشكل تصرفاتنا وسلوكياتنا بالتفاعل مع المادة الثقافية والمعرفية والعلمية الموجودة في كل بيئة، ومهما اتفق أجيال هذا الأب المصري مع أجيال الأب السعودي في جانب الثقافة الدينية (الدين الإسلامي) تبقى عناصر الاتفاق مع الأخ المصري المسيحي أقوي من السعودي، ليس بسبب ضعف في جانب الثقافة الدينية التي تربط الأخ المصري المسلم بالأخر المسلم

السعودي، ولكن لأن علاقة المصري المسلم بالسعودي المسلم تنحصر في عنصر واحد فقط ثقافي، بينما علاقة المصري المسلم بالمصري المسيحي تستقل بباقي عناصر القومية جميعا شئنا أم أبينا، بسبب رابطة الدم والوطن، وأخصها الروابط الوراثية والنسيج الذهني المتحد والشراكة في ملكية أرض الوطن، والشراكة في ملكية التاريخ والحضارة الفرعونية.

وقد اصطدم العرب بهذه الحقيقة عند دخولهم مصر، خاصة في عهد معاوية أبي سفيان، وجدوا أن هناك روابط وراثية ولحمة اجتماعية تربط الناس ببعضها، ففكروا تلقائيا في تفتيت هذه القومية بتفكيك عناصرها أولا بتفرقة (الموالي عن الأقباط بالختم. ثم تفتيت فكرة المواطنة، بجعل حقوق والتزامات المواطن في الدولة حسب ديانته، فالمسلم تكون حقوقه أكثر من المسيحي والتزاماته من الضرائب والجزية أقل من المسيحي وهكذا لأن هذه الأمور كانت متساوية قبل دخول العرب) فاتبعوا سياسة " فرق تسد"، وبما أنهم لا تربطهم بالشعوب التي احتلوها أي روابط سوى رابطة ثقافية هي الدين فقط ورغبة سياسية هي الحكم، بينما تربط أبناء هذه الشعوب روابط متعددة وأقوى وأكثر متانة، فحاول العرب أن يجعلوا هذه الرابطة الثقافية أقوى من الروابط الوراثية وصنعوا قطيعة داخل الأسرة المصرية الواحدة، حينما احتلوا الشعوب المجاورة لهم حاولوا أن يجعلوا الولاء لهم للقومية العربية، وللنداء السياسي العربي على نزعة القومية الأصلية، فغلبوا الرابطة الثقافية على الروابط الوراثية التي هي صلة الرحم والدم بين الآباء والأبناء والأخوات والزوجات، لأن ما يربط الابن المسلم بالأب المسيحي هو رابطة وراثية متينة جدا، أما ما يربط هذا الابن المسلم بالعرب فهو رابطة ثقافية فقط، ولهذا في محاولة منهم لكسب الولاء السياسي قاموا بتغليب الروابط الثقافية على الروابط الوراثية التي شكلت عقبة أمامهم لأنها أصل وجذر متين في كل مجتمع، فقرروا مبدأ "لا توارث مع اختلاف الأديان" كي يتمكنوا من التفرقة بين أفراد المجتمع، وهذا شعار سياسي في المقام الأول، لكنهم أعطوه غطاءه الديني باعتباره حديث نبوي شريف!

وهذا ما لم يقل به الله؛ لأن الميراث مبني على صلة الرحم والقرابة الإنسانية وليس على صلة الثقافة، أي أن اتحاد الدين ليس سببا من أسباب كسب الميراث، فكيف يكون اختلاف الدين سببا مانعا من الميراث؟، بينما صلة القرابة هي السبب الوحيد لكسب الميراث، فكيف منعوا الابن المسلم من ميراث والده المسيحي؟ وكيف منعوا الابن المسيحي من ميراث والده اليهودي؟ ولماذا.. فهل هناك خوف من أن تؤثر صلة الرحم بين الأب والابن على الدين؟ فلماذا اشترط الله الإحسان إلى الوالدين والبر بهما؟ أليست عبادة الله

أدعى للخوف على دين الابن وأوفر حظا لإقرار القطيعة؟.. فليس هناك خوف من دين الأب (المتوفى) على دين الابن الوارث، ولكن الخوف عند العرب هو استمرار الوحدة الثقافية والروابط الأسرية والقومية لهذه الشعوب التي احتلوها، وليجعلوا الانتماء والولاء حصرا للرابطة الثقافية الدينية التي تستمد جذورها من العرب ومن هنا يتمكنوا من إخضاع الشعوب والسيطرة عليها، ولهذا عجلوا بتفكيك الروابط الأسرية وجعل الانتماء للعرب من خلال تحدثهم باسم الدين وإعلاء صيحة الدين، فألبسوا الدين هوية عربية سياسية ليستطيعوا التغلب على الشعوب.. وكل ذلك كان في سبيل وأد الثورات وحركات التمرد التي كانت تقوم في هذه الشعوب باتحاد (المسلمين الموالي والمسيحيين) ضد العرب بسبب زيادة الخراج والجزية، وعمليات النهب الاستعماري والاستنزاف الاقتصادي الذي مارسه العرب في مصر خاصة في عهد عبدالله سعد القرشي... فالعرب غلبوا هويتهم على المبادئ الدينية الأصلية، جعلوا هويتهم هوية للدين، فهم شعب بطبيعته معروف بالمكر والدهاء ويستقلون عن كافة الشعوب بظاهرة " النفاق الديني"، وهذه الظاهرة غير موجودة في المجتمع المصري سواء المسلمين أو المسيحيين.

فالقرآن هو كلام الله المنزل من السماء ((ولا يخدم طموحاتهم التوسعية الاستعمارية، ولم يتمكنوا من تحريفه، فحرفوا تفسيره ودعموا نظامهم السياسي بمرويات مزورة لخدمة مشروعهم الاستعماري))، وليس وحدهم، فهذه السياسة تعتمدها جميع القوى الاستعمارية وعلى مدار التاريخ، وكما يقول الدكتور عاصم الدسوقي، أستاذ التاريخ، «في عام ١٩٢٢ أثناء تشكيل الدستور المصري اتصل الإنجليز مع بعض السياسيين الأقباط سلامة موسى، وويصا واصف، ومكرم عبيد، وطالبوهم بضرورة تقسيم الوظائف في مصر على أساس ديني، بحيث تكون نسبة تولي الأقباط للوظائف واحد على اثني عشر ـأي مقابل كل موظف قبطي ١٢ موظفا مسلما، فاعترض السياسيين الأقباط، واعتبروا أن تطبيق هذه النسبة سيساهم في إشعال الفتنة الطائفية في مصر. غير أن هذا المصطلح حاول الاحتلال الانجليزي أن يخلقه في مصر في مطلع القرن الماضي، كما فعل في احتلاله للهند بالوقيعة بين الهندوس والمسيحيين لكن المصريين لم يرضخوا لهذه المحاولات.«. فالمستعمر من المستحيل أن يعتمد كليا على السلاح العسكري في قمع الشعوب ووأد الثورات وحركات التمرد، لأن ذلك سيكوون مكلفا جدا، وما أسهل أن يلجأ إلى الحرب المعنوية لتفتيت القوى قبل ضربها..

ولعل عقد الشراكة بين شخصين من أبناء المحافظة في عام ١٩٢٣ دليل على قوة علاقات المصريين البينية، هذا العقد بموجبه اتفق اثنين من أبناء مدينة سمالوط على التشارك في «جاموسة»، طرفي

العقد كانا الفلاح القبطي قرياقوس تواضروس، والمسلم محمد محسب، وتضمن شروط تلزم الطرفين بدفع تكاليف مأكلها ومشربها مناصفة، فضلا عن الاتفاق على تقاسم الربح سواء «لبن الجاموسة»، أو حصول كل طرف على نصف الثمن إذا قررا بيعها.. وفي الواقع كانت مثل هذه العلاقات هي حجر العثرة أمام المستعمر العربي والأوروبي، ولهذا لجأ الأول كما لجأ الثاني إلى تفتيت خلايا المجتمع في سبيل السيطرة عليه.

فالقرآن يأمرنا بالسلام على أهل الكتاب ومرويات العرب تمنعه؛ لأن القرآن كلام الله المنزل هدى ورحمة للعاملين، بينما المرويات فهي نتاج وعصارة القومية العربية الزائدة الملوحة، ونحن تركنا المنبع الأصل وتمسكنا بعصارة القومية العربية، فصرنا نقرأ في القرآن الكريم «وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا» [٠٤ النساء٨٦]، «وقولوا لِلنَّاسِ حُسْنًا» [البقرة٨٣]، «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» [العنكبوت٤٦]، ونترك ذلك لنقرأ في مرويات العرب: «لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»، فى تغيير وتحريف واضح لنصوص القرآن عن غير مرادها لصالح العرب، فقد كانوا يحاولون تسييد مبدأ " فرق تسد " في الشعوب التي احتلوها لإحكام السيطرة عليها ووأد الثورات وحركات التمرد والتنسيق الجماعي ضدهم، ومن هنا لجأوا إلى تفتيت قوميات هذه الشعوب وبث الفرقة بينها وتحطيم اللحمة الإنسانية الوطنية العميقة بين مختلفي الأديان ليبق العرب المسلمون و " الموالي " عصبة واحدة ضد الشعوب التي قمعوها فيتمكنوا من استمرار قمعها. وبهذا تمكن العرب من استقطاب الموالي المسلمين في صفهم وعزل غير المسلمين لكسر الشوكة الوطنية، فقد حاول العرب استخدام أدوات دينية لقمع الشعوب، واستخدموا الدين لخدمة أهدافهم ومصالحهم التوسعية الاستعمارية، وإن اضطرهم ذلك لتحريف الدين نفسه، فالغاية لديهم تبرر الوسيلة.

وفي محاولات متكررة من العرب لتوطيد أركان حكمهم فرضوا على الشعوب الطاعة العمياء، وأقنعوهم بأنها دين ومن يخالف هذا الدين تضرب عنقه، ومن أمثلة ذلك نجد في تراثهم الديني: عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَـهْتَدُونَ بِـهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُـثْمَـانِ إِنْسٍ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّه إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟، قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ؛ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ. (مسلم١٨٤٧).. ذلك لأن العرب حرفتهم نهب الأموال كما يقول ابن خلدون، ولذلك صنعوا من الدين أدوات تمكنهم من النهب، ولم يصنعوا أدوات مماثلة تمكن المواطن الضعيف من استيفاء حقه من هذا الأمير

الظالم الناهب.. بينما نجد أجدادنا المصريين القدماء قد أرسوا مبادئ العدالة في بردياتهم ووثقوها بروابط متينة أقوى من مرويات البخاري، فنجد الحكيم " أمون أم أوبى " ينصح ابنه بأن يكون سلوكه طيب، فيقول: في كل مشاجرة ومشادة مع أعدائك لا تضع ثقتك فى نفسك، بل اترك نفسك بين ذراعي الرب فصمتك سيسقط أعدائك". بل ينصحه بأن يتصرف بحلم – ربما نراه غير مقبول في عصرنا – حتى مع رئيسه الغاضب؛ فيقول: عليك أن تنحني أمام الرئيس السريع الغضب حتى ولو أهانك فإنه سيصلح الأمر في اليوم التالي "

وفي المقابل نجد الملك المصري خيتي – أحد ملوك الأسرة العاشرة – ينصح ابنه "مري كا رع" بالرشد في حكم الشعب فيقول: " تحدث في لطف؛ لأن الكلام أقوى من العراك "، كما يُحثه على التعامل بهدوء وتأني مع الرعية وأن لا يقسوا عليهم، ويحذره من معاقبتهم بقسوة، فيقول: لا تقتل فإن ذلك لن يكون ذا فائدة لك بل عاقب بالضرب والحبس فإن ذلك يُقيم دعائم هذه البلاد، إلا من يثور عليك وتتضح لك مقاصده فإن الرب يعلم خائنة القلب، والرب هو الذي يعاقب أخطاءه بدمه، لا تقتل رجلا إذا كنت تعرف مزاياه "[٦٢]

بينما العرب عندما دخلوا مصر كانوا يقتلون بعضهم بعضا بكل خسة، فقد مارس العرب هذه السياسة بحق الشعوب المقهورة، وأقنعوهم أنها دين، برغم أنها ما كانت إلا وسيلة قمع سياسي تعادل جحافل الأمن المركزي التي تستخدمها الحكومات في عصرنا، بل إن العرب أنفسهم ليس من طبيعتهم الطاعة، ولو قلنا أن مثل هذه النصوص من الدين فهذا معناه أنه لا يوجد عربي عنده دين... ذلك لأن الجنس العربي بطبعه التمرد، وأبسط دليل على ذلك ما وقع من خلافات وصراعات وحروب أهلية طاحنة سقط فيها أغلب الصحابة البدريين " أهل بدر" وسقط ما يجاوز مائتي ألف قتيل حرب أهلية خلال حقبة الحلفاء الراشدين، وهذا معناه أنه لو كان هذا النص من الدين فإن العرب هم أول من خالفوا هذا الدين، واستخدموه أداة للسطو والسيطرة على الشعوب. ولذلك ليس غريبا أن نبحث في كافة الأحاديث المشكوك فيها ونجدها في حقيقتها عبارة عن أدوات سياسية، لأن العرب لم يكن لهم دراية أو "علم

[٦٢] ـ دكتور حسين دقيل في مقال له بعنوان " من أخلاق المصريين القدماء ج(٨) الحلم والأناة" منشور بموقع ساسة بوست بتاريخ ٢ يوليو ٢٠١٨ على الرابط التالي

https://www.sasapost.com/opinion/from-the-morals-of-the-ancient-egyptians-8-dream-and-patience/

– نقلا عن مصادره : كلير لالويت، الأدب المصرى القديم، ترجمه: ماهر جويجاتى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٢

السياسة" فاستخدموا الدين كأداة وصنعوا منه هيكلاً سياسيا، برغم أن السياسة في الأصل علم مستقل ومتخصص كما الطب والميكانيكا لا علاقة لها بالدين إلا بحدود المبادئ فقط.

ونجد الأصل في الإسلام هو حرية الاعتقاد، وأن سلطة الحساب على المعتقد هي لله وحده ولا سلطة لإنسان أن يحاسب غيره على اعتقاده في الله، إن سلطة الحساب والعقاب الدنيوي محصورة فقط ما يتسبب في ضرر مباشر للفرد أو المجتمع، أما الأمور العقائدية فلا ضرر منها على الأفراد لأنها ليست جريمة مادية ولا يترب عليها ضرر لإنسان آخر. ولكن العرب حاولوا قمع الشعوب بأدوات دينية وتفتيت القومية المصرية والنسيج المتحد، وفكرة القومية المصرية في هذا الوقت كانت قوية جدا في مواجهة القومية العربية، لأنها كانت قائمة على (لحمة أسرية اجتماعية وصلات قرابة وصداقة وجيرة وعشرة ووحدة الثقافة والعادات والأعراف والحرف والمهن والأمثال الشعبية ووحدة المأكل والملبس والأسماء والألقاب ولهجة الكلام واللغة الفرعونية وحتى طرق الطهي المصرية ونوعية الأكلات في المطبخ المصري كانت واحدة ومختلفة عن العرب فحاولوا تفتيتها بتمييز الناس عن بعضهم حسب الدين وحسب الولاء للعرب) خاصة أن الشعوب في هذا العصر حديثة العهد بالإسلام وكان منها ما يدخل الإسلام ويخرج، ثم يدخل وهكذا، وهذا ما شكل عائقا أمام السيادة العربية وخشية من التحالفات والتنسيقات البينية لأبناء المجتمع المصري الذين كانوا أصدقاء وجيران وأقارب وزملاء في محاولة للخلاص من الحكم العربي القمعي، فجاء العرب بأحكام من التراث الديني اليهودي تساعدهم في كسر شوكة وتفتيت وقمع هذه الشعوب والسيطرة عليها، فأقروها دينا. ونجد من ذلك مثال: " من بدل دينه فاقتلوه "

وأصل حد الردة من كتاب اليهود؛ سفر التثنية الإصحاح السابع عشر: » 2 إِذَا وُجِدَ فِي وَسَطِكَ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ رَجُلٌ أَوِ امْرَأَةٌ يَفْعَلُ شَرًّا فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ إِلهِكَ بِتَجَاوُزِ عَهْدِهِ، ٣ وَيَذْهَبُ وَيَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى وَيَسْجُدُ لَهَا، أَوْ لِلشَّمْسِ أَوْ لِلْقَمَرِ أَوْ لِكُلٍّ مِنْ جُنْدِ السَّمَاءِ، الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ أُوصِ بِهِ، ٤ وَأُخْبِرْتَ وَسَمِعْتَ وَفَحَصْتَ جَيِّدًا وَإِذَا الأَمْرُ صَحِيحٌ أَكِيدٌ. قَدْ عُمِلَ ذلِكَ الرِّجْسُ فِي إِسْرَائِيلَ، ٥ فَأَخْرِجْ ذلِكَ الرَّجُلَ أَوْ تِلْكَ الْمَرْأَةَ، الَّذِي فَعَلَ ذلِكَ الأَمْرَ الشِّرِّيرَ إِلَى أَبْوَابِكَ، الرَّجُلَ أَوِ الْمَرْأَةَ، وَارْجُمْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ. " ...

وكما نرى أن عقوبة الردة عند اليهود لا تكون لمجرد الإنكار أو الإلحاد أو الزندقة، بل للفعل المترتب على الإنكار، اقرأ: "٣ وَيَذْهَبُ وَيَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى وَيَسْجُدُ لَهَا." هذا في الشريعة اليهودية، أما

الإسلام فقد ضمن سقف الحرية الدينية والعقائدية حينما قال صراحة " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" وأرجأ الحساب إلى الله وحده، لكن العرب حاولوا الاستفادة من هذا التراث اليهودي في توطيد دعائم حكمهم في البلاد التي دخلوها، فأقروها أحكاما دينية للتخلص من المناوئين سياسيا لهم في هذه الشعوب، فالعرب لم يكونوا يقصدوا عقاب من خرج من دينهم ولكن عقاب من خرج طوعهم، خرج عن دائرة الموالي الموالين للحكم العربي، لأنه بمجرد خروجه من دائرة الموالي أصبح مناوئ سياسي لهم وليس مجرد ممارسا لحقه العقائدي في نطاق الحرية الدينية. وبما أن مسألة تتبع العرب للموالي بنشر العسس والجواسيس لقتل كل من خرج الموالي، هذه المسألة كانت مكلفة وقت وجهد للعرب فنقلوا المسؤولية للموالي أنفسهم بقتل كل من يخرج منهم وذلك بإقناعهم أن دينهم يقول ذلك، وبالتالي فعلى الموالي تلقائيا أن يقتلوا كل من خرج عن دائرة المولاة.. ومن هنا استقرت أحكام قتل المرتدين والملحدين والزنادقة، ولم يعترف العرب بأي نوع من الحرية الدينية لأنها كانت مصدر قلق سياسي لهم فحرَموها. فقد حاول العرب استخدام كافة الوسائل الدينية كأدوات للقمع السياسي، لأن حكمهم السياسي لم يكن مستقرا لأنهم ليسو من أبناء الشعوب التي حكموها، لكن هذه الأدوات ورثناها منهم بعدما صاروا آباء روحيين لنا، فأصبحت أدواتهم في قمعنا تراثا دينيا لنا حتى اليوم، وكأننا تلقينا منهم التعليمات ومشينا على الصراط المستقيم تلقائيا كما أمرونا، وظللنا نراقب بعضنا ونعاقب بعضنا برغم أنهم ذهبوا لكننا لم نفق ولم ندر أنهم ذهبوا !.

وبما أنهم تمكنوا من استقطاب الموالي في مصر (المسلمين الأوائل من الشعب المصري الذين أسلموا وكانوا موالين للعرب بعد دخولهم مصر، وكانوا مواطنين في الدرجة الثانية بعد العرب، وأما الأقباط فكانوا في الدرجة الثالثة، ونتيجة اختلاف درجات المواطنة من حيث الاحترام الإنساني والأعباء الاقتصادية " خراج على الموالي – وخراج وجزية على الأقباط، ومضاعفة الجمارك ٢,٥٪ على الموالي و ٥٪ على الأقباط) ، فأدى ذلك إلى محاولات متكررة للتحرر من الحكم العربي وأعبائه الاقتصادية الباهظة، وكانت هذه المحاولات تتم بالتنسيق بين الموالي والأقباط، ما دفع العرب إلى استقطاب الموالي المسلمين لإبعادهم عن الأقباط ومنع التنسيقات المشتركة، فغرسوا فيهم ثقافة دينية تصنع قطيعة بينهم وبين الأقباط الذين هم من أصلهم وصلبهم ووطنهم ولغتهم، فتغلب العرب على هذا الأصل باستقطاب الموالي، وكان أجدادنا الموالي هؤلاء يمثلون ٢٪ من الشعب المصري على مدار ١٠٠ من دخول العرب مصر، وكانوا مؤيدين للوجود العربي موالين للعرب نتيجة خضوعهم وتأثرهم بمتلازمة ستوكهولم العربية، وهم أول من تحدثوا اللغة العربية في مصر، وهم أول من استحبوا اصطلاح " الفتح الإسلامي لمصر"، ثم زادوا في المائة

سنة الثانية إلى ٢٥٪ من شعب مصر أصبحوا موالي مؤيدين لدخول العرب ويعتبرون عمرو العاص بطلا بينما الـ ٧٥٪ الباقون يعتبرونه محتلا بربريا، ثم بعد أربعمائة سنة زاد أجدادنا الموالي إلى ٥٠٪ تقريبا من شعب مصر، ثم أصبحنا نحن أحفاد الموالي ٨٥٪ من الشعب المصري في عام ٢٠١٩م.

وبالطبع نسينا أجدادنا الموالي الأوائل وأنهم عانوا من عنصرية العرب والجزية والخراج معا، ونسينا عنصرية العرب ضدهم، ونسينا أنهم كانوا مواطنين من الدرجة الثانية أمام عمرو العاص وأصحابه من سلالة قريش، ونسينا عقدة الموالي التي عانى منها أجدادنا وحتى الفقهاء أنفسهم، ولكن متلازمة ستوكهولم العربية والخضوع للعربي للأسف مازالت مغروسة في نفوسنا بشكلٍ لا إرادي، بدليل أننا مازلنا موالي نؤيد دخول العرب مصر، لأننا مازلن خاضعين للاحتلال المعرفي العربي، بل والكثير منا يظن في نفسه أنه عربي ويفتخر بذلك ـ طالما لم يسأله العرب عن أصله ونسبه وقبيلته ـ بل إننا نتذكر الرئيس المصري السابق حسن مبارك في أحد اجتماعات مجلس الشعب بالقاهرة قال: (الأخوة العرب اتخذوا قرار كذا..واحنا مختلفين معهم في ذلك) والغريب أن الغالبية لم تفهم أن مبارك يتحدث عن العرب الذين هم دول وشعوب الخليج العربي الأصل)، ذلك لأنهم لا يمكن أن ينسوا أصولهم وأنسابهم وقبائلهم أبدا ولا يقبلون انتساب أحد لهم، بينما نحن نفتخر بنسيان أصولنا المصرية الفرعونية وانتسابنا لهم برغم أننا لا نملك أصول وأنساب قرشية مثلهم وهم يرفضون الاعتراف بنا لأن نسبنا لهم غير شرعي في نظرهم، وما زلنا نسمي ذلك فتحا إسلاميا بقيادة عمرو العاص ونعتبره بطلا قوميا، وندرس ذلك في مناهجنا الدراسية والتربوية. !

وربما لو كان الإسلام دخل مصر بغير الطريق الذي اتبعه العرب لكان المصريون جميعا اليوم مسلمين، لأن سياسة العرب في حد ذاتها كانت مانعة من انتشار الدين لصالح السيادة العربية، فالعرب منعوا توارث الأبناء والأقارب المختلفين في الأديان، ومنعوا المسلمين الموالي من الارتباط والاندماج في شعوبهم الأصلية ومنعوا السلام بينهم فصنعوا قطيعة من نوع اجتماعي كان من شأنها إن وجدت أن تساهم في التواصل الاجتماعي والثقافي فتساعد في نشر الإسلام. لكن هكذا العرب بعد رحيل النبي طبخوا الدين وأكلوا عليه الثريد وتجرعوا الحساء.

فنجد في القرآن الكريم " يعامل الأسير كضيفٍ عند المسلمين" فيقول تعالى: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)/ الإنسان.. أما في تراث العرب القذر" يقتل الرجال، وتسبى وتغصب النساء ويسترق الأطفال"، فقد روى عنهم الشيخان البخاري ومسلم:" نزل أهل قريظة على حكم سعد بن

معاذ فأرسل رسول الله إلى سعد، فجاءه على حمار... ثم قال إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، قال فقال النبي عليه السلام " قضيت بحكم الله" !!!... وفي هذه الواقعة وفقا للروايات حكم سعد بن معاذ بقتل حوالي ٨٠٠ رجل أسير من بني قريظة وصدق النبي على حكمه احتراما وتشريفا له في مذبحة جماعية ودفنهم في مقبرة جماعية، وسبي نسائهم واسترقاق أطفالهم.. وهذه الرواية العربية برغم كونها مبدئيا تخالف أخلاق النبي وتسامحه وقيمه، وتخالف كتاب الله القائل" ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا "، لكن هذه الرواية وردت في التراث العربي ونقلها المحدثون رغم مخالفتها وكذبها وطعنها المباشر في الكتاب والنبي، بل إنها تضرب أسس الإسلام في مقتل، لأن معناها أن النبي يخالف كتاب الله، وأنه كان يشبه أبي بكر البغدادي الداعشي في طريقته الوحشية في القتل وسفك الدماء، وأنه لم يكن نبي ولا كان في قلبه رحمة بهؤلاء الأطفال والنساء والثكالى.. وهذه هي نوعية الثقافة التي جاء بها العرب إلى مصر، وهي ما أخر اعتناق المصريين للإسلام حتى تعلموا اللغة العربية وبدؤوا يقرؤون القرآن بأنفسهم بعيدا عن النفَس العربي الأبخر. والغريب أن هذه الرويات كانت تدرس للأطفال في المدارس الابتدائية حتى عام ٢٠١٧م صدر قرار الحكومة بقضم هذه الرواية وحذف الجزء الخاص بحكم القتل الجماعي والسبي، فغضب الأساتذة والمدرسون على الحكومة باعتبار أنها تنتقص من قيمة التراث الإسلامي العربي الجميل !!

والغريب أكثر أن الملحدين والمحاربين للإسلام يتشبثون بهذه الرواية للطعن في الإسلام بالجملة وهدمه كليا وهدم أركانه وتشكيك المؤمنين في دينهم، ومع ذلك نجد المسلمين "الموالي المستعربين" يتشبثون بهذه الرواية بذات الدرجة للدفاع عن البخاري، ويدافعون عنها ويصدقون قول العرب أن النبي فعل ذلك، وأن ذلك موافق لكتاب الله ويعتبرونها فخرا للإسلام والمسلمين ويضربون بها المثل في الجهاد بكثرة الذبح والقتل والسبي كما توهموا رسولهم ! دون أن يدركوا كونها مخالفة لكتاب الله وأخلاق وقيم نبيهم، وأنها هي العقبة أمام الإسلام. وليست وحدها، بل هي واحدة من آلاف العقبات الكؤد التي وضعها العرب أمام انتشار الإسلام. لأنه ببساطة الإنسان الملحد يتساءل لماذا اعتنق دينا يأمرني بقتل وذبح ٨٠٠ إنسان؟ ولماذا اتبع نبي قتال وسفاك بهذه الطرقة البشعة؟ وما هذا الدين الذي يأمر أتباعه باغتصاب النساء وخطف الأطفال وبيعهم في أسواق العبيد؟ هذا كتالوج إجرام شامل!

يقول الشيخ متولي إبراهيم: جاء العرب بمعانٍ باطلة فسروا بها نصوص القرآن، وألفاظ باطلة نسبوها كذبا إلى نبي الإسلام، حولوا بها الإسلام من رسالة هداية وبشرى رحمة للعالمين إلى مشروع سيطرة وسيف سلطان سلطوه على رقاب الناس ليوسعوا ملكهم، فاستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والعرض الحرام

غنائم وأسلابا باسم الإسلام، والإسلام من كل ذلك براء، ثم ـ يا حسرة على العباد ـ حذوا حذوهم من بعدهم ولا يزالون حتى اليوم وهم لا يشعرون، «وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا» ٠٥/ المائدة.

لم يأت العرب لنشر الإسلام في مصر، بل لممارسة الحكم والسياسة وجمع الضرائب والجبايات والإتاوات بدليل أنهم توارثوا الحكم في أبنائهم بالوراثة ولم يتركوا المصريين يحكمون بلدهم، بل كانوا كل خمسة أعوام تقريبا تقوم ثورة من المصريين ضد حكم سلالة قريش ولكنهم يقمعوها بالقوة والوحشية في كل مرة، وكان المصريون عزل بلا سلاح، ومع ذلك لم يستسلموا لحكم قريش، وتحول المصريون من صناعة أوراق البردي التي كانوا يصدرونها إلى العالم لتدوين العلوم والمعارف، تحولوا إلى صناعة السلاح لمقاومة الاحتلال العربي. لأن العرب عندما دخلوا مصر لم يكونوا يمارسون دور الداعية، بل دور ضابط الشرطة ذا الوجه البغيض. كانوا يقومون بدور العسس لا الأصدقاء المتعاونين، كانوا وجودهم أشبه بعصابات فرض السيطرة وليس رجال الدين والدعوة. في الواقع إن العرب لم يحترموا بلادنا ولا شعبنا ولا صلة الجوار وإنما استغلوا كبوتنا الحضارة وقفزوا على ظهورنا وظلوا يتراقصون كما القردة على عرش البلاد، ولم يرحموا عزيز قوم.

فكيف نحتفل نحن بحضارة العرب ودولتهم في العراق والأندلس، ونفتخر بهارون الرشيد بمقولة أنه قدم ساعة ميكانيكية هدية لملك من أوروبا فظن أنها شيطان لغرابة وضعها، على اعتبار أن حضارة العرب وصلت أوج ازدهارها من حيث التقدم والرقي والابتكارات والاكتشافات العلمية، بينما كانت مصر تعيش أسوأ عصور القمع والقهر والذل تحت الحكم العربي، فلم ير المصريون من العرب سوى القسوة والوحشية والغباء والجشع في جمع الجبايات والضرائب، ولم يقم العرب بأي إنجازات في مصر سوى أدوات الحكم والسلطة فقط لإحكام القبضة على الشعب المسكين، حتى وإن كان أجدادنا المصريين في هذا الوقت مسيحيين، فلهم حق وحرية العقيدة، ولو كان جدي مسيحيا فلا يمكن أن أسلمه لمحمد بن سلمان كي يهين كرامته أو يسبي بناته أو يذبح أبناءه.. غير أن ما منعهم منذ البداية عن اعتناق الإسلام سوى وحشية العرب لدرجة أن الإسلام لم ينتشر بين المصريين سوى بنسبة ٢٪ خلال مائة عام كما يؤكد الأزهر، بينما انتشرت المسيحية خلال خمسين عاما فقط، وهذا ما يؤكد أن الوجود العربي في مصر كان " غير مرغوب فيه" وأنه تسبب في تأخر اعتناق المصريين للإسلام. أي أن القومية العربية هي التي قيدت وعطلت الدين عن الانتشار في مصر.



الإضاءة الخامسة

الفتوحات العربية؛ جرائم حرب أم عبادة؟

جميع الشعوب والحضارات مارست التوسع الاستعماري، وأغلبها جاءت باسم الدين، فهل أن الديانة المسيحية تشترط الجهاد بقتل غير المسيحي أو إلزامه الجزية كما الإسلام؟ وهل كانت الحملات الصليبية على حق؟ أم أن الفتوحات الإسلامية هي التي على حق؟

الفرق بين الإنسانية وجرائم الحرب ونشر الأديان

ربما لا يعرف كثيرون أن كل إنسان مكلف بالفطرة بنشر السلام والدعوة للخير والمعاملة بالحسنى، وكل الشعوب التي تؤمن بوحدانية الله وتعتنق ديانة الإسلام السماوية مكلفة بنشر هذا الخير بين الناس جميعا. وليس فقط العرب هم المكلفين بنشر الإسلام، فالمسيحيون كانوا قبل الإسلام مكلفين بنشر عقيدة التوحيد والإيمان على نهج عيسى عليه السلام، وربما لا يعرف معظمنا من المصريين الفتاة المصرية فيرينا، وهي مصرية نشأت بالقرب من مدينة الأقصر، ويعنى اسم فرينا باللغة



المصرية "الثمرة أو البذرة الطيبة". هاجرت فيرينا من مصر ضمن حملة طبية سنة ٣٠٠م تقريبا وعاشت في وسط أوروبا، وفي سويسرا تحديدا، كانت فيرينا ضمن حملة طبية مع بعض الفتيات المصريات الذين كانوا يعدون الطعام ويقومون برعاية الجرحى وغير ذلك من الأعمال التطوعية الإنسانية، ولما توفى أفراد الحملة الطبية كلهم، لم تغادر المكان عائدة إلى مصر، وإنما اندمجت في الشعب السويسري وقامت بتعليمهم أسس العلاج والتداوي باستعمال بعض الأعشاب الطبية، وعلمتهم أن النظافة من الإيمان، وعلمتهم أصول الطهارة والحفاظ على النظافة الجسدية بالاغتسال بالماء وأن الوقاية خير من العلاج..

مكثت في مكانها فعلمت الشعب الوثني أصول ديانتها المسيحية التي جاءت بها من مصر، علمتهم عقيدة التوحيد وعبادة الله بدلا من الأوثان، واكتشف الحاكم الروماني أمرها فأودعها السجن، ولكنها بعد مدة خرجت من السجن وعادت لما كانت تفعله من أجل الإنسانية. وتوفيت فرينا في سنة ٣٤٤م وبنا سكان المنطقة فوق قبرها كنيسة في مدينة تمبورتاخ بسويسرا، وعند منتصف الجسر المقام على نهر الراين بين سويسرا وألمانيا أقيم لها تمثال وهى تحمل جرة بها ماء، أم اليوم فيبلغ عدد الكنائس التي تحمل اسمها في سويسرا وحدها ٧٠ كنيسة وفي ألمانيا ٣٠ كنيسة. وما زال المسيحيون يرسمون صورتها وفي يدها أبريق ماء وفي الأخرى"المشط المصري" الذي استخدمته المصريات منذ العصر الفرعوني ضمن أدوات التجميل، ما زال المسيحيون هناك يرسمونها على هذا النحو تخليدا للدور الإنساني الذي

قامت به هذه الفتاة المصرية في العناية بالمرضى في هذه المناطق، وفي تعليم أهلها النظافة والإيمان، ومنذ أكثر من سبعة عشر قرنا، لم يكن أحد يعرف الإيمان في أوروبا، لكن اليوم جميع الأوروبيين مسيحيين.. هكذا نشرت هذه الفتاة المصرية دينها في أوروبا..

وبذات الطريقة الدعوية وصل الإسلام إلى الهنود الحمر في أمريكا الشمالية واللاتينية، فيذكر الشريف الإدريسي في مسالكه عندما تحدث عن مجموعة من الشباب الأندلسيين من مدينة لشبونة ذهبوا في رحلة بحرية للمنطقة الواقعة خلف المحيط الأطلسي (الأمريكتين) ونشروا فيها الإسلام واعتنق سكان هذه المناطق الدين الإسلامي.. وقد أشار باحثون وكتاب من الغرب إلى علاقة الهنود الحمر بالإسلام.. فذكر "ليون فيرنيل" البروفسور فى جامعة هارفرد في كتابه "أفريقيا واكتشاف أمريكا ":" إن كريستوفر كولومبس كان واعيا الوعي الكامل بالوجود الإسلامي فى أمريكا قبل مجيئه إليها" وقد أورد كولومبس ذلك بنفسه فى مذكراته "إن الهنود الحمر يلبسون لباسا قطنيا شبيها باللباس الذي تلبسه النساء الغرناطيات المسلمات " وذكر أنه وجد مسجدا فى كوبا.. كما أن أول وثيقة هدنة بين كريستوفر والهنود الحمر موقعة من رجل مسلم اسمه محمد (الوثيقة موجودة فى متحف تاريخ أمريكا بتوقيع بحروف عربية من رجل من الهنود الحمر اسمه محمد).. وهذا ما يعني أن الإسلام وصل إلى هذه المناطق بالطريق الطبيعي الدعوي الهادئ دون أية حروب.

أما ويقول المؤرخون: عندما بدأت حركة الفتح المباركة على أرض العراق، قام الخليفة الراشد أبو بكر الصديق بتكليف قائدين من أمهر قادة العرب وهما خالد بن الوليد وعياض بن غنم الفهري، وكان كلاهما مشغولا بقتال المرتدين، فأمر أبو بكر خالد الوليد أن يفتح العراق من أسفله، وأمر عياض غنم أن يفتح العراق من أعلاه، وجعل بينهما منافسة شريفة لصالح الإسلام بأن قال لهما : »أيكما أسبق في الوصول إلى المدائن فهو الأمير .« !

والمدائن كانت عاصمة العراق.. وتبين هذه المنافسة الشريفة والتي بنيت على إرشادات الخليفة – مع حسن الظن بالجميع- أن هذه لم تكن ولا يمكن أن تكون وسيلة لنشر دين.. لا إسلام ولا مسيحية ولا يهودية ولا زرادشتية، ولا يمكن أن تكون وسيلة لدفاع لأنه لم يكن هناك أي تهديد من العراق أو الفرس للعرب، بل إن الخليفة قسم الجيش نصفين ووزعه على جبهات متعددة للهجوم، وهذا ما يعني قوة

الجيش وقدرته على محاصرة المدينة واختراقها في ناحتين منفصلتين عن بعضهما، أي تطويق المدينة من الخارج، ومن كان بإمكانه تطويق المدينة ليس في حاجة للدفاع عن نفسه من هجوم هذه المدينة، غير أن العراق لم تكن تمثل أي تهديد للعرب. ثم أن المنافسة الشريفة ! قامت على السلطة والولاية والإمارة لا على نشر السلام والإسلام، حيث قال الخليفة موجها خطابه للقادة العسكريين: أيكما أسبق في الوصول إلى المدائن فهو الأمير " !

يقول جدنا الحكيم المصري "بتاح حتب: وهو يوصي ابنه؛ الذي عمل وزيرا لأحد ملوك الأسرة الخامسة؛ يوصي ابنه فيقول: «... كن حاذقا في صناعة الكلام، لأن قوة الرجل لسانه، والكلام أقوى من أي محاربة...»، ويقول له أيضا: «إن الفرد الذي يحمل فضيلة الحق في قلبه أحب إلى الله من نور الظالم... اعمل شيئا حتى يُعمل لك بالمثل.«[٦٣]

وبرغم أن رسالة النبي محمد عليه السلام هي الرسالة السماوية الأكمل، وقد جاء بها رحمة وسلا للعالمين، وهو خاتم الرسل وهي خاتم الرسالات السماوية، حملها نبي السلام إلى البشرية جمعاء، حمل رايته البيضاء، لكن العرب ما إن توفى رسول الله حملوا راية سوداء واحتلوا بها العالم كي ينادوا بالسلام ! فالدين عقيدة وإيمان، وطبيعة الشعب لا تعبر عن طبيعة الدين وأسراره ومبادئه بأي حال، فالخطأ وارد من البشر أينما كانوا.. ولا نذكي أحدا على الله. فقد ظل فقهاء الإسلام عبر القرون يقنعون الناس بأن الجهاد يعني قتل الكافرين من أجل الله، والاستحواذ على أمواله وأطفاله سبايا لاغتصابهم أو لبيعهم في أسواق النخاسة، وكل ذلك ظل ثابتا ثبوت العقيدة ومن ثوابت الأمة، وحينما ثارت الأجيال الحديثة ضد هذا الفكر المتطرف، وتساءل الناس كيف للفاتحين أن يمارسوا عادات الجاهلية ويتركوا مبادئ الإسلام في احترام الإنسانية، برغم أنه لم تكن هناك حاجة للحرب أصلا، صار الفقهاء يبررون بأن طبيعة الحرب كانت كذلك (قتل وذبح وسلب ونهب وسبي واغتصاب واستعباد) وأن الفاتحون ليسوا استثناء من الحروب، فجميع الحروب تغتصب النساء والأموال والدور، وهكذا فعل الفاتحون، ثم إذا تساءل المعترضون (فما الفرق بين المسلم وغير المسلم إذن؟ طالما الجميع يتبع عرفا إجراميا واحدا؟) ولماذا قامت الحرب أصلا؟ برر الفقهاء بأن الحرب في الإسلام ضرورة لصيانة العرض والنفس والمال،

[٦٣] ـ د. حسين دقيل – أستاذ الآثار وكاتب وباحث في الأدب – مقال بعنوان " من أخلاق المصريين القدماء (١) الصدق – منشور على موقع ساسة بوست بتاريخ ١ فبراير ٢٠١٨ على الرابط التالي : https://www.sasapost.com/opinion/pharaohs،

وأن الفتوحات إنما كانت لتأمين الدعوة ! إذا رفض حكام البلاد الأخرى دخول المشايخ والدعاة لنشر دين الله فيها !

ونتساءل، مَن مِن الدعاة المبشرين والمشايخ من الصحابة تم منعه من دخول العراق؟، و مَن مِن الدعاة المبشرين والمشايخ من الصحابة تم منعه من دخول فارس؟ وما أسماء المترجمين معهم؟ و مَن مِن الدعاة المبشرين والمشايخ من الصحابة تم منعه من دخول الشام؟ و مَن مِن الدعاة المبشرين والمشايخ من الصحابة تم منعه من دخول مصر؟ وما أسماء المترجمين بين اللغة العربية واللغة الفرعونية؟ و مَن مِن الدعاة المبشرين والمشايخ من الصحابة تم منعه من دخول الصين وماليزيا وكوريا وأندونسيا؟ ومَن مِن الدعاة المبشرين والمشايخ من الصحابة تم منعه من دخول الأندلس؟ إذ أن طارق زياد لم يكن يجيد اللغة العربية أصلا ولا يجيد اللغة الإسبانية، ومع ذلك تمكن من دفع رجاله خلسة في السفن المدنية التجارية عبر مضيق البحر المتوسط إلى بلاد الأندلس، وتجمع هناك عدة آلاف، ثم لحقهم طارق بجيشه المسلح في خمس سفنٍ حربية مزودة بالسلاح اللازم لغزو أسبانيا واحتلالها، وكان جيش طارق لا يجيد اللغة العربية أصلا فكيف أجاد دينها؟ إذ أن هذا الجيش كان أغلبه من البربر الأمازيغ ومعهم فقط ثلاثمائة رجلٍ عربي، فلماذا طالما تمكن الرجال من دخول البلاد في السفن المدنية لم يدعهم ينشروا دين الله وأمرهم بالاختباء حتى عبر إليهم بالسلاح ومزيد من الرجال ثم هجم ليلا على الناس الآمنين؟ هل كان ذلك لينشر الدين؟ فلماذا خرجوا بعد ثمانمائة عام دون أن ينشروا دينهم في الأندلس؟ بينما الفتاة المصرية فيرينا نشرت دينها في أوروبا بأكملها ؟ الفتاة المصرية فيرينا وحدها نشرت المسيحية في أوروبا خلال ثلاثين عاما فقط، بينما العرب قضوا ثمانمائة عام في أوربا بمئات الآلاف من الرجال والسلاح والدروع ولم ينشروا الإسلام فيها، بقيت الفتاة المصرية خالدة بالمشط وإبريق المياه، بينما عاد العرب بمئات الآلاف من السبايا والأطفال والبنات التي خطفوها واغتصبوها والأموال التي نهبوها.. وهذا ما يعني حتما أن هذه الفتاة كانت تعرف الإسلام أكثر مما عرفه العرب كلهم، ولهذا تملكت قلوب الأوربيين إلى اليوم، ونقشوا اسمها على جميع منابرهم..

نشر الدين الإسلامي في فارس والعراق

يقول ابن كثير:" لما فرغ خالد الوليد من اليمامة، بعث إليه الصديق أن يسير إلى العراق، وأن يبدأ بفرج الهند، وهي الأبلة، ويأتي العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله، عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا من ذلك كله قاتلهم في الله، وأمره أن لا يكره أحدا على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام، وإن كان قد عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين، وشرع أبو بكر في تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمدادا لخالد، رضي الله عنه".

هذا ما أثبته المؤرخون عن الصحابة في فتوحاتهم، ونتمنى أن تكون هذه الروايات غير صحيحة أو أن يكون هذا التاريخ مزورا حتى ترتاح ضمائرنا، وحتى لا تدفعنا إلى الإساءة إلى الصحابة، برغم أن هذه الأحداث رواها كافة المؤرخين الإسلاميين أنفسهم، حتى البخاري أورد إيجازا عنها بذات التفاصيل المفزعة ودون تعليق!، لكن على فرض أنها حدثت بالفعل، فنحن نتساءل، كيف يعهد الخليفة إلى قائد جيش بمهمة نشر الإسلام والدعوة إليه؟ ومنذ متى كان قادة الجيوش رجال دين؟ وهل هناك قائد جيش في مهارة خالد الحربية وكفاءته العسكرية يصلح أن يكون داعية ويرغب الناس في دينه؟ إذ كان خالد لا يعرف غير لغة السيف والترهيب والتخريب والقتل والذبح، حتى أنه ذبح مالك ابن نويرة وزنا بامرأته وشوى رأسه تحت القدر وطبخ عليها طعامه ليرهب الناس منه قبل أن يروه، فكيف يرغب الناس في دينه؟ واعترض الصحابة على ذلك وذهبوا ليشتكوا إلى الخليفة وتضامن معهم عمر ابن الخطاب، وبرغم ذلك عذره الخليفة أبي بكر، وقال لعمر" لن أشيم سيفا سله الله على الأعداء" !



أي أن الخليفة كان يعلم مدى جبروت خالد وفظاعته في التعامل مع الناس، وتمسك به قائدا على الجيش لأنه خلصه من المعارضين سياسيا ودينيا، وتمسك به قائدا للجيش، وفي ذات الوقت ناشرا

للدين؟ وهل تكون طليعة نشر الدين هي الجيوش؟ منذ متى كانت الجيوش تنشر الأديان؟ لكن حتى في هذه الحال، فهل يصلح مثل هذا القائد بالدعوة إلى الدين؟ وهو لم يعد في قلبه رحمه ولا رفق بالناس.. هو قائد عسكري محترف بالفعل، لكن ما علاقة قادة الجيوش والكفاءة الحربية بنشر الأديان؟ فالطبيعي في الماضي أن من يبشر بالدين يكون إما راهبا أو قسا أو شيخا أو عابدا أو نبيا يتقرب إلى الناس يعرفهم بالدين وأحكامه وحكمه وسماحته، لكن كيف نعهد إلى قائد جيش بنشر دين؟ فالجيش فقط للدفاع عن المجتمع وليس لنشر الدين.. لكن هذه كانت أفكار العرب وطريقتهم في نشر الدين، وهي ليست من الدين في شيء، بل هي من ثقافة العرب التي أصبحت دينا للمسلمين في ربوع العالم.

بل إننا نتساءل لو تقابل خالد الوليد وماجلان فأيهما سيدخل الجنة ؟؟ ولو تقابلا أمام محكمة العدل الدولية فأيهما سيحصل على البراءة أو الإدانة ؟؟ فكلاهما سعى لنشر دينه متزعما الجهاد في سبيل الله بالسيف والرمح والدرع معا، ففي عام ١٥٢١ م بمجرد أن توقفت وانكمشت حركة الفتوحات العربية "الإسلامية" اشتعلت حركة الفتوحات الأوروبية المسيحية، حيث وصل الأسبان بقيادة "ماجلان" إلي الأرض المعروفة اليوم بالفلبين، هاجموا جزيرة تدعى "ماكتان" عليها سلطان شاب مسلم يدعى "لابو لابو" الذي رفض الخضوع لماجلان" أو للصليب.. طلب "ماجلان" من "لابو" التسليم قائلا: "إنني باسم المسيح أطلب منك التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد".. فأجابه "لابو": "إن الدين لله وإن الإله الذي نعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم"

ففي هذه الواقعة التاريخية، نجد كلا القائدين يتحدث باسم الدين، وكلاهما يتزعم الجهاد في سبيل الله، فماذا يكون المعيار للفصل بينهما؟ هل كل من آمن بدين يصبح له الحق في إكراه الآخرين على اعتناقه وإلا احتلال بلادهم كما طلب ماجلان؟ ومنذ متى تستخدم الكائنات الحربية في نشر الأديان؟

وعندما وصل خالد الوليد مشارف العراق بعث برسالة إلى أهلها يقول: " ((أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم، فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، وإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم

الجزية فقد أتيتم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة.. جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم)). ثم قبل أهل العراق دفع الجزية وفداء أنفسهم وأموالهم" (٦٤)

ويتضح من هذه الرسالة إن صح تأريخها أن خالد الوليد هو أول من بدأ مشروع الحرب لنشر الدين، وأول من أجاد كتابة الإنذارات الحربية باسم الدين قبل ماجلان ونابليون بونابرت، أو ربما وافقه على ذلك الخليفة الذي وجهه إلى هناك بجيشه لنشر الدين، فقد انتهى من حرب الردة وانتقل بذات حركته العسكرية إلى العراق قبل أن يجف عرقه، وهناك فارق شاسع بين (الحرب التي شنها لتصفية المعارضين دينيا وسياسيا برغم كونها غير مشروعة) وبين (الفضيلة والجهد المطلوب بذله لنشر الدين ومبادئه وقيمه وتعريف الناس به)، لكن خالد جعل من الحرب العدوانية وسيلة لنشر الدين أيضا ! فكيف استخدم العرب ذات الوسيلة في قمع المعارضين وهي ذاتها الوسيلة استخدموها في نشر الدين؟ فكيف يكون دين سلام ويبدأ نشره بالحرب؟ وكيف يكون التمهيد له بالحرب والتهديد والوعيد؟ وكيف تكون رسالة الإسلام متضمنة في لفافة إنذار حربي؟ .. وبما أننا نحن المصريون لم نكن نعرف اللغة العربية في هذا الوقت ولا يمكننا فهم رسالة خالد، فليتطوع أحد أمراء السعودية اليوم من قبيلة بني مخزوم ليفسر لنا رسالة جده خالد الوليد، أو يشرح لنا ما علاقتها بنشر الدين !

أرسل إليهم رسالته والتي في مضمونها لا تصلح تبشيرا بدين حنيف، وإنما إنذارا حربيا بالإكراه على الدين أو بدفع الجزية وإلا القتل، ذلك لأن نشر الدين يقتضي تعريف ما هو مفهوم الدين ومقتضياته وفرائضه وحكمه وأحكامه السمحة وترغيب الناس فيه، كما نشر إبراهيم عليه السلام دينه ونشر موسى عليه السلام دينه ونشر عيسى عليه السلام دينه، وكما كان يبعث رسول الله بسفرائه إلى البلاد المجاورة يعيشون وسط أهلها ويعاشرونهم ويختلطون بهم ليتعرف الناس على دينهم واقعيا ويحتكون بقيمه ومبادئه لا بمجرد قراءة اسم الدين الجديد في لفافة مطوية بعث بها جنرال حربي، وعند تحليل هذا الخطاب سنجد فيه العجب العجاب؛ إذ أن الدعوة إلى دين جديد يجب أن تبدأ بخطابات ترغيب متكررة، ثم تعريف وشرح وتفصيل.

إلا أننا نجد أن المبادئ التي بني عليها هذا الخطاب هي مبادئ فاسدة وعدوانية في حد ذاتها تعبر عن ثقافة العرب لا عن الدين، وقوامها خارج تماما عن الإسلام؛ ذلك لأنه لم يعرف الطرف المرسل إليه بما هو مضمون هذا الدين، فقط اقتصر بقوله" سيكون لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم" وإلا دفع

(٦٤)- (ابن كثير – كتاب البداية والنهاية ص ٩/٥١٣)

الجزية، وإن رفضتم فالقتال"، وهذا ما يؤكد فساد المبادئ التي قام عليها خطابه؛ ذلك لأن النبي عليه السلام حينما فرض الجزية على غير المسلمين في مكة، فكان ذلك على أهل مكة الذين عاهدوا الرسول بعدم الحرب والسماح لأصحابه بالحج ثم نكثوا عهودهم وحضوا عليه وعاونوا الأعداء لحربه، فكان جزاءهم هو دفع الجزية، وهي بمثابة التعويض أو الشرط الجزائي المترتب على خرق العهود. أما إخضاع مجتمع عنوة لتحصيل الجزية منه، فهذه حرب استعمارية لم تحدث أبدا وما كان لها أن تحدث في عصر النبي.

ولو قلنا أن خالد حارب العراق بسبب منع حكامها دخول الدعاة المسلمين لنشر الإسلام، فلم يرد ذلك في الإنذار الذي أرسله إليهم، ولم يطلب منهم السماح بدخول دعاة من عنده لتعريف الشعب بمبادئ الإسلام، بل طلب منه تسليم حكم البلاد. ولو قلنا أن حاكم العراق كان يقتل المسلمين عنده، لكان أولى بخالد أن يعنفه على ذلك ويزجره ويمنعه ويأمره بالسماح للمسلمين بالعيش والانتشار وإلا الحرب، لو حدث ذلك ورفض حاكم العراق لكان منطقيا أن يحاصر خالد بلاده ويهدده بالاستسلام وإلا الحرب..

لكننا نعود إلى مبدأ خالد الذي فرض الجزية على أناس لا يعيشون معه في ذات الوطن، ولم يخرقوا عهده ولم يغدروا به ولم يعتدوا عليه ولا يقدم لهم أي خدمات أمنية، بل هو يأمرهم بالخضوع له عنوة، ثم أنهم في حال رفضهم الجزية سيكون مصيرهم القتل، وهذا يعني أن القتال ليس لرفضهم الإسلام كما في حرب الردة، ولكن لرفضهم دفع الجزية صراحة، كما رفض الردة دفع الزكاة فحاربهم أبو بكر بجيش بقيادة خالد أيضا.

إذ أن أمر قبول أو رفض الدين قد انتهى ولا إكراه، لكن طالما رفض الدين بدأ الإكراه!، وبقي الخيار ما بين الجزية والقتل، أحدهما بديلا عن الآخر، فإن دفعوا الجزية عصموا أنفسهم وأموالهم من القتل، وإن رفضوا الجزية عرضوا أنفسهم للقتال وأموالهم للنهب ونساءهم للاغتصاب وأطفالهم للخطف! فما ذنب النساء والأطفال؟. وهذا بالطبع لا يدخل ضمن الإسلام في شيء، ولا يمكن للإسلام أن يضع إنسانا بين خيارين كلاهما أصعب من الآخر إلا إذا كان هذا الإنسان هو السبب في هذا الوضع، ثم ما ذنب هؤلاء الأبرياء أن يتم حصرهم بين هذين الخيارين (الجزية أو القتل) ؟ أليس الأصل في الإنسان براءة الذمة؟ أم أن ذنبهم أنهم رفضوا الدين؟ أليس الأصل أنه لا إكراه في الدين؟ فهل تترتب عقوبة دفع الجزية على رفض الدين؟ ألا يعتبر ذلك إكراه وعدوان على الناس؟ هل كان ذلك بسبب رفضهم للإسلام؟ فإذا

كانوا قد رفضوا الإسلام، فما هي فائدة الحرب؟ وبالطبع لم يكن الأمر نشرا للدين ولكن كان احتلال وإن هم رفضوا احتلال أرضهم ودافعوا عن وطنهم وعرضهم ونسائهم وأطفالهم، فسيكون مصيرهم القتل وخطف أطفالهم ونسائهم وبيعهم في أسواق النخاسة.. ذلك عمل قطاع الطرق في زمنهم، إذ كان اللصوص يهجمون على المدن أو القرى أو القوافل التجارية بذات الإنذار وذات الخيارين، إما الدفع وإما القتل! وكانت عادة العرب قبل الإسلام أن تغير القبائل على بعضها للسلب والنهب وأخذ السبايا من النساء والأطفال.. ولا يمكن أبدا أن تكون هذه السلوكيات هي ذات الوسيلة التي اتبعها الإسلام لتمهيد طريقه للانتشار في البلاد.

وكانت الدولة العربية قد تأسست وتحددت مقوماتها في يد الخليفة، وانصرفت أنظار الجميع إلى الاستمرار في نشر دعوة رسولهم الكريم، وهنا وقع الخطأ الكارثي الثاني؛ فليس بالجيوش الزاحفة والإرهاب والقتل والخطف والنهب والسلب وتشريد الأطفال والنساء تنتشر الأديان.. إنما الأديان هي رسالات السلام.. بل كان من الضروري أن يسعى الخليفة في تشكيل مجموعات من الدعاة وتأهيلهم ونشرهم في البلاد والأحياء يتولون الدعوة إلى الله، بشرط أن يكون سلوكهم الشخصي نموذجا يحتذي به ويمثل الإسلام، ويعرفون الناس بالدين الإسلامي، كما كان يفعل الرسول بإرساله سفراء ودعاة ومبشرين من أمثال مصعب ابن عمير ومعاذ ابن جبل وغيرهم كثير.. لكن الخليفة عهد بالمهمة إلى شخص وحيد يتكفل بها كاملة.. كان هو قائد الجيش! هذا الشخص هو خالد الوليد.. أكفأ قادة الجيوش الحربية في ذلك العصر.. ولم يكن لديه دراية حقيقية بالدين ولا سمعه أحد يقرأ آية من كتاب الله أو يروي حديثا عن رسوله الكريم.. فقط هو جنرال يعرف كيف يغرس السيف في صدر الضحية، وكيف يقذف بالسهام وكيف يطعن بالرماح.. ولا يعرف أن يلقي خطبة الجمعة..

وهذا ما جعله ينتقل من حرب الردة إلى حرب العراق وفارس مباشرة، بنظرية الحصادة الدوارة وبذات الخطوة العسكرية المعتادة.. لم يفرق بين الحرب والقتل والقمع ونشر الدين، واعتبر كلاهما جهاد.. فانتقل إلى العراق وأرسل إنذارا حربيا إلى أهل العراق يطالبهم بالاستسلام وفرض أحكامه، وإما دفع الجزية، وإما الحرب.. !!!

ونعود هنا لنؤكد أن نشر الدين كان بحاجة إلى إعداد لجنة من الدعاة والسفراء المبشرين، لا محاصرة البلاد بالجيوش الجرارة وإرسال إنذارات حربية تهدد بالإكراه على الدين أو دفع الجزية أو القتل.. وما كان يليق بالإسلام أن تقف جيوش العرب محاصرة مدن العراق، ويدور حوار بين قادة

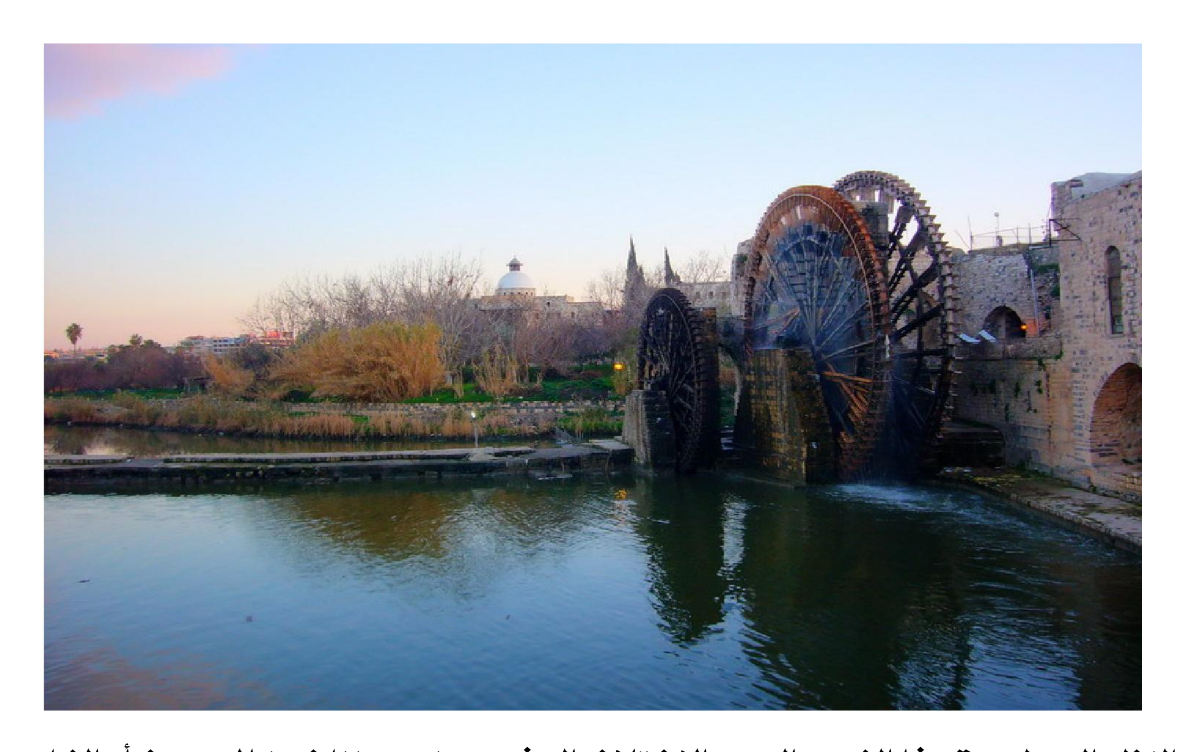
الجيوش حول "نشر الدين".. فالدين هو دعوة سلام إلى الله، ولا يجوز مطلقا الحديث بشأنه في ظل الحصار العسكري؛ لأن الله تعالى يقول " لا إكراه في الدين" وهذه الآية تعبر عن حقيقة مطلقة ومنطقية في عقول البشر؛ لأننا لا يمكن أن نتصور كيف يتم إكراهنا على الاقتناع بفكرة معينة ! أو كيف يتم إكراهنا على قبول تصور ديني معين ! فالله هو من خلق البشر وهو أعلم بنفوسهم ومكنونها، ولذلك قال تعالى " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن".. ونشر الدين يكون بهذه الدعوة، حتى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام والده للإسلام وترك صناعة الأصنام وعبادتها، لكن والده رفض وقال له: إن لم تهجرني مليا لأرجمنك.. فدعا إبراهيم له بالهداية ولم يهدده بدفع الجزية وإلا القتل.. لكن الغريب أن يتخذ المسلمون من سلوك خالد الوليد دينا لهم ويتركوا حديث الله جانبا ويعتبروه منسوخا وموقوفا ! ولا يستحي الفقهاء من ذلك، وإنما يستحيون من الاعتراف بخطأ بشري وقع فيه الخليفة أبي بكر الصديق أو قائد جيشه خالد الوليد.!

ففي البداية كانت الحرب جهادا وحملا ثقيلا عل المكلفين بها، وفي الوقت ذاته كانت مصلحة لآخرين مثل حبيب ابن يساف الذي خرج مع المسلمين في بدر وهو غير مسلم، وحين رده النبي أسلم رغبة في الغنيمة. فكانت الغنائم سببا رئيسا في مشاركة الكثير من العرب في الحروب، لأن حياة المجتمع العربي بداءة قامت على السطو والنهب والسلب وليس البناء والتعمير، ولم تقم في شبه جزيرة العرب حضارة يوما ما مثل حضارة سبأ أو الحضارة المصرية، ولم يكن لهم سلطة حكم مركزية تنظم المصالح المشتركة والعلاقات يين القبائل، بل كانت القبائل من عادتها أن تهجم على بعضها البعض وتخطف النساء والأطفال والصبيان لبيعهم في أسواق النخاسة، وتنهب الأموال وتخرب البيوت.. فكانت الحرب والغنائم والسبي في الأصل مصدر دخل قومي رئيس لهذا المجتمع، وعندما جاء الإسلام، بدأ في القضاء على هذه السلوكيات الوحشية، لكنها كانت متأصلة بعمق في نفوس البشر حتى بعض من أسلموا منهم.. ولذلك نجد أن المعارك التي دخلها الرسول وخسرها، كانت الهزيمة فيها بسبب الغنائم، فكان البعض يتسرع في اقتناص الفرصة وغل ما يستطيع قبل اقتسام الغنائم.

فنجد في معركة أحد، أن الصحابة الرماة الذين وقفوا فوق الجبل لحماية ظهر المسلمين (لم يكونوا منافقين) لكنهم خالفوا أوامر الرسول بعدم ترك مواقعهم الدفاعية، ونزلوا مسرعين من فوق الجبل لحصد الغنائم، وهو ما أدى إلى انكشاف ظهرهم وأتاح الفرصة للقائد المغوار خالد الوليد (قبل إسلامه) للالتفاف عليهم من خلف الجبل وتطويق المسلمين جميعا، وهو ما أدى إلى وقوع خسائر فادحة

بينهم، حتى أشاع بعضهم مقتل الرسول، وتراجعوا عن الاستمرار في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ومن هنا نزل الوحي لأول مرة معاتبا موبخا إياهم " أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ " فالله جل وعلا يعرف طبيعة المجتمع العربي جيدا.

وفي المرة الثانية، في فتح مكة، عندما أمر الله رسوله بمنع كفار مكة من الحج حول بيته الحرام، لأنهم كانوا يطوفون بالبيت المقدس عرايا، فتزمر بعض المسلمين (الصحابة) من هذا الأمر الإلهي لأنه كما قالوا سيفقدون مصدر الدخل ! الذي يحصلون عليه من بيع خدماتهم للحجاج الذين يطوفون عرايا حول بيت الله..! (وهذه المشكلة ما زالت في السعودية إلى اليوم يفرضون جمارك ورسوم باهظة على الحجاج وخدماتهم) ولما قال الله تعالى " سيرزقكم الله من حيث لا تعلمون" فسر المفسرون ذلك بأن المقصود بهذه الآية هو " الجزية " التي سيفرضونها على الناس ! ومن هنا استمرت حروبهم بعد رحيل الرسول باعتبارها رزق ومصدر دخل لهم، كما فهموا من قول الله أنه سيرزقهم مصادر دخل بديلة! ومصادر الدخل البديلة هذه هي الحروب والسطو والنهب وفرض الإتاوات والجزية والخراج.. حتى أن أكبر مفسري القرآن على مدار التاريخ قالوا بأن المقصود بهذه الآية هو الجزية التي سيفرضونها على الناس أو الغنائم التي سيحصون عليها بعد الحروب، فكانوا على قناعة داخلية بأن الحروب والإغارة هي مصدر دخل ورزق لهم..برغم أن الله تعالى يقول في آية أخرى: إنما المؤمنون الذين أمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون).. أي أن الفهم الصحيح للقرآن يجعل من المستحيل تفسير الآية الأولى " سيرزقكم الله من حيث لا تعلمون" بأن هذا الرزق من تحصيل الجزية والغنائم والسبايا، لأن الجهاد يبدأ بالتضحية بالمال ثم النفس، وليس من أجل المال، ولا يمكن أن يعلق الله رزقا إنسان على قتل إنسان آخر، لكن هكذا فهم العرب دينهم.. فهذه فلسفة الصعاليق التي تجعل من الحرب والإغارة رزق لبعض الناس.. وكأن العقلية العربية ترسخت على أن الحرب والقتل هو مصدر دخل رئيس لهم سواء بفرض الجزية لتفادي الحرب أو بتحصيل الغنائم بعد الحرب أو بفرض الجزية والإتاوات..! هكذا العرب يخلقون مصادر رزقهم من الصحراء ومن الصخر والرمال، فهل يعجزون عن استخدام الدين كمصدر دخلٍ سخي لهم؟



وبالنظر إلى طبيعة هذا الشعب البري والاختلاف الجذري بينه وبيننا نحن المصريين أو الشاميين، فهذه الشعوب اعتادت أن تأكل من عمل يدها ومن الكد والتعب وبذل الجهد والعرق، وليس من الإغارة واقتناص أرزاق الناس كما اعتاد العرب، ولذلك ارتضى العرب بحياة الصحارى والترحال ونقل الخيام من مكانٍ لآخر دون حنينٍ إلى الأوطان، بينما هذه الشعوب المدنية استقرت على أودية الأنهار وأقامت السواقي والنواعير وحفرت القنوات والجسور كي تروي الأرض وتغرس وتحصد وتبني القصور والعمارة، لا أن تخطف وتجري بعيدا في الصحراء كما العرب البدو.. ولذلك تفننت هذه الشعوب المدنية في صناعة روافع المياه والآلات الميكانيكية التي تساعدهم على العمل والإعمار، وابتكروا آلياتٍ عديدة.. فحياتهم تقوم على العمل في صمتٍ هدوء، لا الجري بالخيول في الصحراء ورمي السهام.

... نعود إلى شبه جزيرة العرب، ففي موقعة حنين، عمل مالك عوف النصري كمينا للمسلمين، ووضع جنده في رؤوس الجبال وتظاهر جيشه بالانسحاب وترك الغنائم والمتاع طعمة ظاهرة للمسلمين.. فاغتر المسلمون بهذا المشهد.. لم يتريثوا وتدافع كثير منهم لحصد الغنائم، فانهالت عليهم السهام من قمم الجبال، حيث أمطرهم جيش مالك عوف بوابل من السهام، ففروا هاربين وتركوا كل شيء، ولم يصمد حول رسول الله منهم سوى عشرة فقط أو أحد عشر صحابي.. لم يكن الدين قد ترسخ في قلوبهم بالكامل وما زالت عادات السطو والنهب والسلب تغازل نفوسهم حتى أنهم تركوا الرسول وتركوا الجيش والنظام المأمورين به في الصفوف وانفرطوا عشوائيا لحصد الغنائم وكأنهم إنما جاؤا من أجلها.. سبحان

الله.. هذه طبيعة نفسية غريزية في المجتمع العربي، وبرغم نزول الوحي كالفيضان المنهمر يوما بعد يوم إلا أنه لم يتملك من قلوبهم المادية..

وحتى بعد انتصارهم في خيبر، يسرع أحدهم ليسرق عباءة ويخفيها.. يروي عمرَ الخطابِ قالَ: لمّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ فقالوا: فلانٌ شَهِيدٌ. فلانٌ شَهِيدٌ. حتّى مَرُّوا على رَجلٍ فقالوا: فلانٌ شَهِيدٌ. فقالَ رَسُولُ اللهِ عليه السلام: «كَلاَّ. إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ. فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا. أَوْ عَبَاءَةٍ» ثمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ عليه السلام: «يا ابْنَ الخَطَّابِ! اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ المُؤْمِنُونَ» رواه مسلم؛ أي الذين جاؤا للجهاد والتضحية بأموالهم وأنفسهم وليس من أجل المال.

وهذا ما يعني أن من شغلوا أنفسهم بالغنائم ليسوا مؤمنين، وأن من فسروا كلام الله بأن الرزق هو الجزية والغنائم ليسوا مؤمنين أيضا، لكن هذه السلوكيات الرديئة كانت مترسخة في عقلية العرب، وكان من الصعب تخليصهم منها، فهم قد اعتادوا الهجوم والإغارة على بعضهم البعض للسلب والنهب والخطف، وهذه كانت طبيعة المجتمع العربي في الغالب الأعم.. لكن الجهاد في سبيل الله، قام على فلسفة عكسية، وهي التضحية في سبيله " بالمال والنفس" فيبدأ بالمال والنفس لا طمعا في المال، فيقول تعالي: إنما المؤمنون الذين أمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)

فالجهاد في سبيل الله كان ثقيلاً في عهد النبي، ولذلك نزلت سورة التوبة مخاطبة المؤمنين أنفسهم قبل المنافقين منهم بقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ورضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل سلطان إلا تنفروا...) هنا يخاطب الله الصحابة بلفظ المؤمنين الذين كان أغلبهم يتهرب من القتال في جيش العسرة، لأن القتال " كُره للناس " هذا في عصر النبي، أما بعد رحيل النبي انطلقت الفتوحات مثل الشرارة تجوب الأرض شرقا وغربا، بل إن بعض المسلمين كانوا يتحايلون على الخليفة ليسمح لهم بالانضمام إلى الجيش، وكان يرفض بالسماح لمن يحتاجهم معه في المدينة.. ألا يعد ذلك الوضع غريبا ؟ وإذا قلنا أنهم تثاقلوا في الحركة وتعبئة جيش العسرة بسبب ظروف الحر والجدب واقتراب الحصاد، وعدم القدرة على السيرة مسافة طويلة، فإننا سنجدهم بصحبة خالد الوليد يجوبون الأرض شرقا وغربا ويذهبون لمقاتلة الروم على الحدود الشمالية للعراق والشام وليس فقط في ظروف الحر والجوع، بل طوال العام لدرجة أن خالد الوليد كان يفطر رمضان ويقاتل في الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال، ما يعني استمرار الحرب على

مدار العام كما كان نهج العرب في الجاهلية قبل الإسلام، وهذا ما يؤكد أن الحرب كانت مصدر دخل لهم وأمل وطموح في رغد العيش والغنى والسيادة، وليست أبدا جهاد في سبيل الله وتضحية بالمال والنفس.

غير أننا نستعجب كثيرا مما قاله الشيخ العلامة ابن باز بشأن القتال الذي حرمه الله في الأشهر الحرم في نص قرآني واضح وصريح، لكن ابن باز جعله نسيا منسيا منسوخا ورجح عليه أقوال الجمهور! ، يقول ابن باز؛ الأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب؛ أربعة قال الله جل وعلا :(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثنا عشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْم خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَة حُرُمٌ) ٣٦/التوبة ، هذه الأربعة؛ ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم عاشوراء، والرابع فرد وهو رجب بين جمادى وشعبان، هذه الأربعة الحرم، كان القتال فيها محرم، وكانت الجاهلية تحذر ذلك أيضًا، ثم نسخ عند الجمهور القتال فيها وصار القتال فيها جائزا، والصحابة قاتلوا الروم وغير الروم ولم يحفظ عنهم أنهم تركوا القتال في الأشهر الحرم لعلمهم بأنه نسخ.." ! برغم أن الله كرر الحديث في القرآن حول تحريم القتال في الأشهر الحرم وذكر ذلك في معرض حديثه عن تلاعب العرب في الجاهلية قبل الإسلام بالمخالفة للشرائع السماوية السابقة، وذلك بتحريك صفة التحريم زمنيا عن مواعيدها فيما يطلق عليه "النسيء" حيث كانت الأشهر الحرم معظمة في شريعة إبراهيم، واستمر ذلك باقيًا، فكان العرب قبل الإسلام يعظمونها ويحرمون القتال فيها، وهي مواعيد دورية موسمية محددة ومعرفة في كل سنة، ثم بدأ العرب باستخدام النسيء في تقويمهم، بهدف تأجيل الأشهر الحرام في بعض السنوات أو تعجيلها حسب ما يناسب حاجاتهم لأن حياتهم كانت قائمة على الحرب والإغارة، وهي مصدر دخلهم. وقد ذكر هذا التلاعب في القرآن بصيغة الاستنكار والتحريم، فقال تعالى: (إِنمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ)٣٧/ التوبة... ألا يعتبر ذلك عودة من العرب إلى ما هو أسوأ مما كان قبل الإسلام؟ فالله تعالى وصف النسيء بأنه زيادة في الكفر، وكان النسيء هو تأجيل أو تعجيل الأشهر الحرم الموقوف فيها القتال، وجاء الإسلام وحكم بالكفر على مجرد التلاعب بهذه المواعيد، فهل هناك منطق يقول بأن الله رجع في كلامه ونسخ ما قاله وأحل للعرب كل الشهور وألغى فكرة الأشهر الحرم ؟ إذ كان النص القرآني جاء لتأكيد تحريمها وتجريم مخالفة هذا التحريم ! هل لمجرد أن الصحابة لم يلتزموا بهذا التحريم فيصبح كلام الله لاغيا ؟ !!

فالعرب جعلوا مهمتهم هي الإغارة كما كانت قبل الإسلام، جعلوها جهاد، وإذا كان كفار قريش قد خالفوا الأشهر الحرم بالنسيء فقد جاء الصحابة الكبار بنسيء جيد هو نسخ كتاب الله بآرائهم الشخصية، فأزالوا الحدود الزمنية للقتال وجعلوه مفتوحا مطلقا، وأزالوا الحدود الشرعية للحرب وجعلوها دورهم في الحياة لنهب الشعوب والسطو عليها.. لم يشغلهم من لقاء ربهم شيء بقدر انشغالهم بالنهب والسلب والعدوان.. بينما كان أجدادنا المصريين قبل أن يصلهم الدين يتفكرون دائما في "كيف سنقابل الرب؟ وكيف سيكون حسابنا؟ .. فها هو الملك «خيتي» يقدم لابنه «مري كا رع» نصائح ثمينة؛ يدعوه فيها بأن يعمل لآخرته ولا يغتر بدنياه، فيقول: لا تجعل عقيدتك في طول الحياة الدنيا ولا تغتر بها؛ فإن وقت الحياة الدنيا قصير كساعة واحدة على الأرض، ولا يبقَ للإنسان في آخرته إلا عمله فهو كالكنز الثمين. ويحذره من طول الأمل ونسيان الآخرة؛ فيقول: لا تثق بطول السنين، فإن الحياة كأنها ساعة، وإن الإنسان ليبقى بعد الموت وستكون أعماله إلى جانبه، وأما من يأتِ إلى قضاة الموتى مبرأ من كل ذنب فسيكن مثل الرب، ويسير حرًا طليقا سيدًا في الدار الآخرة.

وقالوا: ومن يك على وجه الأرض خيرًا يجد في العالم السفلي خيرًا، ومن يك شريرًا يلق شرًا... أما الحكيم «آني» فيذكر ابنه بالموت ووجوب الاستعداد له؛ فيقول: أقم لنفسك قبرًا يرقد فيه جسمانك، فذاك أمر هام، لأن رسول الموت سيأتيك، وإذا أتاك؛ فإنك لن تستطيع أن تقول له: أنا ما زلت صغيرًا، فإنك لا تدري متى تحين ساعة رحيلك عن هذه الدنيا، فالموت يأتي على حين غفلة، وهو يختطف الطفل الذى يرقد بين ذراعي أمه، كما يختطف الرجل الذي بلغ من العمر عتيًا... ويتخيل الحكيم «آني» ما سوف يقوله أمام رب العدالة في الدار الآخرة، فيقول: لقد أحسنت عملي في بلدي، ولم أسئ في حق الرب، وما صدر أمر مسيء إزائي من ملك زمانه..[٦٥]. هذا كان سلوك وفكر المصريين قبل أن ينزل الإسلام، فماذا فعل العرب في إسلامهم؟

بالطبع ما فعله العرب غريبا على الإسلام لكنه ليس غريبا على العرب بل من طبعهم.. وسنتبين سبب هذا الاغتراب إذا عرفنا أن الحرب في عهد الرسول كانت لها قواعد محددة، بينما بعد رحيله وضعت لها قواعدها الجديدة من ثقافة العرب وجلبت محفزات كانت موجودة في قلب المجتمع العربي بالفطرة

---

٦٥ ـ د. حسين دقيل – أستاذ الآثار وكاتب وباحث في الأدب – مقال بعنوان " من أخلاق المصريين القدماء (١) الصدق – منشور على موقع ساسة بوست بتاريخ ١ فبراير ٢٠١٨ على الرابط التالي : https://www.sasapost.com/opinion/pharaohs/

قبل ظهور الإسلام. فالحرب في الإسلام (كما طبقها رسول الله) دفاعية فقط ومكلفة جدا، مكلفة من المال والنفس، أما في عهد الصحابة كانت الحرب مربحة جدا، وكانت هجومية، بينما الحرب في الإسلام دفاعية، أي لا يسمح الله لأي أحد بالهجوم على قوم آمنين أيا كان السبب، ولذلك نجد أن جميع المعارك التي خاضها الرسول كانت حروب دفاعية، ولم تقع بينها حرب هجومية واحدة، أما الشرط الثاني، فأن تكون الحرب في الصحارى الخالية بعيدا عن السكان والمدن المأهولة حتى لا يحدث تخريب للعمار وتشريد للأهالي، وقد أوصى رسول الله أصحابه عند التحرك للحرب، فمن هذه القواعد الأخلاقيَة العظيمة قاعدة: "عدم قتال مَن لم يُقاتِل"، وهي تابعة في الأساس لقاعدةٍ عظمى؛ وهي قاعدة تحريم الاعتداء على الآخرين بغير حقّ، أو التعدّي على الأبرياء بغير ذنب اقترفوه.

إنَ شريعة الإسلام هي شريعة الرَحمة للعالمين، وهي شِرعة العدل والسَماحة في كلِ الميادين؛ من أجل ذلك لم يكن عجيبًا أن تجدَ هذه الشريعة تأتي في مسائل القتال والجهاد بقواعدَ أخلاقيَة، ومبادئَ أدبيَة لا يملك أيُ مُنصِف إلا أن يعبِّر عن شدة احترامه وإجلاله لهذه الشريعة. من أجل ذلك قرَرت الشريعة الإسلاميَة: أنَ قتال الذين لا يشتركون في القِتال ولا يَقدرون عليه هو نوع من العدوان الذي نهى الإسلام عنه، وذمَه وحرَمه، وعدَه من الجرائم الحربيَة. ومن الأدلة على ذلك: قوله الله تعالى :(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَهِ الَذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَ اللَهَ لَا يُحِبُ المُعْتَدِينَ) ١٩٠/البقرة. روى النسائي: قال رسول الله: ((لا ترجعوا بعدي كفَارًا يضرب بعضُكم رِقاب بعض، ولا يُؤخذ الرَجل بجريرة أبيه، ولا بجريرة أخيه)). وحتى في الحرب إذا قامت، فلا يُقتل أحدٌ بذنب غيره، ولا يؤخذ ابنٌ بجريرة أبيه، أو امرأة بجريرة زوجها، ولا تزر وازرة وزرَ أخرى، وهذا أسمى معاني العدالة والرَحمة.. وعلى هذه الأسس قام النبي بصد الحملات العسكرية التي شنها العرب ضد مجتمعه، ولم يقم هو بحربٍ هجومية أبدا.

لكن العرب بعد رحيل الرسول عنهم، وبما فيهم أقرب الصحابة، انقلبوا عن المسار كما ينفلت القطار عن القضيب فيخرق الأرض ويهدم البناء ويعدم الأخضر واليابس، وانحرفت أخلاقهم وفهمهم للدين واختلفوا وتصارعوا واقتتلوا وقتلوا بعضهم في نهاية الأمر.. بدؤوا بقتل المخالفين لهم في السياسة، كما حال السعودية اليوم، ثم قتل المخالفين لهم في الدين (كما حال الرومان في عصرهم)، ثم انتقلوا إلى قتل كل من اختلف عن دينهم في البلاد المجاورة، لم يفكروا في بناء نهضة حضارية علمية، لم يستصلحوا أراضي جديدة ويزرعوها، لم ينشئوا السدود لحجز مياه الأمطار، لم ينشئوا مزارع، لم ينشئوا مصانع ولا عمارة ولا هندسة كما فعل الرومان قبلهم بألفي عام.. تفرغوا تماما للقتل وكأن

مهمة المؤمن في الحياة هي أن يتقرب إلى الله بقتل من لا يعبد الله.. لكن هذه المهنة (قتل من لا يعبد الله) لن توفر لهم رغد العيش ولا المال الوفير، غير أنها عرضة للهلاك.. ولهذا أضافوا ما يجعلها محببة لنفوسهم، فإذا كانت الحرب حملا ثقيلا في عهد النبي لأنه لا مال حولها ولا غنيمة تجزي، لأن الجهاد في عهد الرسول كان (يا أيها اللذين آمنوا جاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) أما بعد رحيله، فكان الجهاد من أجل توفير مصدر دخل ثري وغزير، ولذلك ظهرت من جديد عادات العرب في سبي النساء من المدن وخطف الأطفال والبنات، وراجت معارض وأسواق النخاسة أكثر من معارض السيارات في عصرنا. ثم يقولون للناس أن تجارة الخمر حرام !

وقد ظهرت بوادر ذلك الانحراف في الخطاب الحربي الذي وجهه خالد إلى أمراء فارس أيضا يساومهم على الإسلام أو الجزية أو القتل، فقد نقل ابن كثير رسالته التي يقول فيها:" من خالد ابن الوليد إلى مرازبة أهل فارس، سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فالحمد لله الذي فضَ خدَمَتكم وسَلب مُلككم، ووهَن كيدكم، وإنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا، أما بعد، فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إليَ بالرُهنِ، واعتقدوا مني الذمة، وإلا فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة " (ابن كثير – كتاب البداية والنهاية ص ٩/٥١٤)

بالطبع إذا وصل هذا الخطاب من قائد الأسطول السادس الأمريكي إلى خادم الحرمين الشريفين، يطالبه بدفع الجزية، فلن يفهم خادم الحرمين أبدا أن قائد الأسطول هذا جاء لينشر دين السلام ويعلم الناس عبادة الله.. سيفهم تلقائيا أنه إعلان لحالة الحرب.. وبالفعل، ولم تمر أيام حتى هاجم خالد وجيشه بلاد فارس وبعث إلى الصديق بالبشري والخمس من الغنائم.

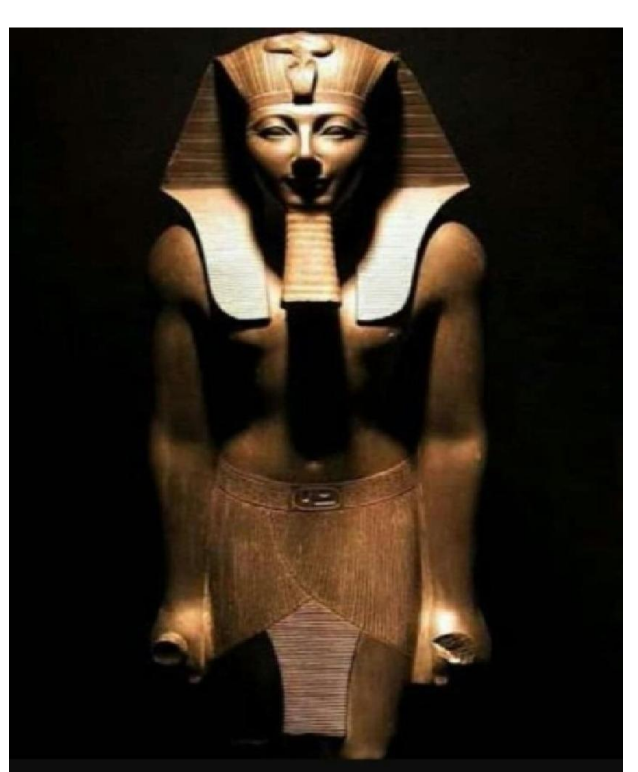
يقول ابن كثير: "ثم كانت وقعة أليس في صفر أيضا، وذلك أن خالدا كان قد قتل يوم الولجة طائفة من بكر وائل، من نصارى العرب ممن كان مع الفرس، فاجتمع عشائرهم، وأشدهم حنقا عبد الأسود العجلي، وكان قد قتل له ابن بالأمس، فكاتبوا الأعاجم فأرسل إليهم أردشير جيشا مددا، فاجتمعوا بمكان يقال له : أليس، فبينما هم قد نصبوا لهم سماطا فيه طعام يريدون أكله، إذ غافلهم خالد بجيشه، فلما رأوه أشار من أشار منهم بأكل الطعام وعدم الاعتناء بخالد، وقال أمير كسرى، واسمه جابان: بل ننهض إليه، فلم يسمعوا منه، فلما نزل خالد تقدم بين يدي جيشه

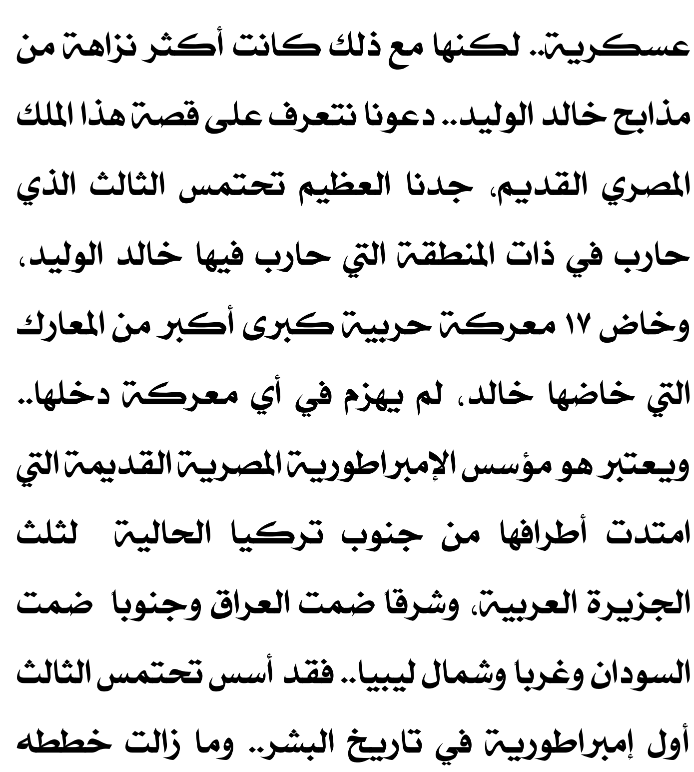
ونادى بأعلى صوته لشجعان من هنالك الأعراب: أين فلان، أين فلان؟ فكلهم نكلوا عنه إلا رجلا يقال له : مالك بن قيس، من بني جذرة، فإنه برز إليه، فقال له خالد: يا ابن الخبيثة، ما جرأك عليّ من بينهم وليس فيك وفاء ؟ ! فضربه فقتله، ونفرت الأعاجم عن الطعام، وقاموا إلى السلاح، فاقتتلوا قتالا شديدا جدا، والمشركون يرقبون قدوم مددا من جهة الملك إليهم، فهم في قوة وشدة وكلب في القتال، وصبر المسلمون صبرا بليغا، وقال خالد :اللهم لك عليّ إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحدا أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم." (ص٩/٥٢٠)

وهنا يحضرنا التساؤل، لماذا هجم خالد على هؤلاء الناس بهذه الطريقة، هل كان ذلك ليعلمهم دينه؟ هذه الأحداث تؤكد أن الأمور كانت تسير من أجل الحرب، ولا وجود فيها لفكرة الدين، بل إن خالد الذي أوصاه الخليفة بأن يتآلف الناس، بدأ خطابه مع أحدهم الذي خرج له: (قال له خالد: يا ابن الخبيثة، ما جرأك عليّ من بينهم وليس فيك وفاء ؟ ! ثم ضربه خالد فقتله، فنفر الناس عن طعامهم) ونتساءل ما علاقة الدين الإسلامي بهذه الطريقة البشعة، ولماذا يهجم على الناس في بيوتهم ويبدأ بالسب والشتم والقتل؟ غير أن خالد الوليد كانت فلسفته في الحياة غريبة جدا، كان يرى أن قتله الناس غير المسلمين يتقرب به إلى الله، ولذلك نجده يقسم بالله نذرا على نفسه ويقول: اللهم لك عليّ إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحدا أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم" ! فقد عقد نذرا على نفسه إن انتصر عليهم أن يقتل ما تبقى منهم جميعا ثم يصب دماءهم في النهر ! لينتشر في البلاد .. فهل هكذا ينتشر الدين في البلاد؟

في الواقع فإن خالد الوليد خرق كل القواعد الإنسانية حتى المتعارف عليها في عصره، والغريب من خالد أنه حتى تجاوز أعراف العرب بعدما تجاوز حدود الدين، كان خالد يفطر رمضان ويحارب في الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال (ابن كثير). والعرب كانت تكره الزواج خلال فترة الحروب، لكن خالد تزوج من فتاة كان يحارب أهلها.. وبعدما استسلموا وضع شرطا في عقد الصلح والاستسلام هو أن يتزوج ابنتهم ! حدث ذلك خلال الحرب الردة، بل إن خالد كلما أعطي أحد الأمان غدر به وقتله، ولم يثبت تاريخه أنه صان وعده ولو مرة واحدة، وهذا ليس من شيم العرب في الجاهلية، فكيف يكون من شيم الإسلام؟ والإسلام وجميع الشعوب بالفطرة لا تميل لفكرة قتل الأسرى، أما خالد فقد قتل أسراه المدنيين غير المقاتلين فقط من أجل إشباع غريزة القتل والشعور بنشوة الانتصار، والفقهاء يعتبرونه بطل

قومي لمجرد أنه انتصر في ١٧ معركة متواصلة، وكأن الله نصره لأنه مؤمن حقا ! بينما النصر ليس له علاقة بالإيمان لأن خالد نفسه انتصر علي المسلمين أيما كان كافرا في معركة أحد، فهل كان وقتها مؤمن متخفي؟ فتحقيق النصر يرجع للأسباب القوة والظروف ومدي الإتقان في الحرب أيا كان دين المحارب.. غير أننا اعتدنا أن نحتفل بخالد باعتباره بطل قومي حقق انتصارات على كثير من الشعوب، ولا ننظر في الجانب الإيماني تماما، فهل كان خالد مؤمنا حقا ؟ هل قرأ آية من كتاب الله؟ هل روى حديثا عن رسول الله؟ لا أحد يعرف، فقط جميعنا يعرف أنه قتل الأعداء وانتصر في الحروب، وطالما انتصر في الحروب فهو جزء من التاريخ وليس من الدين، بغض النظر عن شرعية هذه الحروب، لأن الجيوش بوجه عام لا تحترم إلا الانتصارات أيا كانت مشروعية هذه الانتصارات، وبوجهٍ عام نحن نحتفل بكل نصر حتى ولو كان المنتصر مجرما.. فخالد الوليد انتصر في ١٧ معركة ولم يهزم في أي معركة دخلها، لكنه ليس لديه أي رصيد معرفي من الدين ولا أي رصيد من الإنسانية أو الرحمة، ومع ذلك بقي هو فخر الفقهاء !

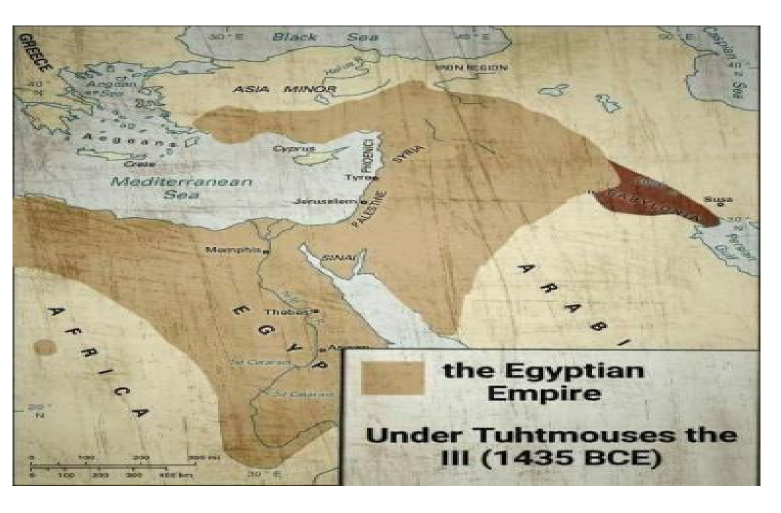




فهناك بطولات كثيرة في التاريخ، لكنها لا تدعي كونها بطولات دينية.. فقط هي انتصارات عسكرية.. لكنها مع ذلك كانت أكثر نزاهة من مذابح خالد الوليد.. دعونا نتعرف على قصة هذا الملك المصري القديم، جدنا العظيم تحتمس الثالث الذي حارب في ذات المنطقة التي حارب فيها خالد الوليد، وخاض ١٧ معركة حربية كبرى أكبر من المعارك التي خاضها خالد، لم يهزم في أي معركة دخلها.. ويعتبر هو مؤسس الإمبراطورية المصرية القديمة التي امتدت أطرافها من جنوب تركيا الحالية لثلث الجزيرة العربية، وشرقا ضمت العراق وجنوبا ضمت السودان وغربا وشمال ليبيا.. فقد أسس تحتمس الثالث أول إمبراطورية في تاريخ البشر.. وما زالت خططه الحربية تدرس في أكبر الكليات العسكرية في العالم المتحضر.. نابليون ومونتجمري وحتى الإسكندر الأكبر قلدوا خططه واستنسخوها لينتصروا علي أعدائهم..

تحتمس أول قائد حربي ينشئ مخابرات حربية تتقدم القوات وتستطلع الطريق بل مخابرات داخل مدن الأعداء نفسها.. وأول قائد حربي في تاريخ البشر يشن هجوم متزامن من البحر والبر معا في حربه علي ملوك سوريا. وقلده الإسكندر الأكبر وكل قادة الجيوش الحديثة .. وكان أول من اختار الطريق المنحدر الصعب الوعر بدل من الطريق الواسع المنبسط لمفاجأة أعدائه، فعلها في معركة مجدو شمال فلسطين وهي أعظم انتصاراته، وفتحت أمامه سوريا والعراق.. قلده فيها نابليون في معركة اوسترليتز علي النمسا، وقلده فيها الجنرال البريطاني اللنبي في الحرب العالمية الأولى، فاللنبي سلك نفس الطريق الضيق الذي اختاره تحتمس في معركة مجدو وفاجأ الجيش التركي وانتصر عليه انتصارا ساحقا في شمال فلسطين في نفس مكان معركة مجدو القديمة، وقال بالنص في مذكراته :" لقد قرأت ودرست معركة مجدو وقلدتها بالحرف.. وعندما سبب الأعداء لتحتمس المتاعب في غرب العراق الآن وظنوا أنه لن يطولهم وهم معسكرون خلف نهر الفرات وليس معه سفن ليعبر بها صحراء الشام ونهر الفرات..

صمم تحتمس والمصريون العباقرة مراكب يمكن تفكيكها وتركيبها ثانية مثل الميكانو وعبر بها جدودنا الصحراء وأجزاء المراكب علي ظهورهم وظهور الثيران ثم أعادوا تركيبها علي ضفاف نهر الفرات و عبروا بها و فاجأ تحتمس غرماءه وهزمهم وضم العراق لمصر.. وفي العصر الحديث قلد المارشال مونتجمري خطة تحتمس الثالث حرفيا ليعبر نهر الراين بمراكب مفككة أجزاء ثم تجميعها علي ضفاف نهر الراين ليهزم ألمانيا النازية، وكتب في مذكراته:" لقد أتبعت خطة الملك تحتمس التي درستها في الكلية الحربية بالنص.." ولأول مرة في تاريخ البشرية لم يقتل ملوك أعدائه المهزومين بل أحضر أولادهم لمصر ورباهم وعلمهم بعلوم وحكمة وإنسانية مصر، ثم أعادهم لبلادهم ليحكموها تحت النفوذ المصري، واستمر ملوك سوريا والشام كله لقرون طويلة يرسلون أولادهم للتعليم في المدارس المصرية، يتعلموا العلم والحكمة والحضارة من جدودنا ويرجعوا لبلادهم فيحكموها باسم مصر بعد أن أحبوها وعرفوا قيمتها وحضارتها وعظمتها، فحل السلام والرفاهية في منطقة الشرق الأوسط لحوالي ألف عام



بعد وفاة هذا الرجل العظيم لأول، كما توضح الخريطة.. امتدت سيادة الدولة المصرية إلى أجزاء شاسعة من شبه جزيرة العرب.. لكنها كانت الخطيئة العظمى لجدنا تحتمس.. فلم يدرك أنها غصن الشوك.. فلم يتوقع لحظة أن إمبراطوريته العظيمة هذه من الممكن أن يجلس على عرشها أعرابي من قبيلة بني كلب من سلالة قريش يوما ما بعد آلاف السنين... لكن هكذا التاريخ لا يكذب، وإن تجمل بعض الأحيان. وكل ما في الأمر أن العرب بنوا دولتهم من المال الحرام بينما الفراعنة بنوا دولتهم بشرف.



نعود إلى هولاكو العرب.. حيث يقول ابن كثير: ثم إن الله، منح المسلمين أكتافهم، فنادى منادي خالد : الأسر ، الأسر ، لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر. فأقبلت الخيول بهم أفواجا يساقون سوقا، وقد وكل بهم رجالا يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم خالد يوما وليلة، ويطلبهم في الغد ومن بعد الغد، وكلما حضر منهم أحد ضربت عنقه في النهر، وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر، فقال له بعض الأمراء: إن النهر لا يجري بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم فيجري معه، فتبر يمينك (قتل الأسرى من أجل بر اليمين!!) . فأرسله فسال النهر دما عبيطا ، فلذلك سمي نهر الدم إلى اليوم ، فدارت الطواحين بذلك الماء المختلط بالدم العبيط ما كفى العسكر بكماله ثلاثة أيام ، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفا". !

بينما في عام ١٨٥٩م وقف الشاب السويسري "هنري دونان"، متأثرا بما خلفته معركة سولفرينو الدامية في إيطاليا بين جيش بلاده النمساوي والاتحاد الفرنسي. حيث خلفت المعركة ما يقارب من ٤٠ ألف ضحية في ميدان المعركة، بين قتيل وجريح، وعانى فيها الجرحى من نقص الرعاية الطبية. حاول هنري إسعاف الجرحى وتضميد جراحهم وآلامهم.. وقف عاجزا بين صرخات الجنود وآلامهم.. حاول هنري الاستعانة بالسكان المحليين لتضميد جراح الجنود ، وإطعامهم، والعمل على راحتهم. لكنه عجز عن توفير الرعاية الصحية لهم.. فصرخ في العالم صرخته.. أن أغيثوا جرحى ومصابي الحروب.. نادى بإنشاء جمعية وطنية للإغاثة تهدف لمساعدة جرحى الحروب.. كان هذا النداء هو البذرة التي بنيت على أساسها معاهدة جنيف لإغاثة جرحى الحروب، بعدما انضم مجموعة من رجال الأعمال إلى اللجنة واتفقت ١٢حكومة على معاهدة جنيف الأولى؛ والتي تشكل علامة فارقة في تاريخ الإنسانية..

وتحولت لجنة الإغاثة الدولية هذه فيما بعد إلى منظمة الصليب الأحمر، ونشأ نظيرا لها في الوطن العربي منظمة الهلال الأحمر..

رحل هنري وترك للإنسانية إرثا عظيما من الرحمة ساهم في الكثير من المواثيق الدولية لحفظ حقوق الإنسان، بينما ترك خالد الوليد للمسلمين إرثا غير إنساني بالمرة.. وما الفارق بين خالد وهنري إلا أن خالد نشأ في المجتمع العربي القرشي وتدرب على الفروسية والقتل والإغارة، بينما هنري علمته والدته قيم الإنسانية، حيث كانت تعمل ووالده في خدمة المرضى والأيتام.

ونحن نتساءل هنا حول ما فعله خالد الوليد وما زال المسلمون يتفاخرون به باعتباره بطلا قوميا أعز الإسلام والمسلمين، هل يكون بر اليمين بقتل سبعين ألف إنسان وصب دمائهم في النهر بهذه الطريقة البشعة؟ فأين كانت الإنسانية وأين كان الدين الذي أباح لخالد أن يفعل بالناس هكذا؟ ولماذا يقتل الأسري أصلا؟ لماذا لم يجلس إليهم ويخطب فيهم أو يعلمهم شؤون دينه إذا كان قد ذهب لنشر دين أصلا، فأين هو الدين الذي يقوم بنشره؟.. إذا كان الله يقول في كتابه: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ... (٤)/محمد. بما يعني أن أمر الله جاء مباشرا، في حال قيام حرب، بأن يضرب المسلمون على الكفار حتى إذا تمكنوا منهم يقومون بتقييد الأسرى، وبعد ذلك يتم العفو عنهم منا وفضلا ، أو أن يأخذ منهم فدية لإطلاق صراحهم.. لكن خالد لم ينتبه إلى كتاب الله وتعامل مع شعوب الأرض كما لو كانوا جميعا أعداء لمجرد اختلافهم عنه في الدين، حتى لم يحترم تعاليم الدين بشأن معاملة الأسرى، بل أمر بذبحهم واحدا تلو الآخر وصب دمائهم في النهر كي تختلط بالمياه وتدور الطواحين وينتشر الرعب بين سكان المدن والقرى لمنظر النهر بلون الدماء فيدفعهم ذلك لاعتناق الدين !.

من حق هؤلاء الدواعش أن يعيدوا تجسيد مشاهد التاريخ العربي مرة أخرى عمليا ليسترجعوا أيام المجد الإسلامي القرشي، ومن حق الفقهاء أن ينظروا لذلك ويبحثوا في الأدلة، حتى أننا نقرأ للسيد أبي البراء النجدي ـ أحد جنود داعش ـ رسالة سماها "إسعاد الأخيار في إحياء سنة نحر الكفار" حاول فيها أن يثبت مشروعية ذبح الإنسان. ! والغريب أنهم يحتجون بحديث روي عن عمرو العاص أن النبي (ص) قال لقريش: " والذي نفس محمدٍ بيده، جئتكم بالذبح ". فهل نفهم أن النبي قال لهم " اذهبوا فأنتم الطلقاء" ؟ استنادا بقوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).؟ أو إلى ما قيل له ص : يا رسول الله، ادع على المشركين، فقال: إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة" ؟ أو إلى دعاءه الدائم لهم " اللهم اهدِ قومي فإنهم لا

يعلمون." ؟. أم نفهم من العرب أن النبي قال لهم : " والذي نفس محمدٍ بيده، جئتكم بالذبح ". والمشكلة كلها أمامه في هذه الرسالة العلمية، ليست في مشروعية القتل من عدمه، وإنما هل يكون القتل فقط كافٍ، أم فيها حز الرأس؟

أذكر واقعة تفسر لنا معنى الإنسانية والإسلام بمفهوم المصريين لا العرب، حيث كان لاعب الجودو المصري محمد رشوان يلعب في أولمبياد لوس أنجلوس ١٩٨٤وفاز باكتساح في الأدوار التمهيدية وفوجئ الجميع وفرحوا أن ابن مصر سيلعب المباراة النهائية، وكانت مصر لأول مرة في التاريخ تتأهل للحصول على ميدالية أوليمبية، إما ذهبا أو فضة وبدأت الصحف تكتب والإذاعات تتحدث والتليفزيون يهلل باسم البطل، وبسرعة البرق عرفه كل المصريين وتم نقل المباراة على الهواء مباشرة وسهر الشعب المصري يتابع ويدعى للبطل، أن يكسب الذهب، برغم أنه كان يلاعب بطل أبطال العالم الياباني الرهيب ياماشتا.

لكن مع بداية المباراة لوحظ شيئا غريبة جدا.. فمحمد رشوان كان أثناء الالتحام مع خصمه الياباني يمتنع عن ضرب خصمه في القدم، وهذا شيء عجيب في الجودو.. خسر أكثر من نقطة، وهنا سمع العالم كله صراخ مدرب رشوان وهو يقول له:" اضربه في رجله الشمال وهات الذهب لمصر".. لكن رفض رشوان أن يضربه ولم يحاول حتى تسجيل نقطة واحدة بهذه الطريقة، وفازت اليابان بالميدالية الذهبية، في هذا العام.. بالطبع كان الجمهور المصري حزينا جدا على ضياع الذهب، ويتعجبون أكثر لماذا لم يلعب رشوان بقوته المعتادة، وكان متراخيًا ورفض تنفيذ تعليمات مدربه.. لكن سرعان ما أقيم المؤتمر الصحفي لتسليم الميداليات ووقف صحفي أجنبي يسأل محمد: لماذا لم تنفذ تعليمات مدربك كي تفوز بالذهبية؟

فرد رشوان قائلا: "وصلتني معلومة مؤكدة بأن البطل الياباني مصابا بقطع في الرباط الداخلي للركبة اليسرى، وأن أي ركلة قوية فيها يمكن أن تدمرها تمامًا، ولكنه أخفى الخبر، وقرر اللعب والتضحية لأنه يمثل وطنه..".

فسأله الصحفي: لكن هذه كانت فرصة عظيمة، وكان أولى أن تستغلها وتحقق الفوز بالذهبية.. لماذا لم تستغل هذه الفرصة وتحصل الميدالية ؟ وهنا كان الرد التاريخي لمحمد رشوان عندما قال: ديني يمنعني أن أضرب مصابا وأهدد مستقبله من أجل ميدالية! لكن خالد ابن شبه الجزيرة

العربية لم يمنعه دينه من قتل سبعين ألف إنسان وصب دمائهم في النهر ليرهب به الباقين فيجعلهم يدخلون في دينه أفواجا !

وفى هذه اللحظة وقف الجميع يصفقون طويلا للبطل المصري المسلم، وكرمته اليونسكو على تلك الأخلاق العظيمة، واختير كصاحب أفضل أخلاق رياضية بالعالم، ومنحته اللجنة المنظمة ذهبية فخرية لكونه يستحقها فعلا، وذاع صيته في العالم كله، وكرمه «اليابانيين» بشكل خاص واستقبلوه كملك متوج.. لأنه عرف معنى الإنسانية، رفع دينه وأخلاقه فوق اعتبارات النصر الزائفة.. فحقق شهرة عالمية لدينه وأخلاقه، وصار الإسلام حديث الدنيا.. ظل اسمه موسوما بوسام الشرف في سجلات الأمم المتحدة، بينما خالد ابن الوليد تصفه ذات المنظمة ومواثيق حقوق الإنسان بأنه "مجرم حرب".. برغم أننا نعتبره صحابي جليل، سعى لنشر دينه وعاش في عهد النبي محمد عليه السلام، لكن ذات السجلات بالأمم المتحدة تصف النبي محمد بأنه أعظم الشخصيات في التاريخ ! ٦٦ بينما تضع خالد

٦٦ ـ قد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم أن مصطلح " مجرم حرب " تم إطلاقه في هذا السياق بغرض الإساءة لشخص محدد أو استهداف شخص محدد، لكن الأمر في الواقع منفصل الصلة تماما عن الأشخاص واحترامها وموقعها التاريخي، إنما الأمر يرتكز على التكييف الفعلي والقانوني للحدث أو الوقائع ذاتها من منظور إنساني بغض النظر عن شخص الفاعل تماما، وإنما الفعل نفسه الذي من شأن أن يتكرر في كل عصر، فهل كان الفعل جريمة حرب أم حق شرعي؟ لأن تكييف الوقائع إنما يبدأ بتشريح جثة الجريمة وإعطائها الوصف القانوني الصحيح وما إذا كانت جريمة زنا أو اغتصاب أو ضرب أو قتل، فجريمة القتل تكون فردية أو تضم عدد قليل من الأفراد، أما إذا وقع القتل على عدد كبير من الأفراد فذلك لا يمكن تكييفه على أنه جريمة قتل وإنما جريمة حرب، لأنها ضمت عدد كبير من الأشخاص، بشرط أن يكون القتل من الأساس غير مشروع، إنما إذا كان القتل مشروعا كأن كان دفاعا عن النفس أو الوطن فلا يعتبر جريمة وإن تعدد الأشخاص.. فالتساؤل يثور هنا حول مشروعية قتل هذا العدد الرهيب من الأشخاص الذين قتلهم خالد الوليد إذا كان الجهاد في الإسلام ينحصر فقط في حدود الدفاع الشرعي، فهل كان قتل خالد لهم من باب الدفاع عن نفسه ووطنه فيصبح قتلهم مشروعا؟ أم بدأ هو بالهجوم عليهم فيكون قتلهم جريمة؟.. غير أن الدراسة التحليلية تدور فقط في حدود السياق التاريخي وتعتمد فقط على مصداقية المراجع التاريخية العربية الإسلامية، فإن كذب مؤلفو هذه المراجع فالعهدة عليهم والمسؤولية عليهم أمام الله.. وأيا كان الأمر فليس الغرض من هذه السطور الإساءة إلى الأيقونات والشخصيات التاريخية المقدسة، لأن تقديس هذه الشخصيات في حد ذاته لا ضرر منه بطبيعة الحال حتى وإن كان خطأ، فلكل إنسان حرية الرأي والفكر والاعتقاد، وغير مسموح الإساءة إلى مقدسات شخص ما لمجرد أنها ليست حقيقية مثلا، ولا مسموح تجريح مشاعر الناس بالإساءة إلى من يحترمونه ويعظمونه، إنما الأمر فقط في حدود التكييف الفقهي للوقائع وما يجب من الأفعال أن يكون نموذج أمثل أو لا يكون، بمعني؛ هل يجوز شرعا تكرار الأفعال التي قام بها خالد ابن الوليد بمحاصرة سبعين ألف إنسان وذبحهم وصب دمائهم في النهر لترويع باقي سكان المدن والقرى كي يدخلوا الإسلام؟ مع أن هؤلاء البشر لم يهجموا وإنما دافعوا عن أنفسهم بحفر خندق حول مدينتهم لصد هجوم خالد فقام بذبح الخيول والجمال ووضعها في الخندق ليعبر عليها جيشه ويبدأ في محاصرة الناس وذبحهم، فهل يجوز تكرار تلك الأحداث باعتبارها بطولات مشروعة؟ أم أنها في نظر مواثيق حقوق الإنسان تعتبر جريمة حرب؟ وهل يجوز شرعا تكرارها كما فعلت داعش أم أنها تظل مجرد تراث في الكتب للافتخار به فقط باعتبارها بطولات إسلامية أيام عز الإسلام ومجده؟ .

ابن الوليد وهتلر في خانة "مجرمي الحرب" فنحن نجعل من خالد صحابي قرين رفيق للنبي محمد، بينما خالد قتل نصف مليون إنسان في سنة والنبي لم يقتل ولم يؤذ إنسان حتى في مشاعره !!

وفي عام ٢٠١١ اجتمع مجموعة من خبراء القانون وحقوق الإنسان في مدينة مساتريخت الهولندية واتفقوا على وضع المبادئ المتعلقة بالالتزامات الخارجية للدول في مجال الحقوق الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، فبعد ظهور العولمة الاقتصادية وامتداد أثر الدولة (ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا) إلى شعوب خارج نطاقها الإقليمي، بدت ردة فعلٍ مقابلة لأبناء هذه الشعوب، حيث ظهرت عولمة لحقوق المواطن (ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا) يمكنه أن يستمدها من خارج النطاق الإقليمي لدولته.. ونتيجة لتزايد أثر الدول خاصة في المجال الاقتصادي تزايدت حاجة الشعوب إلى مبادئ إنسانية ذات طابع عالمي كي تحفظ حقوقها، ومن هنا ظهرت المبادئ التي تلقي بالتزاماتٍ دوليةٍ لحماية حقوق الإنسان(ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا) مثل حق العمل وتوفير ظروف معيشية ملائمة وضمان الرعاية الاجتماعية والغذاء والسكن والتعليم والصحة وبيئة ثقافية. وقد اعترفت الدول بهذه الحقوق وقبلتها كالتزاماتٍ عليها خارج نطاقها الإقليمي، وبمساعي خبراء القانون وحقوق الإنسان أمكن التوصل لمبدأ؛ (لكل فرد الحق في التمتع بنظام اجتماعي دولي) أي وضع قاعدة يشترك فيها جميع المواطنين من جميع الشعوب تضمن الحد الأدنى للحياة الإنسانية الكريمة أيا كان موطن الشخص. وقد تأكد ذلك في إعلان وبرنامج فينا، وتجدد التأكيد على هذه المبادئ في إعلان الألفية، فاستقر بذلك نظام دولي قائم على مبادئ المساواة بداية من (حق تقرير المصير للشعوب والسلم، والديمقراطية، والعدل وسيادة القانون، والتعددية، والتنمية، وتحسين مستوى المعيشة، والتضامن). وتجسد هذا النظام الدولي الإنساني في عدة محافل دولية واتفاقيات ومواثيق للأمم المتحدة، وصولا إلى صكوك حقوق الإنسان العالمية، وقد استكملت هذه المبادئ بناءً على مبادئ ليمبورج١٩٨٦ الخاص بضمان الحقوق، ومبادئ ماستريخت١٩٩٧ الخاص بانتهاك الحقوق.

وتدور المبادئ العامة في محورٍ إنساني يبدأ من حيث ميلاد الإنسان حرا كريما، ومن ثم تنطلق المبادئ لتعميم هذه الحرية والكرامة بضمان الطرق والوسائل التي تضمن بقاءها لصيقة بشخصية المواطن مهما اختلف موطنه أو جنسه بما يضمن (الحرية لكل إنسان، والمساواة، والكرامة، وعدم التمييز). وبعد استقرار هذه الحقوق يأتي إلزام الدول (بصفتها القادرة على التحكّم في هذه الحقوق) بضمان تطبيق حقوق الإنسان الثقافية والاجتماعية والسياسية والمدنية داخل وخارج نطاق ولايتها

الإقليمي. وأصبحت بذلك حقوق الإنسان ذات طابع عالمي موحد (تساوي جميع الأشخاص على مستوى العالم في ذات الحقوق تساوي الحقوق ذاتها مع بعضها في درجة الأهمية بالنسبة لكل إنسان) فأصبحت بذلك حقوق عالمية موحدة مشتركة مترابطة متشابكة غير قابلة للتجزئة من حيث كونها حقوق، وأيضا من حيث كونها التزامات يقع على عاتق جميع الدول تطبيقها داخل وخارج نطاقها الإقليمي.

هكذا تفكر الشعوب المدنية في صياغة دساتير العالم ومواثيق حقوق الإنسان، حيث يبذل الخبراء قصارى جهدهم في حماية حقوق الإنسان في دول أخرى وليس فقط في مجتمعاتهم، فهل فكر الصحابة الكرام في حماية حقوق الإنسان في فارس والعراق التي قتلوا من أبنائهم نصف مليون إنسان خلال سنة واحدة من الفتوحات في عهد أبي بكر وسبوا وخطفوا ضعف هذا العدد نساء وأطفال واستعبدوهم وباعوهم في أسواق النخاسة؟ إذ هم كانوا ينتهكون حقوق الإنسان في بلادهم وبلاد غيرهم، وفي تفسير قوله تعالى" يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم" قالوا أنها أمر إلهي للمؤمنين بقتال الشعوب المجاورة لهم بالدور؛ أي الأقرب فالأقرب... ! بينما الآية تأمرهم بتخليص أنفسهم من المنافقين. فما علاقة العرب بالإسلام أو ماذا يعرفون عنه. في الواقع إن العرب تلقوا من النبي جرعة العلاج ولفظوها عند وفاته ولم يبق في جوفهم منه شيء.. هم فقط فكروا في شيء واحد هو كيفية توظيف هذا الدين فيما يخدم طموحاتهم وأطماعهم ورغباتهم، حتى أنهم فسروا كتاب الله بما يعبر عن مكنون أنفسهم.

لدرجة أننا نجد خبراء الدين والعقيدة الفقهاء والمفسرين في قوله تعالى " وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (الفلق ٣) يقولون: من شر قضيب الرجل إذا انتصب !!! قال ابن عباس في كتاب النقاش: الغاسق إذا وقب: ذكرُ الرَجل٦٧. وقال آخر: المعنى من شر الذكر إذا قام(٦٨) وقال ثالث: بأن الغاسق إذا وقب يعني بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه(٦٩) . وعن ابن عباس: في قوله تعالى " ومن شر غاسق إذا وقب " قال: هو قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله

٦٧ ـ نقلا عن المستشار أحمد ماهر ـ تفسير "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" / ابن عطية

٦٨ ـ وفي تفسير "تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة" / الجنابذي

٦٩ ـ كتاب إحياء علوم الدين ـ الجزء الثالث ـ تجد مكتوبا بكتاب كسر الشهوتين ـ الكاتب: حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي الشافعي

عليه وسلم إلا أنه قال في تفسيره: الذَكَر إذا دخل. وقال رابع :" غاسقٍ إذا وقب" ومعناه: أيرٍ "قضيب إذا قام" حكاه الغزاليُ وغيره، عن ابن عباسٍ[٧٠] . وقال خامس: من شَرِّ الذَكَرِ إذا قام[٧١] . وقال خامس: من شر غاسق إذا وقب إنه الذكر إذا انتصب[٧٢] . وقال سادس: وقب : معناه : أير أي الذكر إذا قام . حكاه الإمام أبو حامد الغزالي وغيره كالنقاش في تفسيره وجماعة عن الإمام الحبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[٧٣] .

يقول المستشار أحمد ماهر أن المشكلة بين العرب وبين ابن عباس وابن عطية ومفسري القرآن كانت في أن قضيب الرجل إذا قام أو دخل أو إذا انتصب.. لكنهم اتفقوا على أن الغاسق هو قضيب الرجل ولعل هذا هو السبب في أنهم أطلقوا لقب [حبر الأمة الأعظم] على ابن عباس.. ونقرأ في تفسير الطبري:معناها : من شر الليل إذا أظلم. وبتفسير الجلالين: ومن شر غاسقٍ إذا وقب: أي الليل إذا أظلم أو القمر إذا غاب. وقال آخرون: هو كوكب. وكان بعضهم يقول: ذلك الكوكب هو الثريا. وفي تفسير السعدي: غاسق إذا وقب: أي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية... يعني من الممكن أن يختلف خبراء القانون حول تفسير مادة أو عبارة أو كلمة في نصوص المعاهدات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، لكن هل يصل الخلاف بينهم إلى هذه الدرجة من الانحراف؟ أليس هناك أي ضوابط؟ ولا غاية ولا سبب موضوعي ولا معنى؟ ثم أن الآية عبارة عن بيان من الله إلى النبي محمد عليه السلام يبدأ بالأمر "قل " في سورة قصيرة آياتها خمس، يقول تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ(٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ(٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)/ الفلق.. ونلاحظ أن جميع الآيات تتحدث عن الاستعاذة بالله من الشر والضرر والوسوسة، فما علاقة كتاب الله بقضيب العرب

---

٧٠ ـ القاموس المحيط والقاموس الوسيط لما ذهب من كلام العرب شماميط ـ حرف الباء ـ فصل الواو ـ الكاتب: الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.

٧١ ـ القاموس المحيط والقاموس الوسيط لما ذهب من كلام العرب ـ حرف القاف ـ فصل الغين ـ الكاتب: الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي

٧٢ -كتاب: الإتقان في علوم القرآن ـ النوع الثامن والسبعون في معرفة شروط المفسر وآدابه.. الكاتب: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين ، الخضيري ، المعروف بـ جلال الدين السيوطي

٧٣ -كتاب: تاج العروس من جواهر القاموس ـ الكاتب: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني

إذا انتصب؟ هل نتوقع أن يقول الله لنبيه أن يستعيذ من القضيب إذا انتصب؟ !! ثم يدورون ويختلفون حول هل أن القضيب انتصب أم قام أم دخل !! برغم أن كلمة الغاسق تعني: الغموض المصاحب للخطر، وكلمة "وقب" تعني الحلول والاقتراب، أي أن المراد(من شر وساوس الشيطان الخفية إذا ما دخلت علي النفس) و وكل ذلك يناسب سياق الآيات والمعنى من الاستعاذة من شر ما خلق ومن الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس... لكن ربما ما كان يوسوس في نفوس العرب هو الجنس وانتصاب وقيام القضيب، ولهذا زادت أعداد السبايا.. فهل هكذا كانت رؤية العرب للقرآن ؟

وفي تفسير قوله تعالى: {إِنَّ أَصحَابَ الجَنَّةِ اليَومَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ } يس٥٥؛ قالوا " وهو افتضاض الأبكار، على شط الأنهار، تحت الأشجار، أو سماع الأوتار في ضيافة الجبار.." واختلفوا في معنى الشغل، قال ابن عباس: في افتضاض الأبكار.. وقال وكيع بن الجراح: في السماع.. وفي تفسير الرازي: افتضاض الأبكار ومداعبة الكواعب.. وفي تفسير السعدي: في شغل مفكه للنفس، مُلِذٍّ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذه العيون، ويتمناه المتمنون. ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات..
(في الواقع مثل هذه الفلسفات العقيمة هي ما تجعل فقهاء الإسلام اليوم في حالة دفاع عنه وليس تبشير به وانتشار له، فحالة الدفاع ذاتها تعني أنه في انكماش وليس انتشار، لكنهم لم يدركوا سبب عدم قدرتهم على الانتقال به من حالة الانكماش إلى حالة الانتشار)

دعونا نعود إلى الغزوات والفتوحات أفضل، لأن أفضل تطبيق عملي لفض الأبكار وافتضاض العذارى الجميلات كان في السبي والجهاد وليس في مواثيق حقوق الإنسان ومبادئ ماستريخت، فهل مجرد اعتراف الأزهر رسميا بأن الجهاد في الإسلام إنما هو دفاعي فقط، وفي حدود الدفع الشرعي عن حق الوجود، والتأكيد على ذلك بأن جميع المعارك التي تعرض لها النبي لم تكن غزوات وإنما كانت معارك دفاعية ولم تتجاوز حدود الدفاع الشرعي، أن ذلك حتما سيدفعه بعد مائة وعشرين عاما للاعتراف بأن خالد ابن الوليد مجرم حرب ولم يكن مجاهدا في سبيل الله؟ أم أنه سيظل مجرم حرب في نظر مواثيق حقوق الإنسان، وفي الوقت ذاته بطلا قوميا للمسلمين؟ وهل معنى ذلك أن يعيش كل المسلمين على مستوى العالم باعتبارهم مجرمي حرب في نظر هذه المواثيق؟ طالما أنهم يؤدون فعلا من جرائم الحرب ويعتبرونه دينا مقدسا لهم؟ وهل جاءت مواثيق حقوق الإنسان أكثر رحمة ورأفة بالإنسان من الدين الإسلامي؟ وهل فعلا أن الإسلام جاء رحمة وسلاما للعالمين؟ وهل فعلا أن مواثيق

حقوق الإنسان قادرة على أن تثبت للمسلمين أنفسهم أن دينهم دين سلامٍ بينما تاريخ الصحابة ليس من الإسلام في شيء؟

وهل معنى اعتراف الأزهر بأن الجهاد في الإسلام دفاعي فقط كما جاهد النبي، أن تكون فتوحات عقبة ابن نافع في شمال إفريقيا وطارق ابن زياد للأندلس جرائم حرب واحتلال وغصب وعدوان على الشعوب؟ أم أنها ستظل في كتب التاريخ المدرسية تدرس للأطفال تحت مسمى فتوحات وبطولات إسلامية وجهاد في سبيل الله، وفي ذات الكتب المدرسية نتعلم أن الجهاد دفاعي فقط وأن الإرهاب عدوان! أم أننا نعلمهم أن الفتوحات كانت الجهاد الأمثل في سبيل الله حتى إذا ما خرج لنا جيل يدمر الأوطان والشعوب بالإرهاب نعود في محاولة لتهدئة الحملات الإرهابية بالقول بأن الجهاد دفاعي فقط؟ فلماذا علمناهم في صغرهم أن الجهاد هجومي وأن الفتوحات جهاد؟ أم أن الجهاد كان دفاعي في عهد النبي، ثم أصبح هجومي في عهد الصحابة، ثم عاد دفاعي في عهدنا نظريا فقط! ونتساءل لماذا تصف مواثيق حقوق الإنسان غزوات النبي بأنها معارك دفاعية مشروعة وشريفة، وذات المواثيق تصف الفتوحات العربية بأنها جرائم حرب؟ وذات المواثيق تصف ضباط أكتوبر بأنهم أبطال عظماء ويفخر بهم العالم أجمع وليس المصريين وحدهم !

بينما يكمل ابن كثير روايته عن الإنسانية بمفهوم العرب، فيقول:" ولما هزم خالد الجيش ورجع من رجع من الناس، عدل خالد إلى الطعام الذي كانوا قد وضعوه ليأكلوه، فقال للمسلمين: هذا نفل فانزلوا فكلوا، فنزل الناس فأكلوا عشاء، وقد جعل الأعاجم على طعامهم جردقا كثيرا، فجعل من يراه من أهل البادية من الأعراب يقولون: ما هذه الرقع ؟ يحسبونها ثيابا . فيقول لهم من يعرف ذلك من أهل الأرياف والمدن: أما سمعتم برقيق العيش ؟ قالوا: بلى . قالوا : فهذا رقيق العيش . فسموه يومئذ رقاقا ، وإنما كانت العرب تسميه القرن ".

وهنا نقف وقفة سريعة حول حجم التقدم والرقي الحضاري الذي كان يعيش فيه أهل هذه البلاد، في مقابل الشظف والهمجية والجهل والانحطاط الخلقي الذي يعيش فيه العرب، بل وانعدام الإنسانية، والجوع لأن كل طير يشبعه منقاره، والنبي عليه السلام علمهم أن خيرهم من يأكل من عمل يده لا من قوت الآخرين... برغم أن الرسول بعث فيهم لنقلهم من جهلهم وغبائهم، إلا أنهم عادوا بعد وفاته يمارسون عادتهم القديمة في الهجوم والقتل والسلب والنهب. ولم يكن أهل البلاد هذه

يعتدون على ديار الإسلام ولا المسلمين بأي حال، ولم يتعرضوا لهم في طرقات حتى، كانوا آمنين، لكن العرب بقيادة خالد لا يعرفون معنى الحضارة والرقي، حتى أنهم انتشروا في البلاد للعربدة والتخريب والنهب وخطف الأطفال والنساء لبيعهم في أسواق النخاسة. وأقنعوا الناس بأنهم إنما جاؤوا لينشروا دين الله !! بينما كانت أسواق النخاسة أكثر ازدهارا من معرض القاهرة الدولي للكتاب !

ثم ينتقل ابن كثير في تأريخه لخالد في صفحة ٥١٨ فيقول: وقام خالد في الناس خطيبا فرغبهم في بلاد الأعاجم وزهدهم في بلاد العرب وقال: ألا ترون ها هنا من الأطعمات!؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الإسلام ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقاتل على هذا الريف حتى نكون أولى به ونولي الجوع والإقلال ممن اثاقل عما أنتم عليه، ثم خمّس الغنيمة وقسم أربعة أخماسها على الغانمين وبعث بالخمس إلى الصديق"

كنا نتوقع من خالد الفاتح المغوار، عندما ينتهي من قتل الكفار المشركين الأعداء الفسّاق الملحدين الوثنيين عبدة النار، أن يأوي إلى الصحابة الكرام يذكرهم بكتاب الله أو يروي لهم حديثا عن رسول الله من مئات الآلاف من الأحاديث التي حفظها.. لكنه لم يبدأ حتى خطبته باسم الله ! فقط قتل باسم الله.!. ولم يكن خالد منافقا، بل كان واضحا جدا مع نفسه ورفاقه في هذه الخطبة أشد ما يكون، إذ عبّر بكل صراحة أن الغاية من هذه الحروب ليس وجه الله ولا نشر دينه، ولكن النهب والسلب، فيقول، حتى ولو لم يكلفنا الله بالجهاد في سبيل الله لكان أولى لنا أن نقاتل أهل هذه البلاد لما فيها من رغد العيش، ذلك كله في سبيل الحصول على الغنائم والسبايا والأطفال وإن كان خالد قد أخذ وسيلته هي الدين، فقاتل الناس باسم الدين واغترف من أعراض الناس وأنفسهم وأموالهم بسيفه المسلول واعترف على ملأه بالغاية الحقيقة من قتاله... والعهدة على الراوي إن صح التأريخ.

ونتساءل عما إذا كان من قتلوا في هذه الحرب من المسلمين، هل قتلوا في سبيل الله أم في سبيل الغنيمة والجزية؟، هل أمرهم الله بقتل الناس لتحصيل الجزية؟ فكيف يكون ذلك؟ إذ أن الجزية لا تذهب إلى الله وإنما يتم توزيعها على المقاتلين وخمسها يذهب لخزانة الدولة ليوزع منه الخليفة سبايا وأسرى وفتيات وأطفال هدايا على الصحابة ! والفقراء، فكيف يكون ذلك في سبيل الله؟ فسبيل الله هو نشر الإسلام والدفاع عنه والثمن هو المال والأنفس، أما جيش خالد فقد عرض الإسلام عرضا مقتضبا على الناس وقد رفض الناس وانتهى الأمر، ثم انتقل إلى مرحلة جمع الجزية، فمن رفض

الدفع قامت عليه الحرب وبالتالي فيقع القتلى من الفريقين على الجزية وليس على الإسلام، فهل يعتبر من وقع من المسلمين قد استشهد في سبيل الله أم في سبيل الجزية ؟؟ فسبيل الله ليس له بدل في الدنيا، وأما الجزية فقد كانت توزع كغنائم على المقاتلين فكيف بمن قتل من أجل الحصول على المال أن يكون في سبيل الله؟ ثم من قتل من غيرهم ـ الأعداء ـ في سبيل الدفاع عن الوطن والأنفس والأعراض والأموال، فهل يمت محاربا للإسلام؟

يقول ابن كثير:" وكان كل من قتل بهذه الوقعة يوم أليس من بلدة يقال لها : أمغيشيا . فذهب إليها خالد وأمر بخرابها، واستولى على ما بها، فوجدوا فيها مغنما عظيما، فقسم بين الغانمين فأصاب الفارس بعد النفل ألفا وخمسمائة، غير ما تهيأ له مما قبله. وبعث خالد إلى الصديق بالبشارة والفتح والخمس من الأموال والسبي مع رجل يقال له : جندل من بني عجل، وكان دليلا صارما، فلما بلغ الصديق الرسالة، وأدى الأمانة، أثنى عليه وأجازه جارية من السبي، وقال الصديق: يا معشر قريش، إن أسدكم قد عدا على الأسد، فغلبه على خراذيله، عجزت النساء أن تلدن مثل خالد بن الوليد. ثم جرت أمور طويلة لخالد في أماكن متعددة يمل سماعها، وهو مع ذلك لا يكل ولا يمل ولا يهن ولا يحزن، بل كل ما فعله في قوة وصرامة وشدة وشهامة، ومثل هذا إنما خلقه الله، عز وجل، عزا للإسلام وأهله، وذلا للكفر وشتات شمله. (ص٩/٥٢٢)

نقف هنا وقفة أخرى مع الخليفة أبي بكر الذي استلم الغنيمة والسبايا، وأول شيء فعله أن أهدى جندل (الرجل الذي أحضر الغنائم والسبايا من خالد)، فشكره أبو بكر ومدحه وأهداه جارية من السبي !، حيث كان خالد يهجم على الناس ويأخذ أهالي المقاتلين وزوجاتهم وأطفالهم أسرى، برغم أن الله يقول "ولا تزر وازرة وزر أخرى" فإذا كان الرجال قد دافعوا عن بلادهم وأعراضهم وممتلكاتهم، واعتبرناهم مجرمين وتم قتلهم، ومن وقع منهم في الأسر أيضا تم قتله وصب دمائه في النهر ليرهب الباقين، فما ذنب زوجاتهم وأطفالهم وبناتهم؟ وكيف قبل الخليفة أبي بكر ذلك؟ وكيف أهدى جندل تلك الفتاة؟ هل أرسل خالد لخطف بنات الناس كي يوزعهم هدايا على الصحابة الأبرار؟ ..

ثم يستمر الخليفة في مدح خالد الوليد ولم يكن الخليفة أبو بكر منافقا بل كان صادقا مع نفسه وإنما نحن المنافقون؛ ذلك لأنه عندما جاءته بشرى انتصار جيش خالد توجه إلى قومه بخطاب قومي وليس ديني، (قومي يخص عرب الحجاز من قريش وليس الإسلام ولا المسلمين) فقال أبو بكر: "يا معشر قريش " ولم ينادي المؤمنين المسلمين، ثم قال لهم " إن أسدكم قد عدا على الأسد" أي أن أبا بكرٍ لصديق كان حكيما بليغا صادقا في كلامه حينما نادى قومه بالمفهوم القومي " قريش" وبشرهم أن الأسد قد اعتدى على الأسود، أي هجم على أسود العجم فهزمهم، ويعترف أنه هو من هجم واعتدى على الناس، فيقول: (إن أسدكم قد عدا على الأسد) فهل أمرنا الإسلام بالعدوان على الناس؟.. حتى ابن كثير نفسه وهو يروي ما حدث، يشعر بأن ما فعله خالد هو بطولة قومية ويمدحه ويثني عليه، كما يقول : كل ما فعله في قوة وصرامة وشدة وشهامة، ومثل هذا إنما خلقه الله، عزا للإسلام وأهله" فهل يرى ابن كثير أن عز قريش هو عز للإسلام؟ منذ متى؟ وهل أن القتل بهذه البشاعة عز للإسلام ؟ أيَ إسلام يعتز بهذه الجرائم؟ إنه إسلام قريشٍ فقط وليس إسلام محمد.

ولا يجب أن ننسى أن خالدا لم يقاتل الفلاحين في ريف فارس لأنهم قبلوا بدفع الجزية، أما أمراء المدن فقد رفضوا دفع الجزية فقاتلهم باسم الدين! فالواضح في هذه الوقائع أنها قتال على مال "الجزية" والجزية هي قيمة مالية تقدر بالدراهم أو الدنانير أو الجنيهات، وهذا ما يعني أن قتال المسلمين لأعدائهم بقيادة خالد الوليد لم يكن محاولة منهم لإقناع هؤلاء الأعداء بالدين الإسلامي، ولم يكن دفاعا منهم ضد العدو المهاجم على الإسلام، بل كان طلبا للجزية، ومن دفع الجزية عصم نفسه وماله وشرفه وأطفاله من قتال خالد وجيشه! فهل هذا منطق الإسلام؟ هل قرر الإسلام قتال الغير على مال؟ إذا كان الخيار هو إما المال وإما السيف، فهل هناك دين يأمر بذلك؟ بل لا يفعل ذلك إطلاقا إلى قطاع الطرق وقبائل العرب قبل الإسلام، فكيف بخالد الوليد أن يقرر من نفسه قتال كل من امتنع أو عجز عن دفع المال الذي طلبه هو "الجزية" وعلى افتراض أن خالد الوليد كان دائنا لهؤلاء الناس بقيمة الجزية فهل يجوز شرعا قتالهم عليها؟ أم أنه فعل ما أمر به خالد من قتال كل من رفض دفع الزكاة في حروب الردة؟ وهل يجوز استخدام من عجز أو امتنع عن دفع الجزية لبيعه في أسواق النخاسة؟ فخالد الوليد وجيشه الجرار قد اكتسح شعوب الأرض قتالا واستثنى من ذلك الفلاحين الذين قبلوا دفع الجزية.

في الحقيقة إن ما فعله خالد الوليد قبل ألفٍ وأربعمائة عام هو ما يفعله قادة الإرهاب الداعشي في سوريا اليوم باسم الإسلام وسعيا وجهادا في سبيل الله ومرضاة له، ذلك لأنه إلى عصرنا الحالي ولم يتم تمحيص هذه الروايات التاريخية إن صحت عن ابن كثير والطبري والبخاري أو غيره، فهي تمثل تاريخ العرب وليس تاريخ الإسلام؛ لأن العرب انحرفوا عن الإسلام بعد رحيل الرسول وعادوا لعادتهم وأعرافهم وتقاليدهم الجاهلية، وتجسد الصورة التاريخية للجهاد في سبيل الله الذي ابتدعه العرب باسم الدين والخلافة. لم يكن خالد الوليد يدرك أن أفعاله هذه ليست من الإسلام ولا تمثل المسلمين ولا أي دين على وجه الأرض، بل هي محض غريزة عنف وعدوان وقتل، ولم يدرك أن ما فعله يخالف الميثاق العلمي لحقوق الإنسان، فلم يكن موجودا وقتها أي ميثاق، ربما ما كان موجودا هو كتاب الله القرآن الذي هو أرقى وأسبق من ميثاق حقوق الإنسان، لكن خالد لم يقرأه وانشغل بحروبه وانتشى بفروسيته وانتصاراته على حساب القيم والمبادئ والرحمة بالناس.

ويروي ابن كثير عن: فتح خالد للأنبار، وتسمى هذه الغزوة ذات العيون " ركب خالد في جيوشه، فسار حتى انتهى إلى الأنبار وعليها رجل من أعقل الفرس وأسودهم في أنفسهم، يقال له شيرزاذ. فأحاط بها خالد وعليها خندق وحوله أعراب من قومهم على دينهم، واجتمع معهم أهل أرضهم، فمانعوا خالدا أن يصل إلى الخندق، فضرب معهم رأسا، ولما تواجه الفريقان أمر خالد أصحابه فرشقوهم بالنبال حتى فقئوا منهم ألف عين، فتصايح الناس: ذهبت عيون أهل الأنبار. فسميت هذه الغزوة ذات العيون، فراسل شيرزاذ خالدا في الصلح، فاشترط خالد أمورا امتنع شيرزاذ من قبولها، فتقدم خالد إلى الخندق فاستدعى برذي الأموال من الإبل فذبحها حتى ردم الخندق بها، وجاز هو وأصحابه فوقها، فلما رأى شيرزاذ ذلك أجاب إلى الصلح على الشروط التي اشترطها خالد، وسأله أن يرده إلى مأمنه، فوفى له خالد بذلك، وخرج شيرزاذ من الأنبار وتسلمها خالد، فنزلها واطمأن بها، وتعلم الصحابة ممن بها من العرب الكتابة العربية (٩/٥٢٧)

وهنا نلاحظ للمرة الثانية مدى ارتقاء هذه الشعوب وحضارتها في مقابل بربرية العرب وهمجيتهم وجهلهم، غير أنهم هم من بدؤا الهجوم على الشعوب، ولم يعودوا في حاجة لإرسال "الإنذارات الحربية"، بل يبادرون بالهجوم، حتى أن الناس حفروا خندق لمنع خالد من الهجوم عليهم، فقام بذبح

الإبل والخيول ووضعها في الخندق وعبر بجيشه عليها، وحاصر الناس في بيوتهم واشتعل القتل بلا رحمة (وهم عرب مسيحيين).. ثم دخل البلد ليتعلم منهم القراءة والكتابة لأن أغلب جيشه من الجهلاء الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك يزعمون أنهم إنما دخلوا ليعلمون الناس الدين الإسلامي! فهل دخلوا ليعلموهم الدين أم ليتعلموا منهم القراءة والكتابة؟ والغريب أن ذات الفعل العدواني وذات الفلسفة الهمجية فعلها التتار عند اقتحامهم بغداد العاصمة العباسية فيما بعد وقاموا بوضع الكتب في النهر ليعبروا عليها حتى تلونت مياه النهر بلون الحبر، ثم استمر العرب يصرخون على مدار لتاريخ بجريمة التتار الذين ردموا النهر بالكتب، ولم يذكروا أنهم أيضا فعلوا ما هو أبشع من ذلك قبل خمسة قرون، برغم أن إلقاء كتاب ورقي في نهر أرحم من إلقاء حيوان في النهر لعبور الجيش عليه.

في عام ٢٠١٥م ، تداولت وكالات الأنباء معلومات عن الشاب العراقي "هشام الذهبي"، ٢٥ عامًا، من سكان مدينة "عين التمر" العراقية، وقد أنشأ حديقة لإيواء الأطفال في بيته، حيث قام بلملمة ٣٣ طفلاً يتيمًا عجزت الدولة عن توفير الرعاية لهم، وعاهد نفسه أن يرعاهم حتى يكبروا ويواجهوا الحياة بأنفسهم. واستمر حريصا على مشاركة الأطفال أحزانهم وأفراحهم ليعوضهم عن حنان الأب والأم الذي فقدوه نتيجة سنوات من الضياع. واتخذ شعارا لمجموعته "لا تذرف دمعة، بل امنحني فكرة"، بغية تطوير وتنمية الأطفال، وإعدادهم، وتأهيلهم، ليكونوا عنصرا فاعلاً في المجتمع دون إحساسٍ بالغبن والتهميش.. هذا الشاب النبيل الخلق الذي لا يخلد إلى النوم إلا بعدما يتأكد من أن جميع الأيتام بخير، ويقص لهم قصصًا جميلة، راويا لهم ما حدث معه في نهاره، ويقوّي شخصيتهم بحكم جميلة وسرد مواقف رائعة من صميم الحياة... والجدير بالذكر أن المخرج السينمائي العراقي المعروف محمد الدراجي قد رصد عن كثب الجهود التي يبذلها هشام الذهبي في انتشال اليتامى من الضياع، فأخرج فيلما خاصا بعنوان "في أحضان أمي"، يؤرخ سيرة الذهبي مع هذا المشروع منذ عام ٢٠٠٨ إلى ٢٠١٠، وقد حصد ١٨ جائزة من أمريكا وأستراليا وإيطاليا وكوبا وبلدان أخرى[٧٤].

بينما كان الشاب السعودي المناضل خالد الوليد يجاهد في سبيل الله، في ذات المدينة العراقية " عين التمر"، حيث ينتقل ابن كثير ليروي عن وقعة عين التمر، وهي الأكثر كارثية في تاريخ

---

[٧٤] ـ شبكة AR الإخبارية.. رابط: / https://arabic.rt.com/news

السعودية، بينما هم افتخروا به كما لو كان مشهدا سينمائيا، فيقول: وقصد خالد حصن عين التمر، فلما بلغ مهران هزيمة عقة وجيشه، نزل من الحصن وهرب وتركه، ورجعت فل النصارى الأعراب إلى الحصن، فوجدوه مفتوحا فدخلوه واحتموا به، فجاء خالد فأحاط به، وحاصرهم أشد الحصار، فلما رأوا ذلك سألوه الصلح، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه، فنزلوا على حكم خالد، فجعلوا في السلاسل وتسلم الحصن، ثم أمر فضربت عنق عقة، ومن كان أسر معه، والذين نزلوا على حكمه أيضا أجمعين، وغنم جميع ما كان في ذلك الحصن، ووجد في الكنيسة التي به أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل، وعليهم باب مغلق، فكسره خالد وفرقهم في الأمراء وأهل الغناء، وكان فيهم حمران، صار إلى عثمان عفان من الخمس، ومنهم سيرين والد محمد سيرين، أخذه أنس مالك، وجماعة آخرون من الموالي المشاهير.



نقف هنا وقفة أخرى، مع فعلة غير إنسانية لم يرتكبها أقذر مجرمي الحرب في التاريخ البشري، حيث هجم خالد على الحصن وأسر جميع من فيه ثم قتل جميع الأسرى، ثم وجد كنيسة بداخلها أربعين طفلا، فأسرهم جميعا ونقلهم إلى المدينة المنورة، حيث تم بيعهم في سوق النخاسة، وتوزيع بعضهم هدايا على الصحابة الأبرار، واشترى منهم بعض الأمراء والصحابة عبيدا..

ونحن نقف هنا لنتساءل عن مجهودات خالد الوليد في نشر الدين بين هؤلاء الناس، فكانت كل مجهوداته فقط في القتل والذبح والنهب والسلب والسبي، لكن هل علمهم شيئا من الدين؟ بل على العكس أعطاهم الأمان وحنث بوعده وغدر بهم وقتلهم جميعا، وبرغم أن رسولنا الكريم نهى عن التعرض للطفل والشيخ والمرأة والعابد والصومعة ..." إلا أن خالد دخل الصومعة عنوة (الكنيسة) فوجد بداخلها أطفال يدرسون الإنجيل فأخذهم أسرى وأرسلهم إلى أسواق النخاسة في المدينة.. ألم ينه الرسول عن ذلك؟ هل هذا إسلام؟ وما علاقة الإسلام بجرائم الحرب هذه؟



أذكر واقعة حدثت على جدار برلين بعد انفصال ألمانية الشرقية عن الغربية عقب الحرب العالمية الثانية، وكانت السلطات الألمانية في كلا الجانبين تمنع عبور الأهالي للجدار الفاصل، فحدث أن هاجرت عائلة من جانبٍ إلى الآخر وتأخر عنها طفلها، وكان أحد الجنود الألمان يقف حارس على الجدار العازل لمنع العبور، لكنه تعاطف مع هذا الطفل، ونقله كي يلحق بعائلته، وعرض نفسه لعقوبة الإعدام كي ينقذ حياة هذا الطفل ولا يتركه يعيش وحيدا مشردا بعيدا عن أهله. (الصورة لجندي يفتح السلك الشائك في جدار برلين لطفل ليلحق بأهله..)

وهذا يوضح الفارق بين العرب وغيرهم من حيث الحس الإنساني العام، ودون أن يكون للدين أي دخلٍ في ذلك، فالمصريين الفراعنة استعمروا ذات المنطقة التي فتحها خالد الوليد، وخاضوا ١٧ معركة مثله بالتمام والكمال، وفي حين أسر خالد الوليد أربعين طفلا من الكنيسة وصدرهم لأسواق العبيد التي كانت مصدر الدخل القومي الوحيد للعرب، بينما تحتمس المصري أسر فقط أبناء الملوك والأمراء وأحضرهم لمصر، ليس لأسواق العبيد ولكن ليعلمهم في العاصمة المصرية ويغرس فيهم قيم الحضارة ثم يعيدهم إلى بلادهم ليحكموها تحت رقابته.. فلماذا أصبح تاريخ خالد الوليد هو تاريخ الإسلام؟ ألا يستحق تاريخ الفراعنة أن يكون هو تاريخ الإسلام؟ أليس ما فعله تحتمس أقرب إلى الإسلام وأفضل وأرقى مما فعله خالد؟ غير أن هذه الواقعة تحديدا توضح الفارق بين

الحضارتين والثقافتين، إذ كان المصريين يفتحون البلاد ليس فقط للحصول على الثروة والسيادة، بل ينشرون العلم والمعرفة أينما ذهبوا، بينما العرب لم يكن لديهم أي علم ولا معرفة يصدرونها لهذه الشعوب، حتى معينهم الثقافي (الإسلام) تركوه ولم يتفقهوا فيه حتى جاء الأطفال العبيد الذين أسروهم من هذه البلاد ولملموا المعرفة الدينية المتناثرة حولهم فصاروا علماء للعرب أنفسهم!..

هكذا كان العرب.. وهكذا جاء التراث الإسلامي، والمشكلة ليست في تصحيح المفاهيم والأفكار، بل في بناء أجيال جديدة على أفكار جديدة؛ لأن الأمر ليس متعلقا بالعقل والمنطق، وإنما هناك رابطة أمومية حميمية بين رجال الدين والتراث، هذه الرابطة أقوى من حسابات العقل والمنطق، بل هي كما الأم التي قبضت الشرطة على ابنها وقد ارتكب جناية قتل مع سبق إصرار وترصد وقدموه للمحاكمة فصدر ضده حكمٌ بالإعدام.. فمهما حاولوا إقناع الأم بأن تسلمه لحبل المشنقة فلن تقتنع ولن تتنازل، برغم علمها القيني بأنه مجرم، لكن تظل تدافع عنه ولن تتخلى عنه أو تخونه أبدا.. وهكذا التراثيين مثلها.

فأذكر عندما كنت أتحدث مع صديق سلفي حول واقعة اقتحام خالد الوليد كنيسة عين التمر وخطف الأطفال وتصديرهم لأسواق العبيد، وقلت له أن هذا إجرام مضاعف ومخالفة مضاعفة للإسلام وأوامر الرسول ونواهيه، لأنه نهى عن التعرض لبيوت العبادة أو المتعبدين بها أو الأطفال، ومع ذلك فجاء خالد يعتدي على بيت من بيوت العبادة والمتعبدين به من الأطفال (أي ارتكب المخالفات الثلاثة في واقعة واحدة؛ أي إجرام مركب ومعقد جدا.. لكن هكذا كان العرب أكثر إجراما من الإجرام البشري، ثم نسبوا إجرامهم للدين وقالوا أنه جهاد من أجل الله ! ... لكن صديقي السلفي رد ببساطة وقال، إن خالد كان عطوفا رءوفا ورحيما بهم لأنه لم يفجر الكنيسة !!

كان وهابيا بامتياز ثم سألني: هل تدافع عن الصحابة أم تدافع عن الأعداء؟ أراك متعاطفا مع الأعداء؟ فقلت له: من أين وصفتهم بأنهم أعداء؟ هم مجرد جيران ، قال: كل من لم يسلم فبالتأكيد هو عدو. قلت حتى الأطفال؟ فما مظهر العداء فيهم؟ .. على كل حال أنا أدافع عن الإسلام لأن النبي نهى عن الاعتداء على (الأطفال وبيوت العبادة والمتعبدين بها) أما خالد فقد ضرب بكلام الرسول عرض الحائط واعتدى على الأطفال المتعبدين في بيت من بيوت العبادة، فهل ترانا نجامل الصحابة على حساب الإسلام وتعليمات النبي؟ فقال: إن خالد حتى لو فعل ذلك، فقد فعل ما فيه خير لهم !، فقلت له: "ما لا ترغب أن يحدث لك ، لا تؤذي به الناس". كيف يكون خطف الأطفال واستعبادهم خير لهم ؟

خير لهم من الحياة في حضانة أهلهم؟ ولماذا نهى النبي عن الاعتداء عليهم طالما كان هذا العدوان خير لهم؟ فقال: النبي قال (لا تسبوا أصحابي)، فقلت له: أن النبي قال هذا الكلام لخالد نفسه حينما كان يتحدث مع عبد الرحمن ابن عوف بأسلوب غير لائق في حضور النبي، فتدخل النبي وأمر خالد بعدم التحدث مع أصحابه بهذه الطريقة.. لكن صديقي السلفي قال أن خالد صحابي جليل والصحابة كلهم عدول وكلهم صادقون وقدوة ونحن نأخذ منهم الإسلام، فقلت له: نحن نأخذ الإسلام من كتاب الله وليس من تاريخ العرب..

بعد ذلك توغل خالد في بلاد الفرس وتمكن من قصورها ومدنها وقراها، نهب القصور والدور والأموال والنساء والأطفال، وزع الغنائم على المجاهدين! وأرسل بالخمس والبشارى لأبي بكر الصديق، وكان مع هذه البشارى فيلا ، ولم يكن العرب يعرفون هذا النوع من الحيوانات فظنوا أنه تمثال عجيب يمشي على الأرض.. وكثير من الذهب والفضة والمجوهرات الثمينة التي نهبها من قصور كسرى، وكان بها أيضا قلنسوة الملك، قال العرب أن قيمتها تعادل مائة ألف، لكن أبا بكرٍ الصديق رفض عملية نهب الدور والقصور هذه، ورفض نهب قلنسوة كسرى، وأمر برد الفيل مرة أخرى، بعدما أدرك أبو بكر أن جيشه لم يذهب لنشر الدين وإنما تحول الجيش إلى عصابة للنهب والسلب والخطف والاغتصاب.. كانت قطعان الأسرى والسبايا من الأطفال والبنات والنساء تتحرك مئات الأميال مُسلسلة من بلادها مثل قطعان الغنم إلى المدينة المنورة ليقفوا أياما طويلة في معارض وأسواق النخاسة انتظارا لمصيرهم المجهول!

وترك خالد الجيش في الصحراء، وذهب خلسة لأداء فريضة الحج بدون علم الخليفة، لكن الحجاج في الحرم عرفوه وأبلغوه الخليفة، فعاتبه وعاقبه على ذلك بتوجيهه إلى فتح الشام! لتدور الحصادة الدموية من اليمين إلى اليسار لنشر الإسلام!، فحاصر دمشق، عام ١٤ بعد الهجرة، والتفت الجيوش العربية حول المدينة كإحاطة الخاتم بالإصبع. يرابط كل قائد مسلم بفرقته أمام الأبواب الرئيسية للمدينة، وتؤازرهم جيوشٌ أخرى على المحاور الرئيسة لتحول دون وصول النجدة للمدينة المحاصَرة. طال الحصار شهورا، وأجهد من داخل الأسوار ومن خارجها.. بدت في الأجواء نصف فرصة للحسم أجاد استغلالها القائد الفذ خالد الوليد. حيث تصادف أن وُلد لأحد أمراء الروم أثناء الحصار مولود جديد، فأقام وليمة، فانشغل الكثير من المدافعين بهذا الحدث، ولما نقلت عيون خالد بالمدينة هذه الأوضاع، لم يُضِع دقيقة واحدة حتى ليخبر باقي القادة بخطته، فاخترق وبعض قادة جيشه

منطقة ضعيفة في الدفاع، ونفذت قواته إلى داخل المدينة، وفتحت إحدى بواباتها الكبيرة. فوجئ من في المدينة بسيوف جيش خالد داخلها تحصدهم قتلى وأسرى.. وهكذا نشروا الإسلام في الشام !

كان النبي إذا خرج للحرب لا يدخل قرية بها سكان ولا مدينة ولا يتتبع ذيول المنهزمين ولا ينهب بلاد المنهزمين ولم يخض حربا هجوميا في حياته ولم يعتد على أحد، النبي كان يدرك معنى تنظيم عسكري أو جيش، ولم يكن يسمح لجيش مسلح بدخول قرية أو مدينة، وإنما إذا اضطر للحرب فينتظر في الصحارى المفتوحة خارج البلاد حتى لا يشرد الأهالي، بينما هم كانوا يخترقون أسوار المدن للنهب والسلب والسيطرة على حكم البلاد. كان خالد يقفز بجيشه داخل البلد ويخطف النساء والأطفال والبنات ! فإذا كان قد جاء يعلمهم دين الله، فلماذا يخطف أولادهم ؟ ولماذا يغتصب بناتهم؟ ولماذا ينهب أموالهم؟

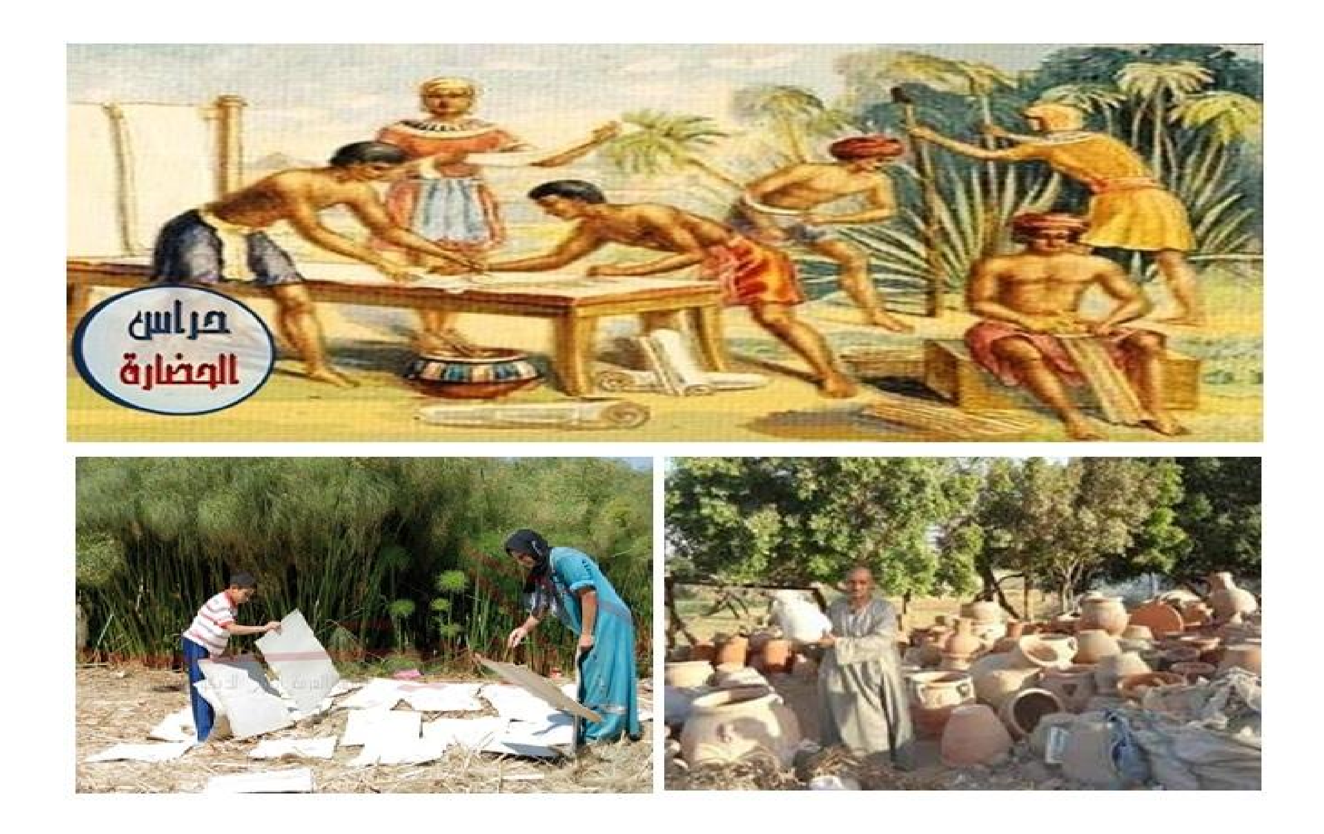
لكن قال لنا الفقهاء أيضا بأن الفتوحات كانت لنشر الإسلام وليست جرائم حرب، وأن الفاتحين كانوا يجاهدون في سبيل الله، وأن الإسلام لا يأمر بالعدوان، وأن الإسلام لم ينتشر بالسيف.. بالفعل فإن الإسلام لم ينتشر بالسيف ولا بالحروب لأن الفتوحات لم يكن غرضها نشر الدين، وإنما تحصيل الجزية والخراج ونهب القصور والكنوز وخطف الأطفال والبنات والنساء، حتى عاش العرب في عز على عائدات أسواق النخاسة وتجارة البشر وما تدره من دخل وفير.. كانت أسواق النخاسة أكثر ربحا من أسواق الغنم والماعز. أما كون المسلمين المعاصرين يرونه قائدا قوميا وبطلا أعز الإسلام والمسلمين في عصره، فذلك لأنهم يعرفون عن الإسلام بقدر ما يعرف خالد عنه.. ثم بوفاة أبا بكر الصديق وتولى عمر الولاية، قام فورا بعزل خالد عن قيادة الجيش قائلا: لا يولي لي أمرا أبدا "

وهذا يؤكد أن خالد الوليد ما كان إلا قائدا عسكريا محترفا استخدمه العرب في غزو واحتلال الشعوب المجاورة لهم في شتى الاتجاهات، وحصلت هذه الحروب على قدسية دينية، برغم انفصام صلتها نهائيا بالإسلام، حتى أن خالد نفسه لم يذكر له التاريخ موقفا ينبئ عن موقفه من الإسلام، ولم يعرف أحد على وجه الدقة ما إذا كان خالد الوليد مسلم أم غير مسلم، ومع ذلك توجه بجيوشه لنشر الإسلام!، لم يسمع منه أحد آية من كتاب الله ولا روى حديثا عن رسول الله، بل أن كل تصرفاته وسلوكياته تقطع الصلة بمبادئ الإسلام وقيمه، فكيف يكون قد نشر الإسلام؟ أو ربما بالأحرى أنه نشر دين قريش وليس دين الله الإسلام، والأحرى أن نسأل خالد نفسه عن أي نوع من الدين قام بنشره. ! هذا القائد يمكن أن يحتفل به أبناء السعودية وأحفاد قريش وأبناء شعبه

وقبيلته من بني مخزوم، لكن لا يمكن أن يكون خالد قد مثل الإسلام لحظة واحدة في التاريخ.. هو فقط مثل شعبه وقوميته العربية الهمجية والتي انقلبت على أعقابها بعد وفاة الرسول، فعادوا إلى أعرافهم وعادات مجتمعهم البدوي الجاهلي قبل الإسلام. فقد تعلم خالد الفروسية في صحراء العرب مثل غيره من أبناء الأشراف في قريش، لكنه تفوق بفروسيته على أقرانه، وتوسم فيه النبي خيرا للإسلام فدعاه للإسلام قبل فتح مكة، استجاب خالد لدعوة الرسول وهاجر مع صديق له إلى مدينة الرسول، وكلفه الرسول بدعوة قبيلة بني جزيمة للإسلام بلا قتال، لكن خالد ذهب إليهم وقاتلهم بلا دعوة، في بداية الأمر أعطاهم الأمان وأمرهم بقيد بعضهم بعضا بالسلاسل كما الأسرى، ثم قام بقتلهم تصفية لثأرٍ قديم عندهم، ولما عاتبه الرسول الكريم، برر فعلته بأنه إنما قتلهم خدمة لتصفية ثأر قديم لعبد الرحمن ابن عوف، ولما واجهه عبد الرحمن عوف وقال له إنما قتلتهم تصفية لثأرك أنت، أغلظ عليه خالد في الرد، فقال له رسول الله: لا تسب أصحابي، يا خالد دعك من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل جبل أحد ذهبا لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه)، وبعد ذلك لم يعهد الرسول له بأي عمل من أعمال الإسلام، ولا الدعوة على الإطلاق، حتى بعدما انهار جيش المسلمين في مؤتة وأنقذه خالد وعاد به إلى المدينة سالما، لم يوله الرسول قائدا على الجيش، بل عزله ووضع أسامة ابن زيدا قائدا للجيش، ربما لأنه لم يتوسم في خالد أي إنسانية.

نشر الإسلام في شمال إفريقيا

كانت طبيعة المجتمع العربي حربية شرسة للغاية، لدرجة أنهم بعد وفاة النبي لم يهتموا ببناء دولة وكيانات وأنشطة اقتصادية ومكتبة عامة ولا مشاريع، بل اتخذوا مهنتهم الأصلية مصدرا للرزق وهي الإغارة، التي فتحت لهم مصدرا وفيرا للدخل القومي أنشأوا منه دولة ودواوين ومؤسسات، لكنهم لم يعملوا ولم يأكلوا من عمل يدهم ولم يبرز لهم نشاط يحمل بصمات عربية عربية، إنما حتى من فتحوا ورش ومتاجر ومشروعات كانوا من الأسرى والسبايا من أبناء الشام وفارس.. هذا طبعا يختلف كليا عن المجمعات المدنية مثل الشعب الفارسي والشعب الشامي والمصري، فالمصريون لم يمتهنوا الغزو والإغارة لتأمين مصدر دخل لهم، بل تركز نشاطهم في العمل المحلي وابتكروا طرق ووسائل صناعية متطورة، ولم يتنوعوا فقط في المهن والحرف والصناعات اليدوية والميكانيكية، بل تخصصوا مجتمعات، فكان النشاط يختلف ويتنوع من قرية لأخرى، فتجد قرية تخصصت واحترفت في صناعة الفخار بأنواعه وأشكاله، وقرية ثانية تخصصت في صناعة ونحت وبرد الرخام والجرانيت، وقرية ثالثة تخصصت في صناعة السفن النيلية أو البحرية، وقرية رابعة تخصصت في صناعة الزيوت والعطور، وقرية أخرى تخصصت في صناعة أوراق البردي..إلخ، فكانت كل قرية لها حرفة أو صنعة مشهورة بها.



ولم يقتصر العمل على الرجال فقط كما وضع المجتمع العربي الصحراوي حيث كان الرجل يخرج للصيد والرعي أو الإغارة، بينما تجلس المرأة داخل الخيمة حتى يعود لها بالطعام أيا كان مصدره، أما المرأة المصرية فكانت بالإضافة إلى الأعمال المنزلية تساهم في العمل الحرفي وإن كان عملها يختلف نوعيا عن الأعمال الشاقة التي يختص بها الرجل وحدة، لكن يمكننا القول المرأة المصرية أنها عملت إلى جانب الرجل لبناء الحضارة.. وللأسف يأتي فقهاء الدين عند الرد بالفتوى على أسئلة ساذجة من نوعية (هل عمل المرأة حرام أم حلال) فيبحث الفقيه عن رواية أو حكاية قديمة قادمة من شبه صحراء العرب تقول أن السيدة فلانة بنت فلان كانت تنتقي نوى البلح وتجمعه لحصان زوجها.. إذن عمل المرأة يحتمل أن يكون حلال عند العرب ! ثم يأتي الشيخ السلفي محمد حسان ليقول أن كل جنيه يدخل البيت من عمل المرأة فهو عار على الرجل !

على كل حال، فطبيعة المجتمعات القبلية مثل العرب والهكسوس تختلف عن طبيعة ونشاط المجتمعات المدنية الحضارية.. لكن الملفت للنظر أن الخواجة عمرو العاص قائد الجيش العربي بعدما دخل مصر وتربع متكئا في فسطاطه، أرسل قطاعا من الجيش بقيادة عبد الله ابن أبي السرح، وكان عمرو له طموحات سياسية تفوق حجة نشر الدين، فغالب عمر ابن الخطاب في تمرير عملية الفتح، وأرسل عبد الله أبي السرح لفتح ليبيا. وهنا نقف لحظة للتأكد من حقيقة نشر الدين للمرة الثانية؛ إذ أن عبد الله ابن أبي السرح هذا كان محكوما عليه بالإعدام لإهانته النبي محمد عليه السلام وطعنه في رسالته. فقد كان من كتبة الوحي الذين يستعين بهم الرسول في كتابة القرآن في المدينة المنورة، ثم هرب من النبي وعاد إلى مكة وظل يقدح في النبي ويقول لقريش أن محمد كان يملي عليه الوحي، فيكتب شيئا آخر، أي أنه يغش النبي في كتابة الوحي، أو يكتب شعرا من عنده بدلا من القرآن، زاعما أن الرسول لا يجيد القراءة ولا الكتابة ولا يعرف ما يكتبه الكتبة من الوحي في المصحف.

وعندما عاد النبي بجيشه لفتح مكة وقال لأهلها اذهبوا فأنتم الطلقاء، حدد أربعة فقط من قريش وأمر بقتلهم أينما كانوا حتى وإن تعلقوا بأستار الكعبة.. وكان عبد الله أبي السرح هذا واحدا من الأربعة المحكوم عليهم، وهو في ذات الوقت أخو عثمان عفان من الأم أو من الرضاعة، فهرب إلى خيمة أحد أقاربه من الأعراب في الصحراء وظل يخاطب عثمان كي يتوسل إلى النبي محمد بالعفو عنه، وبالفعل توسل عثمان إلى النبي لكنه صمت ولم يرد، فعاد عثمان يتوسل إليه في اليوم

الثاني فسكت ولم يرد، وعاد عثمان للمرة الثالثة، وكانت عادة النبي ـ ويعرفه الصحابة أنه إذا رفض شيئا لا يقول " لا " ولكن يصمت ، ومفهوم لدى الجميع أن صمته رفض، لكن عثمان عفان أصر على التوسل للمرة الثالثة، فوافقه النبي على مضض، فسأله الصحابة، لماذا رفضت في اليومين الأولين طالما وافقت في اليوم الثالث؟ فقال لهم: كنت انتظر أحدكم ليقتله.. فقال الصحابي ولما لم تشر إلينا بطرف عينك فقتلناه، فقال النبي؛ ما كان لنبي أن يكون له خائنة الأعين.

وبرغم أن كبير الصحابة والخليفة الأول أبي بكر الصديق كان قد أوصى خالد في رسالته إليه أن لا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وعاد إليه، ومع ذلك نجد عبد الله سعد أبي السرح قد ارتد عن الإسلام وهرب من النبي وطعن فيه وطعن في الوحي رأسا، ثم بعد وفاة الرسول عينه العرب قائدا لنشر الإسلام في شمال أفريقيا ! ولا تسل كيف، فالصانع هم العرب! وما علينا إلا أن نرفع القبعة لهذا الفاتح النبيل الذي نشر الدين والإيمان في ربوع الدنيا.. ولا تستعجب بعد ذلك أن يصعد هذا على سدة الحكم في مصر لتعليم المصريين أحكام الدين الإسلامي، فقد عينه أخوه عثمان عفان عندما تولى الخلافة، عينه واليا على مصر ضمن صفقة الولاة الذين قام بتعيينهم من قبيلته وأبناء عمومته، قام بتعيينهم ولاة على البلاد بعد عزل الولاة الذين وضعهم عمر، فقد انتقل العرب نقلة نوعية بعد وفاة عمر الخطاب وعادوا في عهد عثمان إلى العصبية القبلية التي كانوا عليها قبل الإسلام، بعد أن ذاب الإسلام في قلوبهم وأصبح سرابا من ذكريات الماضي.

فيحكي لنا التاريخ الأسود لعهد خلفاء بني أمية لما دخل أبو المهاجر دينار شمال إفريقيا بنية طيبة تتمثل في الدعوى إلى الإسلام بالحسنى ودون عنف واضطهاد وسفك للدماء وجد القبول من الأمازيغ إلى درجة أن ملكهم إكسيل أصبح من أصدقائه المقربين... فالسياسة المرنة والسلوك الحسن الذي تحلى به أبو مهاجر دينار مع الأمازيغ أدى إلى تراجع الغنائم والجباية والسبايا من النساء الحسناوات.. فلم يعجب ذلك السلطة الأموية التي سرعان ما أرسلوا عقبة ابن نافع لخلافة أبو مهاجر... فعل عقبة ابن نافع كل ما فعله عمرو العاص في مصر، وأول فعل قام به هو حبس أبو مهاجر وتصفيده بالحديد وتعذيبه ثم بدأ بإهانة إكسيل وظلم قومه.. قام بجذع أذنه فقال إكسيل لم فعلت بي هذا وقد عاهدتني؟.. فرد عليه عقبة فعلت هذا بك أدبا لك وإذا مسست أذنك ذكرته، فلم تحارب العرب.. جعل إكسيل خادما له وتفنن في إذلاله أمام عشيرته رغم أنه عزيز في قزمه، ورغم نصائح أبو مهاجر بالكف عن هذا إلا أنه استمر في غيه، واستعمل إكسيل أمام قومه بذبح شاة

وسلخها، وحين رفض سبه وشتمه ففعل إكسيل مُكرها ما أمر به وبدأ يلطخ وجهه بدم الذبيحة وهي من الطقوس الرمزية الأمازيغية حين الشعور بالمهانة و الرغبة في الانتقام...

تمكن إكسيل من الفرار من الأسر وانتفض ثائرا وهزم جيش عقبة شر هزيمة وأردى قائده طريح الموت ونفخ عقبة، ولكنه لم يتمكن من تخليص صديقه أبو مهاجر من السجن، فقد مات في خضم المعركة.. بعد هذا الانتصار أعاد إكسيل تأسيس مملكته التي شملت الجزائر وتونس.. الخليفة عبد الملك بن مروان انزعج من هذا الوضع، ورغم حربه مع عبد الله ابن الزبير إلا أنه أرسل تعزيزات عسكرية كبيرة للقائد زهير بن قيس البلوي الذي كان مستقرا ببرقة بليبيا.. ذكر المؤرخون أن إكسيل اجتمع له الأمازيغ سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين وهذا دليل صارخ أن حربهم لم تكن ضد الإسلام كما تم الترويج فيما بعد بل حرب ضد الاحتلال والظلم وهو حق مشروع.. انتصر العرب في هذه المعركة و قتل إكسيل ثم قام الرومان بقتل ابن قيس بعدما حاصروا جيشه ..

خلفت الملكة الأمازيغية ديهيا الملك إكسيل في حكم الأمازيغ، فطردت الغزاة / الروم والعرب / من أفريقيا في معارك طاحنة.. استطاعت ديهيا أن تلحق هزيمة كبيرة بجيش القائد حسن بن النعمان عام ٦٩٣ وتمكنت من هزمهم وطاردتهم إلى أن أخرجتهم من تونس الحالية وفر من تبقى منهم هاربا إلى مصر.. و بعد هذه الهزيمة الشنيعة اتهم الأعراب ديهيا أنها انتصرت بالشعوذة والسحر لطالما لم يصدقوا كيف لامرأة أن تهزمهم وهم من تعود على احتقار النساء في مجتمعهم، فكان أن لقبوها بـ" الكاهنة " وأصروا على عدم ذكر اسمها الحقيقي إلى يومنا هذا.. فلولا ابن خلدون رحمه الله لما توصلنا إلى اسمها ولظلت كنيتها العربية " الكاهنة "... سيطرت ديهيا على شمال إفريقيا لمدة خمس سنوات وتشكل مملكتها اليوم الجزائر وتونس وليبيا. ومما قامت به أنها بسلوك حضاري أفرجت عن جميع الأسرى وعددهم ٨٠ أسير عربي وأعطتهم الحرية بعد أن رأت بأم عينها سلوكهم وتعاملهم البسيط الموافق لفطرة الأمازيغ، وهذا يبين عظمة وإنسانية الملكة ديهيا مقارنة بعقبة ابن نافع الذي سجن صديقه المسلم "أبو المهاجر دينار الذي كان ينشر الإسلام دون سبايا ولا جبايات..) ثم قررت إبقاء أسير أعرابي واحد من الأسرى بالأوراس، فكان خالد بن يزيد القيسي. تبنته وأقام عندها وعاش مع أبنائها الآخرين الذين تبنتهم أيضا ومنهم يوناني وأمازيغي..

لكن هذا الأعرابي كعادة قومه خان المعروف وتبول في الوعاء التي أكل منه.. فقد تلقى حسن بن نعمان إمدادات عسكرية إضافة الى خيانة هذا الأعرابي إذ أفشى بأسرار وخطط جيش

الأمازيغ لصالح العرب.. انتصر هؤلاء على ديهيا التي قالت لأنصارها " إن الأعراب لا يريدون من بلادنا إلا الذهب والفضة والمعدن، ونحن تكفينا منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها حتى ييأس منها الأعراب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر"... أي قد اتبعت سياسة الأرض المحروقة وهي خطة عسكرية أساسها هو تخريب الأراضي التي يطمع إليها العدو وتدمير أطماعه ... توفيت ديهيا في معركة أخرى ضد حسان وهي عجوز في عمر ١٢٧ سنة وقاموا بقطع رأسها والتنكيل بجسدها الهرم[٧٥].

وقال المؤرخ الثعالبي عن ديهيا : "وبعد معركة صارمة ذهبت هذه المرأة النادرة ضحية الدفاع عن حمى البلاد" ... وقال ابن خلدون: ديهيا فارسة الأمــــازيغ التي لم يأت بمثلها زمان كانت تركب حصانا وتسعى بين القوم من الأوراس إلى طرابلس تحمل السلاح لتدافع عن أرض أجدادها " . وهذا ما يؤكد صواب رأي ابن خلدون في حق الشعوب تقرير مصيرها، وأنه يؤمن بفكرة الوطن ويدرك أنها لا تناقض بينها وبين الدين وأن الدين لا يفرض علينا التخلي عن وطننا لصالح عمرو العاص وخلفه.. وهذا ما يؤكد رأيه في أن حقبة الفتوحات هذه ما كانت إلا جرائم حربٍ بحق الشعوب، وقد اعترف الأزهر أن الجهاد في الإسلام دفاعي فقط لكنه ما زال يصر على اعتبار الفتوحات جهاد لمجرد أن من قام بها صحابة.. ومع ذلك تجدنا نحتفل بنظريات ابن خلدون في علم الاجتماع باعتباره نابغة عقري سبق عصره بألف عام، وتعمل جامعاتنا على تدريس نظرياته في الاجتماع والاقتصاد عدا نظريته في " التاريخ والعقلية العربية " وما زالت جامعاتنا تتجاهله، ذلك لأنه لم يسبق عصره فقط بألف عام وإنما سبق عصورنا نحن أيضا، لأننا مصابون بمتلازمة ستوكهولم العربية التي تحتم علينا أن نعيش ألف سنة عبيد للعرب نقدس أفكارهم ونجل تاريخهم ونعظم شخصياتهم القومية باعتبارهم آباء روحيين لنا.. ولو عرضنا نظرية ابن خلدون على البرلمان المصري لآمن بها فورا، ولو عرضناها على وزير الدفاع المصري لاعتنقها وأمر بتدريسها في الكليات والمعاهد العسكرية لأنه نموذج ومثال للشرف والوطنية، شرف تجلت به امرأة دافعت عن وطنها وأرض أجدادها.. بينما لو عرضنا ذات النظرية على شيخ الأزهر لقال أن ابن خلدون شيخ مارق، وأنه يتحدث عن الوطنية وشرف الوطنية ليهاجم بها

٧٥ـ مقل للأستاذ: العفيفي فيصل.. قائمة مراجع المقال: (الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير) – (ابن خلدون، كتاب تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر) – (عبد الله العروي: مجمل تاريخ شمال أفريقيا) – (جميل حمداوي. من أبطال المقاومة الأمازيغية الملك أكسل) – (السيوطي . تاريخ الخلفاء ـ (محاضرات احمد عصيدة ... يوتيوب).

نظرية الخلافة وأن ابن خلدون في الأصل أمه ليست من قريش ولهذا يعرف أنه لن يتولى الخلافة فلذلك يهاجمها بفكرة الوطنية !

بينما تتحدث كتب التاريخ العربي أن أعظم السبي (سبي النساء) الذي عرفه المسلمون، وكان سبايا موسى بن نصير من بنات ونساء البربر (الجزائريين) في شمال إفريقيا، والمصادر الإسلامية نفسها تتحدث عن سبي بمئات الآلاف للنساء، وهذا السبي استمر حتى بعد دخول المسلمين والإسلام إلى بلاد الأمازيغ وسيطرتهم عليها، وكان يتكرر كلما قام الأمازيغ بثورة على العرب وحكمهم. فالفعل العربي في شمال إفريقيا أيام الغزو باسم الإسلام، شوه الوجه الحقيقي للدين الحنيف، وأضفى عليه نوعا من التشابه مع المستعمرين الآخرين السابقين واللاحقين، وهو ما يبرر المقاومات الشرسة التي أبداها "إكسل" كُسيلة، وديهيا (الكاهنة) وغيرهما، ليس من منطق محاربة الإسلام بقدر ما هو محاربة لطغيان الوافدين باسم الإسلام". المصدر [السيوطي– تاريخ الخلفاء] .



الأستاذ عبد السلام ياسين في كتابه "حوار مع صديق أمازيغي" ص٢٥ نقلا عن مراجع إسلامية معتمدة تاريخية يقول: كان القائد العربي البطل عقبة ابن نافع نموذج حسان بن النعمان، نموذج موسى بن نصير، لما دخل عقبة بن نافع منقة فزن فرض على أميرها ٣٦٠ عبدا ولما دخل كذلك بغاية وقرطاجة أخذ من سبيهم وخيلهم شيئا كثيرا ثم دخل سوس الأقصى فقتل منهم خلقا عظيما وأصاب نساء لم ير الناس في الدنيا مثلهن، فقيل أن الأمازيغية منهن كانت تبلغ بالمشرق ألف دينار أو

نحوها، أما فيما يخص حسان بن النعمان فقد بلغ سبيه خمسة وثلاثون ألف أمازيغية لم يدخل المشرق مثلهن، بلغت الواحدة منهن ألف دينار. أما عن سبي موسى بن نصير فقد بلغ سبعمائة ألف وخمسة آلاف رأسا بعث بها إلى المشرق.. وقد كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله بإفريقيا:" أما بعد، فإن أمير المؤمنين لما كان يرى ما يبعث به موسى بن نصير إلى عبد الملك أراد مثله منك وعندك من الجواري البربريات الملآت للأعين، الأخاذات للقلوب ما هو معوز لنا بالشام وما أولاه، فتلطف في الانتقاء، وتوخ أنيق الجمال، عظم الأكفال، وسعة الصدور، ولين الأجساد، ورقة الأنامل، وسبوطة العصب، وجدالة السيقان، وجثول الفروع، ونجالة الأعين، وسهولة الخدود، وصغر الأفواه، وحسن الثغور، وشطاط الأجسام، واعتدال القوام، ورخامة الكلام، ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ فإنهن يتخذن أمهات أولاد، والسلام".

بينما قام اليهودي (الكافر) "ستيف مامان" وهو ملياردير كندى بشراء ١٤٠ فتاة أيذيدية من سبايا داعش عام ٢٠١٤ وأطلق حملة لإنقاذ النساء والمراهقات من قبضة تنظيم الدولة الإسلامية "داعش." عندما اجتاح داعش شمال العراق صيف ٢٠١٤، هاجم مقاتلوه جبل سنجار حيث يقيم أغلب الأيزيديين، واختطفوا مئات النساء والأطفال ودفعوهم للعبودية. قام هو بتحريرهم وعالجهم على نفقته الخاصة من الاغتصاب والتعذيب وبعدها أرجعهم لأهلهم سالمين، ويقول ستيف مامان : أن ما فعله داعش بالنساء هو"اضطهاد همجي"، وأن "التلمود يعلمه أن من ينقذ حياة شخص واحد كأنما أنقذ الناس جميعا."[٧٦]..

٧٦ـ https://www.light-dark.net/t1366313



والإشكالية ليست فيما يفعله داعش وما إذا كان خروجاً عن الدين أو عدواناً على الإنسانية أو مخالفتهم لميثاق حقوق الإنسان، لأن الصحابة قد فعلوا ذلك حرفيا وقت أن انقلبوا على الإسلام بعد رحيل الرسول عنهم، ولو لم يفعلوا ذلك في الحقيقة فقد أخبرتنا المرويات والأحاديث أنهم فعلوا ذلك حرفيا ونحن قبلنا هذه الأخبار واعتبرناها أسس دينية لأننا نتبع سلف الأمة! ونحترم ثوابتها.. فهل نعتبر خالد الوليد الذي شرد الملايين وقتل وخطف وذبح مئات الآلاف من البشر، ومع ذلك نعتبره بطل قومي أعز الإسلام والمسلمين؟ وهل أن عزة الإسلام والمسلمين لا تكون إلا بالقتل والذبح والخطف والسبي والاغتصاب؟ أليست هناك عزة للإسلام والمسلمين بشرف؟

لم يعرف العرب أن المسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده، وهو الإنسان المكلف بأن يحمل هم البشرية جمعاء الحريص على تحقيق وتوصيل النفع إليهم مبتغيا بذلك وجه الله طالبا الأجر من الله محافظا على حقوق جميع الخلق بغض النظر عن ديانتهم أو عقيدتهم قال تعالى (وقولوا للناس حسنا) محافظا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم مقتديا برسولنا الكريم عليه السلام حيث يقول (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) فالحمد لله على نعمة الإسلام وتوفيق الإيمان..

وبعد استقرار الحكم العربي في شما أفريقيا، يبدأ الحلم الجميل من المغرب لغزو أسبانيا، فمع استتباب الأمر لموسى بن نصير في بلاد المغرب.. هؤلاء طالما كانوا يموتون في هذه الحروب فنحن اعتبرناهم شهداء في سبيل الله بينما هم شهداء في سبيل المال والسلطة والنساء، لأنه ببساطة

هناك عصابات المافيا واللصوص وقطاع الطرق الذين يعرضون أنفسهم لمخاطر جمة في سبيل الحصول على المال، وحتى إذا نجوا من الموت فهم معرضون للمطاردة والملاحقات الأمنية طوال العمر، ومع ذلك يجازفون بالموت في سبيل المال، غير أن كافة الشعوب مارست الغزو والعدوان وقدمت تضحيات مماثلة، فالاحتلال الأوروبي للشمال الأفريقي لم يأت ليتسلم هذه البلاد على طبقٍ من ذهب، بل قدم تضحيات من المال والعتاد والأرواح في سبيل الحصول على الثروة، حتى أنه في مطلع القرن العشرين تناقصت شريحة الشباب بدرجة كبيرة جدا، وأصبحت الحدائق العامة ممتلئة بالعواجيز الذين يتجولون بين الأشجار ويستريحون على مقاعد الحدائق بين الفتيات العذارى بدلا من الشباب لأن الشباب ذهبوا في الحروب الاستعمارية في بلاد الشرق، ولم يبق إلا كبار السن والفتيات والأطفال. فهل كان هؤلاء شهداء في سبيل الثروة التي جلبوها لوطنهم بريطانيا العظمى؟ غير أنه معروف أن كل غازٍ محتل يدخل بلدا فحتما سينشر فيها ثقافته ولغته ودينه، حتى وإن لم يُكره أحدا على هذه اللغة أو الدين، ففرنسا لم تكره الجزائريين على التحدث بالفرنسية، ولكنهم تحدثوا، حتى أن الأتراك عندما احتلوا مصر نشروا ثقافتهم ولغتهم واقتبسوا حضارة المصريين وفنونها، فطبيعة كل محتلٍ أن ينشر ثقافته، لكن هناك فارق بين من ينشر ثقافته مع احتلال الشعوب ونهب الثروات، وبين من ينشر دينا لله.

كانت النية قد اتجهت إلى عبور البحر والدخول إلى القطاع الجنوبي من إسبانيا، لذلك أخذ موسى ابن نصير في الإعداد للغزو، وكان قد اختار مولاه طارق زياد، لما اشتهر عن هذا القائد من شجاعة وبلاء حسن في ساحات الوغى، لقيادة الحملة على الأندلس. وكان طارق يقود جيشا معظمه من البربر (يقول الرواة أن الجيش الذي غزا الأندلس كان بأكمله من البربر، الأمر الذي يرجح عند البعض أن طارق كان بربريا وإلا ما كان باستطاعته قيادتهم وهم المعروف عنهم ميلهم الأصيل للتمرد والعصيان).

وفي عام ٧١١ م، كانت هناك أربع سفن تمخر عباب البحر متجهة إلى الأندلس بجيشٍ قوامه سبعة آلاف مقاتل، منهم ثلاثمائة رجل فقط من العرب، وكان "يليان حاكم مدينة طنجة المغربية" هو المسئول المباشر عن توفير هذه السفن للمسلمين. يقول ابن عذارى إن يليان كان يحمل

"أصحاب طارق في مراكب التجارة التي تذهب إلى الأندلس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك ويظنون أن المراكب تذهب للتجارة، فحمل الناس أفواجا أفواجا إلى الأندلس."

وهنا نقف وقفة خفيفة على أعتاب الأندلس التي تم فتحها لنشر الإسلام، ومن المفترض بداءة أن العرب هم من ينشرون دينهم لأنهم الأكثر علما وفقها به من غيرهم وهم من عايشوا الرسول عن قرب ويفهمون أحكام القرآن وتعاليمه السمحة، ومن المفترض أن يشكل العرب لجنة أو مجموعة من الحكماء والمثقفين والعارفين بشؤون الدين الإسلامي ويرسلونهم إلى البلاد لتعريف الشعوب بأحكام ومبادئ وقيم هذا الدين، ومن الطبيعي أن هؤلاء الشيوخ عند دخولهم بلدا أن يستأذنوا للضيافة وفقا لآداب الإسلام، ثم ينتشروا بين الناس، ويندمجون في معاملاتهم ليعرفوهم بالدين الجديد كما فعل رسول الله عليه السلام في مكة والمدينة المنورة.. إنما العرب جلسوا في قصورهم وحولهم الخدم والسبايا الجميلات وجندوا البربر لغزو الشعوب، وهم لا يعرفون أي شيء عن الإسلام، حتى أنهم دخلوا الأندلس بطريق الغش، حيث تفرقوا فرادى ومجموعات اندست في السفن التجارية واختبأوا في الأندلس حتى وصل طارق بجيشه فجأة في أربع سفن، فتجمع الجميع وكونوا جيشا داخل الأراضي الإسبانية وفاجأوا (العدو) واحتلوا بلاده لينشروا فيها الإسلام!.

فطارق ابن زياد هو نسخة حربية ثانية من خالد ابن الوليد، وهتلر، وما الفارق بينهم إلا أن خالد صحابي جليل، يجيد العربية ولا يجيد الإسلام.. أما هتلر فلا يتكلم العربية لكنه يحب الإسلام أكثر من خالد، على الأقل كان هتلر يحترم صلاة المسلمين ويأمر مساعديه بالسماح لهم بالصلاة في مواقيتها، بينما خالد الوليد كان يفطر رمضان من أجل الحرب.. أما طارق زياد لا يجيد العربية ولا الإسلام، ومع ذلك قام بشحن جنوده (الدعاة) على مراحل خلسة في السفن التجارية إلى الأندلس واستغل ظروف البلد الداخلية واضطرابات الثورة التي كانت مشتعلة في أسبانيا، وقد حمل ما يقارب الخمسة آلاف جندي جملة في سفنه كمرحلة أخيرة لنقل جيشه إلى أسبانيا لمباغتة الأسبان على حين غفلة من أمرهم، واتفق مع الملك المخلوع على الهجوم على بلاده، ثم بعد النصر المزيف يقوم جيش المسلمين بالغدر بالملك المخلوع عند تقسيم الغنائم، فينقض المسلم عليه في غفلة من أمره ليهزمه ويستولى على الغنائم كلها وعلى البلد كله، وهكذا يكون قد نشر فيها الإسلام! وهذا ليس نشرا للإسلام ولا دعوة إلى سبيل الله بالحكمة ولا بالموعظة الحسنة، هذه من أبشع عمليات السطو المسلح في التاريخ. ثم بعد ذلك يقوم بحمل السبايا من النساء الحسناوات والأطفال والغلمان

إلى أمير المؤمنين الخليفة الذي ينتظر في العاصمة الإسلامية دمشق! فما ذنب هذه الأسر التي تشردت أو ما ذنب النساء والأطفال إذا قتل آباءهم وأزاوجهم في الحروب أن يتم استعبادهم وبيعهم في أسواق النخاسة في شبه الجزيرة العربية أو ما ذنب طفل أو طفلة إذا رفض والده أو والدها دفع درهم جزية وتمسك بشرف الدفاع عنهم أن يتم خطفها وتشريدها واستعبادها وبيعها في أسواق العبيد العربية؟ هل هذا هو الإسلام؟ فإذا قلنا أن هذا هو الإسلام، فذلك يعني أحقية الشعوب الأخرى في أن تفعل ما فعله العرب بهم.. لأن خير موارد العدل القياس على النفس.. إن هذا التاريخ الدموي القبيح لا يمثل الإسلام.. وإنما يمثل العرب في شبه الجزيرة ومن عاونهم، فلهم الحق اليوم بأن يفخروا ويفتخروا ببطولاتهم وتوسعاتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية.. برغم أن العرب لم يعرفوا معنى الاقتصاد ولا الحضارة، لكن فقط قام اقتصادهم على ما جنوه من خطف النساء والأطفال وتجارة البشر وأسواق النخاسة التي ملأت مدنهم، وكانت مصدر الدخل القومي لهم.

ومع وصول القوات العربية إلى أراضي الأندلس، تبدأ الاشتباكات المتتالية بين المسلمين والأسبان، والتي تنتهي بأكبر جولة كانت بين الفاتحين وبين قوات الأسبان بقيادة "لذريق"، استمرت هذه المعركة حوالي ثمانية أيام، انتهت بهزيمة قوات الأسبان وتراجعت صفوفهم والمسلمون لا يرفعون السيوف عن رقاب الأسبان لمدة ثلاثة أيام. ويواصل طارق زياد مسيرته نحو مدن الأندلس، فيتجه إلى "طليطلة" لكن قصة الفتح لا تنتهي عند هذا الحد. إذ ظلت الحرب دائرة إلى أن استكمل موسى بن نصير جهود طارق، ومن بعدهما عبد العزيز موسى الذي استكمل الفتح العربي للأندلس حين بسط نفوذ المسلمين على الجانب الغربي من الأندلس (البرتغال حاليا).

لتبدأ بعثات السبايا؛ خطف الأطفال والنساء والفتيات وإرسالهم إلى عاصمة الخلافة الأموية على فترات دورية مع الكنوز والأموال وحصيلة الخراج والجزية والإتاوات وما تمت مصادرته من أموال، ثم قام الخليفة باستدعاء طارق زياد وقائده موسى نصير إلى عاصمة الدولة الإسلامية لمكافأتهم على نشر الدين الإسلامي في غرب أوروبا وبلاد الأندلس.. وبالفعل تحركوا واحدا تلو الآخر مع إحدى حملات السبايا والغنائم، وقام الخليفة باعتقال موسى ابن نصير وتجريده من كل شيء وأودعه السجن، حيث اتهم الخليفة موسى وطارق بالاستحواذ على بعض الغنائم والسبايا، لأنهم لم يرسلوا له ما كان ينتظره منهم، فكافأهم على ذلك.. وانتهت الأيام بموسى وقد وصل عمره

الخامسة والسبعين يتسول في الشوارع والطرقات ويستجدي قوت يومه بعدما نشر الإسلام في ربوع الدنيا كلها !.

وبقي الإسلام منتشرا في أوروبا على يد المجاهدين في سبيل الله، حتى أن كل من أسلموا خلال المائة سنة الأولى لم يتجاوز عددهم أقل من ١٪ من سكان الأندلس، ومع ذلك أخبرنا الفقهاء أن المجاهدين ذهبوا إلى الأندلس لنشر الإسلام ! وأن الفتوحات جاءت لإزالة العقبات من طريق الدعوة!، فلماذا لم ينشروه ؟ كيف دخل سبعة آلاف مجاهد في سبيل الله وعملوا على نشر الدعوة خلال مائة سنة، وفي النهاية أقل من ١٪ فقط من الشعب الأندلسي؟ بينما أعداد السبايا والعبيد تفوق أعداد من أسلموا بآلاف المرات، فهل ذهبوا حقا لنشر الإسلام ؟

هذا هو الفصل الأول من الحلم، فصل شديد القوة، تظلله أسماء حفها الاحترام والإجلال لشجاعتها وقوة شكيمتها (مع الأعداء) ونخوتها واعتزازها القوي بعروبتها وإسلامها. وكما يقول العلماء بأن الفتوحات لم تكن لإكراه الشعوب على الإسلام وإنما كانت لإزالة العقبات أمام انتشاره وقتل الممانعين له، على اعتبار أن حكام هذه البلاد قد وقفوا في وجه الناشرين العرب ومنعوهم من نشر الإسلام في بلادهم ولهذا تدخل العرب بالحرب لإزالة العقبات ! هل كانت العقبات متخصصة لدعاة الإسلام دون غيره من الأديان؟ فلماذا انتشر تلاميذ المسيح في كل الدنيا ونشروا دينهم دون عقبات؟ ولم يضطروا لخوض سلسلة مريرة من الحروب وبحور خلفها من الدماء؟ أم أن كل واحدٍ منهم اصطحب جيشا جرارا خلفه لإزالة العقبات كما لو كان كاسحة جليد؟ أم أن الله أرسل التوراة بالسلام وأرسل الإنجيل بالسلام وأرسل القرآن بسيوف العرب؟ فالرسالة هي الرسالة، والعبادة هي العبادة، والإله هو الله، وما القرآن إلا خاتم الكتب والرسالات.

لكننا نتساءل؛ أي عقبات هذه التي تمت إزالتها إذا كانت الشعوب لم تدخل في الإسلام حتى بعد أن فتحها العرب وعاشوا فيها مئات السنين، فإذا قلنا أن الفتوحات كانت لإزالة الموانع أمام نشر الإسلام، فهذا معناه أنه بمجرد إزالة هذه العقبات والموانع فإن الناس سيدخلون في دين العرب أفواجا، لكن الواقع كان مختلفا تماما؛ لأن نسبة الذين اعتنقوا الإسلام في هذه الشعوب بعد فتحها وخلال المائة العام الأولى كالآتي: في فارس (إيران) كانت نسبة المسلمين فيها هي ٥٪، وفي العراق ٣٪، وفي سورية ٢٪، وفي مصر ٢٪، وفي الأندلس أقل من ٠.١ % خلال مائة عام من وجود العرب المسلمين في هذه

البلاد.. في حين أن الضحايا الذين قتلوا دفاعا عن بلادهم وأعراضهم وأموالهم كانت نسبتهم تفوق هذه الأعداد بكثير؛ إذ أن خالد الوليد قتل ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف نسمة خلال عام واحد في فتح العراق وأجزاء من فارس، وعدد الذين اعتنقوا الإسلام على يده لا يتجاوز ١٪ ممن قتلوا على يده.

أما الفصل الأخير من الحلم كان على النقيض تماما.. منتهى الضعف والتخاذل والتشرذم إلى دويلات لم تكن قادرة، وهي منعزلة عن بعضها البعض، أن تتوقف أمام حركة الاسترداد الأوروبي لأراضي شبه الجزيرة الأيبيرية (يرى المؤرخون الأسبان أن هذه الحركة تبدأ من معركة "كوفا دونجا" أو مغارة دونجا وفيها انهزم ابن علقمي اللخمي شر هزيمة من قوات "بلايه"، وانتهت بتأسيس أولى الإمارات المسيحية في شمال الأندلس). وبنفس العوامل التي كانت الساعد الأيمن للمسلمين في فتح الأندلس (الخيانة)، سقط العرب بخيانة بعضهم بعضا.. بعد أن عاشوا في الأندلس ما يقارب ثمانمائة عام كاملة.. لكن هذه الفترة من الزمن لم تمر مرور الكرام، بل اتصفت بذات طابع الصراع والعنف الدموي والنزاعات السياسية والعسكرية والتفتت.. حتى رحل العرب واستعاد الأسبان بلادهم مرة أخرى.(٧٧) وعاش العرب يبكون على اللبن المسكوب بقية الدهر..

نشر العرب دينهم في بلاد الأندلس واطمأنوا خلال ٨٠٠ سنة، ثم جاء رد الفعل من الأسبان بمحاكم التفتيش" التي أقامتها الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى، كانت تهدف إلى تطهير المجتمع المسيحي ممن اعتبروهم (الكفار). وهؤلاء الكفار هم الذين تركوا المسيحية واعتنقوا الإسلام، وغيرهم من اليهود.. كان المسيحيون الأسبان يعتبرون كل من لا يؤمن بدينهم كفار، كما اعتقد العرب وقاتلوا نصف العالم بذات الفلسفة الفاسدة.. كل الفارق بين فتح العرب واسترداد الأسبان هو السبايا.. فالعرب عندما دخلوا الأندلس نهبوا الدور والقصور والكنوز وخطفوا الأطفال والنساء والفتيات واغتصبوا ما طاب لهم، وامتلأت بيوتهم بالعبيد والخدم وامتلأت أسواقهم أيضا بالعبيد، بينما الأسبان اكتفوا بطرد العرب، وحافظوا على القصور والكنوز، جعلوها متاحف تستقطب السياح من كل أرجاء العالم، خاصة السياح العرب لمن أراد البكاء على المجد الضائع..

---

٧٧ ـ منقول مع التصرف، عن مدونة تبيان ـ الكاتب / عبد السلام عصر ـ مهندس مدني، وباحث في التاريخ الإسلامي، وكاتب

على الرابط التالي: https://tipyan.com/the-whole-story-of-andalusia/

لكن الأمر لم يتوقف عند محاكم التفتيش التي أسسها الصليبيون لمن اعتبروهم "كفار" (المسمين واليهود) بل جاءت خطوة استباقية للفتوحات الصليبية في الشرق.. في بلاد العرب.. في هجمة ارتدادية لنشر الدين المسيحي في بلاد العرب وحماية مقدساته في مدينة القدس !.. ففي الوقت الذي كادت تنتهي فيه صفحة العرب في أوروبا، كانت أوروبا تفتح الصفحة التالية في الشرق، وتتابعت الحملات الصليبية على بلاد المسلمين باسم الدين أيضا.. وهكذا استمرت الحملات وحملات ارتدادية.. وجميعها باسم الدين، وجميع الأديان منها براء. فإذا اعتبرنا عصر الفتوحات والبغي والعدوان العربي والخلافة السلالية الاستبدادية هو عصر العزة والكرامة ورفعة شأن الإسلام، فمن حق المسيحيين أن يفتخروا ويتفاخروا اليوم بحروبهم الصليبية التي اجتاحت العالم باسم الصليب ومن أجله ، من حق الأسبان أن يفتخروا باسترداد بلادهم من يد العرب بعد مرور ثمانية قرون، ومن حقهم أن يبرروا محاكم التفتيش التي أقاموها للكافرين في طول البلاد وعرضها (المسلمين واليهود).

نشر الإسلام في شرق آسيا

في جهة الشرق، كان الوضع أسوأ حالا.. فإذا عدنا إلى عصر الثقافة الهندية قبل الإسلام سنجدها كانت في العموم ثقافة تحمل طابع الخير ومحبة للعلوم والمعرفة والتعلم أكثر بكثير مما كان عليه العرب من حياة البادية والشظف والجهل وهجمات السبي القبلي والصراعات الطائفية.. كان في الهند حضارة مزدهرة وقصور ومكتبات عامرة. ومنذ عهد الدولة الأموية، مرورا بالمغول، إلى حكم باهادر شاه(1858) ، الذي يعتبرونه قائدا عظيما، مدن بأكملها تم حرقها، وتم عمل إبادة جماعية بحق السكان، مئات الآلاف كانوا يقتلون مع كل حملة عسكرية، وأرقام مماثلة لبشر تم ترحيلهم كعبيد إلى شبه جزيرة العرب في حملات متتالية، كل غازٍ يعمل تلاله الخاصة من جماجم الهنود، كانوا يتعاملون معهم وكأنهم أقل من الحيوانات.. لم تكن هناك رحمة ولا إنسانية.. فالقتل والذبح كان جزاء من لا يؤمن أو يدفع. وهكذا كان غزو أفغانستان في عام ١٠٠٠م الذي جاء لاحقا لإبادة الهندوس، والمنطقة كانت لا تزال تسمى (هندو كوش)، أي ذبح الهندوسي.

وتوجد أدلة على أكبر إبادة جماعية للسكان في تاريخ العالم من روايات شهود العيان التاريخية المعاصرة. المؤرخين وكاتبي السير من الجيوش الغازية وحكام الهند تركوا الكثير من السجلات المفصلة للفظائع التي ارتكبوها أثناء مواجهاتهم يوما بعد يوم مع الهندوس في الهند. هذه السجلات التاريخية المعاصرة كانت تتفاخر وتقوم بتمجيد الجرائم التي تم ارتكابها ـ الإبادة الجماعية بحق عشرات الملايين من الهندوس، الاغتصاب الجماعي للنساء الهندوسيات وتدمير الآلاف من المعابد والمكتبات.

عرفان حسين (في مقالته (شياطين من الماضي) كتب" : الأحداث التاريخية يجب أن يتم الحكم عليها في إطارها الزمني، فلا يمكن الإنكار أنه وحتى في تلك الفترة الدموية من التاريخ، لم يتم إظهار أي رحمة للهندوس قليلي الحظ الذين كانوا معبرا للفاتحين العرب لبلاد السند والبنجاب، أو القادمين من آسيا الوسطى و اجتاحوا المنطقة من أفغانستان.. الأبطال المسلمين الذين لهم صورة أعظم من الحقيقة في كتب التاريخ ارتكبوا جرائم مروعة . محمود الغزنوي، قطب الدين

أيبك، بالبان، محمد قاسم، والسلطان محمد توغلاق، كلهم لديهم أيدي ملطخة بالدماء لم يمسحها تقادم السنين عبر الزمن.. بالرؤية عن طريق عين هندوسية، فإن الغزو العربي لبلادهم كان كارثة تامة. معابدهم تم تدميرها، رموزهم الدينية تم تحطيمها، نسائهم تم اغتصابهن، رجالهم تم ذبحهم أو أخذهم كعبيد. عندما دخل محمود الغزني(سومنات) في إحدى غزواته السنوية، ذبح ٥٠,٠٠٠ وهم كل سكانها .أيبك قتل واستعبد مئات الآلاف. قائمة الرعب طويلة و موجعة. هؤلاء الفاتحين الغزاة برروا أفعالهم بأنها واجب ديني مقدس لضرب غير المؤمنين. عن طريق وضع أنفسهم في خانة الإسلام، زعموا بأنهم يحاربون من أجل معتقدهم، وفي الحقيقة كانت الرغبة في الذبح والسلب والاغتصاب هي الواضحة"...

أما المؤرخ الفارسي (وساف) كتب في كتابه أنه عندما قام علاء الدين الخلجي وهو (حاكم من سلالة الخلجي في الهند من أصول أفغانية تركية ١٢٩٥-١٣١٦ بعد الميلاد باقتحام مدينة كامبايات (على رأس خليج كامباي) قتل الذكور البالغين من السكان من أجل عظمة الإسلام، و أجرى أنهارا من الدماء، و أرسل نساء المدينة مع ذهبهن وفضتهن وجميع مجوهراتهن إلى بلده، و ألحق حوالي عشرين ألف نسمة من الهندوس إلى طاقم الخدمة و العبيد الخاصة به.. الهند لديها تاريخ ثقافي عميق. هذه الثقافة كانت متداخلة في أعمال بديعة في الثقافة والفكر وحرية العبادة والحرف الفنية. قبل وبعد وخلال الأيام الأولى للإسلام، استمر العلماء الهنود عملهم في العلوم، الرياضيات وما تشمل من (الصفر، الجبر، الهندسة، النظام العشري، ما يسمى بالأرقام "العربية" وهي في الحقيقة أرقام هندية!)، الطب، الفلسفة.. إلخ، وحتى في بلاطات وحكم الآخرين (كالمسلمين في بغداد مثلا.). الآخرين كانوا يأتون إلى الجامعات الهندية، الأطفال الهنود (الذكور والإناث) كانوا متعلمين في نظام تعليمي حكيم يحتوي على طيف واسع من المواضيع العلمية مثل العلوم و الطب و الفلسفة. الفن و العمارة الهندية كانت رائعة. كانوا شعبا مزدهرا. إلى أن جاء الإسلام ـ ذبح، استعباد، اغتصاب، عنف، نهب، تدمير للمواقع الدينية والحضارية الفنية والمعمارية، فقر، استغلال، إهانة، مجاعة، تحويل قسري للدين الإسلامي، انحدار في الأنشطة الذهنية، تدمير اجتماعي واستفحال الأمراض الاجتماعية. في الإسلام، تم اعتبار أن كل شيء غير إسلامي هو من زمن ـ الجاهلية ـ ويجب تدميره (أو الاستيلاء عليه وتسميته معلم إسلامي!)، أفغانستان الهندوسية تم

تدميرها و تم إنشاء باكستان، كشمير، و بنغلاديش على أنقاضها. كان ثمن الغزو الإسلامي هائلا في الأرواح، الثروات والثقافة. تقديرات تقترح أن مابين ٦٠ إلى ٨٠ مليون قد قتلوا على يد الغزاة المسلمين وحكامهم مابين عامي ١٠٠٠ و ١٥٢٥ وحدها (خلال ٥٠٠ عام انخفض التعداد السكاني بشكل مخيف).

كانت تلك عينة بسيطة من شهادات شهود العيان المعاصرين ومن الغزاة (الفاتحين) والحكام و مساعديهم أثناء حملات الغزو الإسلامي للهند. والحاكم الأفغاني المسلم محمود الغزنوي غزا الهند ما يقارب ١٧ مرة مابين العام ١٠٠١ والعام ١٠٢٦ م. ووثق وزيره الأحداث التي قاموا بها يوما بيوم في كتاب تاريخ يميني، وثق العديد من الحلقات الدامية للغزوات العسكرية، وكتب متفاخرا يقول: "دماء الكفار تدفقت بغزارة (في مدينة تهانيسر الهندية) حتى أن التيار كان مشوها، على الرغم من نقاوتها كان الناس لا يستطيعون شربها... الكفار هجروا الحصن وحاولوا عبور النهر.. لكن العديد منهم تم قتلهم، وأسرهم، أو غرقوا... تقريبا ٥٠ ألف رجل قتلوا " (٧٨)

وهذا المشهد البشع الذي يتفاخر به الوزير المجرم، هو ذات السيناريو الإجرامي الذي ارتكبه خالد ابن الوليد في موقعة نهر الدم خلال الفتوحات العربية في عهد الخليفة الأول. كانت الكارثة أنهم يرتكبون الجرائم دون أن يشعروا بمدى الجرم وانعدام الإنسانية.. فالسمة المشتركة بينهم جميعا أنهم يتباهون بالذبح والدماء، خاصة عندما تسيل في الأنهار.. لدرجة أن الإرهاب المعاصر "داعش" حاولوا إعادة تجسيد هذه المشاهد مرة أخرى ليمتعوا نفوسهم بالذكرى الجميلة، فلم يجدوا نهرا قريبا منهم، فأخذوا الشباب العراقيين وأوقفوهم صفوف مقيدين بالسلاسل على حافة حمام سباحة، وأخذوا يضربونهم كل واحد رصاصة في رأسه على حافة الحمام ليسقط في المياه، كي يستمتعوا بمشهد اختلاط الدم بالمياه الذي كان يستمتع به سلفهم الفاتحون الأوائل.. وقاموا بكل فخر بتصوير هذه الجريمة ونشر مقطع فيديو على الشبكة كي يرعبوا العالم، كما فكر خالد وغيره، كان المشهد بشعا للغاية، لدرجة أن شركة جوجل وفيسبوك ويوتيوب قامت بحظر

[٧٨] ـ ترجمة المهندس الكاتب: مصطفى الفارس على الرابط التالي:

https://mustafaris.com/post/islamic-invasion-of-india-the-greatest-genocide-in-history/

وقد قررت عمدا الاستعانة ببعض المصادر الأجنبية ليعرف القارئ المسلم ماذا يكتب العالم الأجنبي عن تاريخ العرب وينسبونه للإسلام ظلما بسبب العرب

الفيديو لبشاعته وحتى لا يزعج الناس، فالنفوس السليمة بالفطرة لا تتحمل هذا الكم من البشاعة ولو مجرد المشاهدة، بينما النفوس المريضة هي التي تتفاخر وتستمع بالممارسة والتعذيب والقتل ومنظر الدماء. ثم عندما يعترض المسلمون على ما تفعله إسرائيل بأشقائنا الفلسطينيين وأطفالهم، فيأتي الرد تلقائيا أن المسلمين قد استعمروا أجزاء واسعة من العالم بوحشية وقتلوا وذبحوا ملايين سابقا، فلماذا يشجبون الآن الممارسات ذاتها بعد أن صاروا ضعفاء غير قادرين على مواجهتها.

وأما عن الفتوحات في الجانب الآخر من العالم، فكان لها شكلٌ آخر لا يقل بشاعة وإجراما عن الوضع في الشرق، " فقد استطاعت قوات محمد الفاتح (السلطان العثماني)، عبر مدافعها أن تخترق حصون القسطنطينية، التي تمنعت على المسلمين قرونا طويلة. دخلت القوات المسلمة، وقتلت الآلاف حتى بعدما توقفت كل محاولات الدفاع عن المدينة، وأسروا كل بالغ ينتفع به في العمل غنيمة، واغتصبوا النساء؛ حتى الراهبات منهن تم اغتصابهن بعنف، ولم تهدأ تلك الثورة الجنسية، إلا حين وجد محمد الفاتح أحد جنوده يتلف الممر الرخامي لكنيسة آية صوفيا، فغضب بشدة وأمر جنوده أن يلتزموا الهدوء، فالغنائم لا بد أن تصان حتى ينظم أمرها السلطان." ! هكذا كان الفتح باسم الدين !

أما مدينة فاما جوستا الواقعة في قبرص، فسقطت في يد القوات العثمانية المسلمة، بعد حصار دام عامًا بأكمله. يدخل المسلمون فيعاقبوا قائد فاما جوستا "مارك أنطونيو براغادينو" الذي دافع عنها ببسالة لمدة عام، كان العقاب هو قطع أنفه وأذنيه، وإبقائه على قيد الحياة لأكثر من أسبوع وهو على هذه الحالة، ومن ثم تم سلخه حيًا، وتم حشو جسده المسلوخ بالقش، وأرسل الجسد إلى القسطنطينية بعد ذلك ليبقى تذكارًا خالدًا للنصر. !

في حين أننا لو عدنا سنجد "وصايا رسول الله عندما يرسل الجيوش في الحرب والقتال وعند النزال" قال رسول الله محمد صل الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم يوصي الجيش في غزوة مؤته: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا بصومعة ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناءً». وقال أبو بكر الصديق (لا تقتلوا صبيا ولا امرأة ولا شيخا كبيرا ولا مريضا ولا راهبا ولا تقطعوا مثمرا ولا تخربوا عامرا ولا تذبحوا بعيرا ولا بقرة إلا لمأكل ولا تغرقوا نحلا ولا تحرقوه). وعَنِ ابن عباس رضي الله

عنهما قالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ: "اخْرُجُوا بِسْمِ اللهِ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ لَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ".

فالحرب عند المسلمين دائما اضطرارية؛ كـ ضرورة الدفاع عن حرية العقيدة وحرمات المسلمين وأعراضهم وأموالهم وأراضيهم والدفاع عن بلاد الإسلام والمسلمين أينما كانوا بشكل عام. لا مبادأة للقهر والظلم. إن مشروعية القتال في الإسلام تختلف عن غيرها من الأنظمة والقوانين، ومن شاء أن يدرس طبيعة المعارك التي دارت في عصر النبي عليه السلام؛ فجميعها كانت حروب دفاعية لا هجومية فيها أبدا. ورؤية رسول الله (ص) للدوافع التي ينبغي أن تقوم الحرب من أجلها واضحة؛ وهي دوافع لا يُنكرها منصف، ولا يعترض عليها محايد، وهذه الدوافع تشمل ردّ العدوان، والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين.

إن المتأمل لحروب رسول الله محمد عليه السلام ضد أعدائه سواء المشركين، أو اليهود، أو النصارى، ليجد حسن خلق رسول الله عليه السلام مع كل هؤلاء الذين أذاقوه ويلات الظلم والبطش، كما كان رسول الله في كل حروبه عادلا لا يظلم أحد فإذا تأملنا وصايا رسول الله(ص) للجيوش المجاهدين نجد كمال الأخلاق ونبل المقصد، ولم تكن حالات الحرب والقتال لتخرج النبي محمد عليه السلام عن أخلاقه السامية، وعن رحمته عليه السلام التي يتحلى بها حالَ السّلم؛ لذا فقد كان يرحم الغِلمان وصغار السن الذين لا يملكون أمرهم، كما كان الرسول عليه السلام يوصي بالنساء وينهى عن قتل النساء فلا يجوز أن تتعدى الحرب إلى المدنيين الذين لا يشتركون فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعجزة، أو العبّاد المنقطعين للعبادة، أو العلماء المنقطعين للعلم، لأن القتال هو لمن يقاتلنا فقط.

لم تكن حروب الرسول عليه السلام حروب تخريب كالحروب المسماة بالفتوحات التي حرص فيها المقاتلون على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم، وقتلهم واستعبادهم وأسر أسرهم وأطفالهم وخصيانهم، بل كان النبي عليه السلام والمسلمون يحرصون أشدّ الحرص على الحفاظ على العُمران في كل مكان، ولو كان بلاد أعدائهم ،وظهرت رحمة الرسول عليه السلام في حرصه حتى على القتلى ، وكذلك على مشاعر ذويهم؛ لذا فقد نهى الرسول عليه السلام عن المثلة أي تشويه جثث القتلى، فعن عمران الحصين رضي الله عنه: "كَانَ رَسُولُ اللهِ عليه السلام يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ

وينهانا عن المثلة". ورغم ما حدث في معركة أحد من تمثيل المشركين كفار قريش "بـ سيد الشهداء أسد الله وأسد رسوله حمزة عبد المطلب هاشم رضي الله عنه" عم رسول الله محمد عليه السلام، فإنه عليه السلام لم يغيّر مبدأه، بل حرص على النهي عن المثلة أي تشويه جثث القتلى حتى مع المشركين، ولم يرد في التاريخ حادثة واحدة تقول: إن المسلمين مثلوا بأحدٍ من أعدائهم.

أما على الجانب الآخر، فقد جاء رد الفعل على العرب في عقر دارهم، في عاصمة الخلافة العباسية ذاته، حيث تفاجأ الجميع بقدوم المغول.. ويوم دخل هولاكو بغداد قتل العلماء و التجار والقضاة، وقال لجنوده ابقوا **الخليفة** المستعصم حيا حتى يدلنا على أماكن كنوزه.. وذهب المستعصم معهم ودلهم على **مخابئ** الذهب والفضة والنفائس وكل المقتنيات الثمينة **في** داخل وخارج قصوره ومنها ما كان يستحيل أن يصل إليه المغول بدون **إرشاده**، حتى أنه أرشدهم إلى نهر مطمور من الذهب المتجمد لا يعلم أحد بمكانه، **كان الذهب مطمورا في نفق عميق تحت حمام سباحة بالقصر**، فقال له هولاكو لو كنت أعطيت هذا المال لجنودك لكانوا حموك مني.. لم يبك المستعصم على الكنوز والأموال **والبلاد والعباد**، ولكنه بكي حين أخذ هولاكو يستعرض **نساءه الجميلات** وعددهن ٧٠٠ زوجة وسرية وألف خادمة وأخذ الخليفة يتضرع إلى هولاكو قائلا " منّ على بأهل حرمي اللائي لم تطلع عليهن الشمس والقمر ".. ضحك هولاكو من قول المستعصم وأمر أن يضعوه فى شوال (كيس من الخيش) ثم يضربه الجنود ركلا بالأقدام حتى الموت.. يقول المؤرخون أن ما جمعه بنو العباس فى خمسة قرون أخذه هولاكو **في** ليلة..

هذه لمحة سريعة من تاريخ الفتوحات العربية في الشام والعراق وفارس والهند، التي مازال الأزهر إلى اليوم يحتفل بها ويعتبرها أعمالا قومية وبطولات عظيمة قام بها فدائيون مجاهدون في سبيل الله، ولذلك استمرت فتاوى الفقهاء على مدار التاريخ تحث الحكام على الحروب وحددوا لها مواعيد دورية، وتحديدا في مواعيد تحصيل الجزية سنويا لأنها مصدر دخل قومي لا يستهان به، فلا ينبغي أن ننس أن خالد الوليد عندما غزا العراق وفارس لم يكتفي بمقدار الجزية ولا بحدودها، بعد أن ضاعف من قيمتها أضعافا مكررة، وإنما ابتكر طرقا أخرى ووسائل عديدة لتحقيق الغاية، وكان من ذلك ابتكاره لتحصيل الضريبة على الجماجم (الأشخاص) والخراج، وهو ضريبة سنوية تفرض على الأملاك، وكان لهذا الخراج ويلات على أهل البلاد المفتوحة، خاصة في طريقة تقييم أملاكهم والتظلم من حجم التقييم الجزافي. لكن الأمر سيزداد سوءا عند فتح مصر وتصبح هذه

الأملاك ملكا خالصا للعرب، على أن يستمر أصحابها في زراعة الأرض وتنميتها مقابل حصة فقط من محصولها !

لم تكن رسالتهم في الحياة: نشر الحب السلام والعلم والوعي والحق والعدل والسعادة لكل، بل يكرهون أي إنسان لا يؤمن بفكرهم ويقتلونه ويسلبون أمواله، لم يحترموا الإنسان لكونه إنسان، فلم تحظ قيم الإنسانية لديهم بأي تقدير، ولم يعطوا قيمة للإنسان لكونه إنسان، بل شرعوا قتله لكونه رفض الإسلام أو رفض الجزية مع أن الله يقول مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ.(٣٢)/المائدة، لكنهم حتى لم يرجعوا لكتاب الله في تفسير آيات الجهاد في سبيله، بل اقتنعوا وأفتوا بأن الإنسان إن لم يسلم فهو أحق بالقتل، بل إن من تشريعاتهم للجزية فهي كانت لأهل الكتاب فقط أي المسيحيين واليهود أما غيرهم فالأصل عندهم قتله! مرضاة لله! وليس له خيار دفع الجزية ! فما قيمة الحياة وما قيمة الدعوة إلى الله إذا قتل الإنسان ؟ إن فطرة الله تقتضي إبقاء هذا الإنسان حيا لدعوته إلى الله عله يؤمن به يوما ما أو يأتي من ذريته من يؤمن بالله ويصلح ما أفسده آباؤه... فالمهتما غاندي حرر شبه القارة الهندية بالسلام مع أنه كان مشروعا له استخدام السلاح لكنه وفر دماء شعبه.. بينما يحتفل المسلمون إلى اليوم بأن خالد الوليد قتل أربعمائة ألف إنسان خلال سنة واحدة، وهو ما يفوق ضحايا القنبلة النووية في الحرب العالمية..بينما النبي لم يقتل إنسانا في حياته قط.. فالعرب لم يكن لديهم فلسفة السلام ولم يتمكنوا ولم يفكروا في نشر الدين الإسلامي بالطريقة التي نشره بها الدكتور ذاكر نايك.

نحن نعرف أن كل الأديان قد تم ارتكاب المجازر تحت راياتها، وأغلب الأقوام و الحضارات قد نشأت على تلال من الجماجم و أنهار من الدماء، وأن الأراضي والبلدان ما هي إلا حدود متحركة وهذه هي طبيعة الحياة، تأتي أقوام وتنقرض أقوام، تنشأ دول و تضمحل دول أخرى وكل هذا من الماضي وهذه هي طبيعة التاريخ.. السؤال الذي قد يطرحه البعض لماذا التركيز على ما فعله المسلمين من دون التركيز على آلاف المجازر والحروب الطاحنة والاستعمارات في شتى بلدان الأرض؟ الجواب هو بسبب القدسية المزيفة لهذا التاريخ القبيح، وأثر هذا القبح على الإسلام، جميع الدول والديانات أصبحت تعترف بالأخطاء التي تم ارتكابها باسمها، بل وقدم شعوبها اعتذارات عن ذلك، هم متصالحون مع أنفسهم وتاريخهم ويعترفون بالخير والشر الذي فعله أسلافهم، ولا يجدون داع لتزوير حقائق

تاريخية، إلا نحن بقينا كتلة متحجرة كبيرة ندعي المجد ونتفاخر بتاريخ عرب الجزيرة المملوء بالجرائم، نعتبرها بطولات عظيمة، والمشكلة أن هذا التاريخ ينعكس بشكل مخيف على حاضرنا ومستقبلنا ومستقبل أولادنا؛ لأنه اندمج دون وعي في الدين، وتشربت نصوص الدين التراثية بروح العنف والدماء، لدرجة أننا لم نعد قادرين على الفصل بين تاريخ العرب والدين الإسلامي الحنيف، الذي اكتملت مبادئه وتعاليمه بوفاة الرسول الكريم، بينما استمر العرب في تزييف الدين وتحريفه لدرجة أننا لا زلنا إلى اليوم نعتبر خطف النساء والأطفال والسبايا حق وعبادة وجهاد في سبيل الله… فكيف تحولت جرائم الحرب إلى ركن من أركان الدين والعبادة ! حتى أن الفقهاء ابتكروا لهذا الركن الجديد أحكاما ونظموا له ضوابط ومواعيد دورية، وصار له اسما اصطلاحيا اعترفت به كل مذاهب الفقه وأسموه "جهاد الطلب" أي الحرب الهجومية الدورية على الأعداء.. وهم شعوب دول الجوار.. وحدد الفقهاء مواعيدها الدورية بمواعيد تحصيل الضريبة السنوية كما قال أبو حنيفة ! واشترط بعضهم عدم مرور أكثر من عشرة أعوام دون حملات غزو !!

وهناك فارق دقيق لم يدركه الفقهاء، هو الفرق بين الجهاد ونشر الدين، فالجهاد يبدأ من باب المقاومة، وهو فريضة تعني النضال والمغالبة مع الصبر، ويبدأ الجهاد بمغالبة النفس على الهوى وإبعادها عن الرزيلة، ثم يتمدد إلى النضال والاجتهاد في الدفاع عن المجتمع، حيث كان المجتمع يحتضن دينا جديدا تحاصره الكثير من المجتمعات المجاورة، ومن ثم وجب الجهاد في سبيل الله دفاعا عن الأنفس والدين، أما فكرة نشر الدين فقوامها الدعوة، وهي مختلفة تماما وكليا عن موضوع الجهاد وغرضه، فلا يتصور العقل أن جهادا ومغالبة في نشر دين، بل إن نشر الدين بحاجة إلى الحكمة والموعظة الحسنة، ونموذج من الأخلاق والقدوة ليروق للناس اتباعه، ونشر الدين هو حالة من سعة الصدر والخلق الطيب، ولذلك قال تعالى: أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتالي هي أحسن" وقال: ولو كانت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك". أما العرب فقد استخدموا الجهاد والغلظة والمغالبة في نشر الدين وهو ما يسيء إلى الدين ذاته لأن الدين لا ينتشر بالجهاد وإنما بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولأن العرب بطبيعتهم شعب همجي لا يفقهون معنى الحكمة والموعظة الحسنة، فقد استخدموا فطرتهم العنيفة وغلظتهم وهمجيتهم في دخول البلاد المجاورة لهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأنهم ينشرون دين الله. وهذا خطأ كارثي وقع فيه العرب، ثم جاء الفقهاء بعدهم فشرعوا تاريخهم جعلوه ركنا من أركان العبادة، حتى أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه، واعتبروا أن مغالبة الشعوب وتحصيل الجزية منهم هي آلية نشر الدين،

مع أننا لو دققنا النظر في موضوع الجزية بهذا المفهوم سنجده خارجا عن الدين بالكلية؛ فكيف لو رفض إنسان دفع مبلغ ٢ درهم أن تقتله؟ فغالبا ما كانت الجزية تقدر بدرهمين إلى أربعة، وإذ رفض شخص دفع هذا المبلغ استحق القتل ! فهل القتل هنا في سبيل الله؟ ثم أن الإسلام لم يفرض أحكامه عنوة على غير المسلمين، فأحكام الميراث لا يتم تطبيقها عنوة عليهم ولا يتم إجبارهم على الصلاة في المساجد عنوة، ولا يتم إجبارهم على ذبح أضحية في العيد أو صيام رمضان، فكيف يتم إجبارهم على تنفيذ الجزية؟ وهل جاء دفع الجزية مقابل عدم دخولهم الإسلام؟ فلو كان ذلك فيعتبر الإسلام إكراها لمن لا يقدر على الدفع أن يعتنقه ولو ظاهريا حتى يتفادى القتل! فلا مفر أمامه من القتل أو الدفع إلا اعتناق الإسلام، ألا يعتبر ذلك إكراه على الإسلام؟

والغريب أنه بعدما تقدم الفكر وثارت قضايا الرأي العام، وبدأ الشباب يوجهون أسئلة محرجة لدار الإفتاء حول حقيقة ما يثيره الغرب من انتشار الإسلام بالسيف، وهنا وقعت دار الإفتاء في مأزق محرج للغاية، واضطرت إلى اختصار الأمر في حدود عصر النبي وتجاهلت تماما ما حدث في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، قالت إن مجموع تحركات النبي العسكرية نحو ثمانين غزوة وسارية وإن القتال الفعلي لم يحدث إلا في نحو سبع مرات فقط. وأن المحاربون كانوا كلهم من قبائل مضر أولاد عمه صلى الله عليه وآله وسلم فلم يقاتل أحدا من ربيعة ولا قحطان. و أن عدد القتلى من المسلمين في كل المعارك ١٣٩، ومن المشركين ١١٢، ومجموعهم ٢٥١، وهو عدد القتلى من حوادث السيارات في مدينة متوسطة الحجم في عام واحد، وبذلك يكون عدد القتلى في كل تحرك من تلك الثمانين ٣,٥ أشخاص لكل معركة، وهذا أمر مضحك مع ما جبل عليه العرب من قوة الشكيمة والعناد في الحرب أن يكون ذلك سببا لدخولهم الإسلام وتغيير دينهم .

قالت دار الإفتاء المصرية أن ما وقع من قتلى خلال نشر الإسلام هو عدد ضئيل ومضحك بالنظر إلى طبيعة المجتمع العربي، فقد وقع فقط ١١٢ قتيل من المشركين الأعداء الذين بدؤوا بالعدوان على المسلمين في عهد الرسول، ولم تذكر دار الإفتاء أن ما وقع خلال سنة واحدة عقب وفاة الرسول هو ٤٠٠ ألف قتيل وذبيح على يد الصحابة الذين هاجموا شعوب الجوار من غير المعتدين.. تجاهلت دار الإفتاء فترة الفتوحات والخلفاء الراشدين تماما ومئات الآلاف من القتلى والأسرى والأطفال والنساء السبايا والعبيد الذين فقدوا كرامتهم وحريتهم في فارس والعراق والشام ومصر وشمال إفريقيا والمغرب والأندلس والهند، وقفزت إلى الصين وجنوب شرق أسيا حيث البلاد التي دخلها الإسلام عن طريق

المعاملة والاحتكاك في التجارة، تجاهلت دار الإفتاء المجازر الفظيعة التي وقعت عن قرب في الهند باسم الدين والفتوحات، قالت دار الإفتاء[٧٩] : لقد انتشر الإسلام بعد ذلك بطريقة طبيعية لا دخل للسيف ولا القهر فيها، وإنما بإقامة العلاقات بين المسلمين وغيرهم، وعن طريق الهجرة المنتظمة من داخل الحجاز إلى أنحاء الأرض. وهناك حقائق حول هذا الانتشار؛ حيث يتبين الآتي: في المائة العام الأولى من الهجرة: كانت نسبة انتشار الإسلام في غير الجزيرة كالآتي: في فارس (إيران) كانت نسبة المسلمين فيها هي ٥٪، وفي العراق ٣٪، وفي سورية ٢٪، وفي مصر ٢٪، وفي الأندلس أقل من ١.%. أي أنها ذكرت المائة عام الأولى للإسلام ولم تذكر السنة الأولى التي قتل فها خالد الوليد نصف مليون إنسان بحجة نشر الدين ! وذلك تفاديا من الاعتراف بخطأ الصحابة لأنهم هم رواة الحديث وإذا اعترفنا بأنهم أخطأوا وارتكبوا جريمة حرب باسم الدين، فمن الطبيعي أن نضعف ثقتهم في رواية الحديث ونعتمد القرآن مصدرا رئيسا للتشريع في الإسلام، وهذا تخشاه دار الإفتاء حفاظا على " ثوابت الأمة " من التراث والمرويات والبطولات.

هذه الثوابت التاريخية التي اندمجت في الدين وحولته عن مبادئه السمحة جعلت الرئيس الطاجكستاني يقوم بغلق ١٥٦٠ مسجد في عام ٢٠١٦ وتحويلهم إلى مراكز ثقافية ومصحات ورياض أطفال ودور لرعاية المسنين ومنع الأطفال والقصر من دخولها؛ وقال: لا حاجة لنا بمساجد يتخرج منها دواعش وإرهابيون إسلاميون، سأحمي شعبي من محرقة الإرهاب الديني الإسلامي المتطرف.. إنهم يقومون بغسيل مخ الشباب والأطفال.

في الواقع فإن ذلك يحدث لأننا نستقي أفكارنا وثقافتنا الدينية من نصوص تاريخية وليست من القرآن، وتاريخية النصوص البشرية هذه أصبحت قيدا على القرآن بسبب تشبثنا بها وعدم قدرتنا على الغوص في المعنى القرآني بمعزلٍ عن الكتابات الفقهية القديمة.. وطالما قدسنا الصحابة وجعلناهم رموز دينية مقدسة، فلا يمكن لنا أن نستطيع كشف أخطائهم أو مخالفتهم لنصوص القرآن، حتى وإن كانوا مجرمي حرب اعتبرنا القرآن منهج إجرام وطبقناه بالكيفية التي طبقوا بها ! فالصحابة على ما يبدوا صوروا أن حياتهم ومهنتهم كانت عبادة، بينما هي كانت مليئة بجرائم الحرب والسادية وعدم الإنسانية ونكاح الطفلات الصغيرات عنوة دون إذنهن وخطف الأطفال

[٧٩] ـ موقع دار الإفتاء المصرية : http://www.dar-alifta.org/ar/ViewFatwa.aspx?sec=fatwa&ID=12787

وتصديرهم لأسواق النخاسة.. هم أبناء البداية الأعراب استعبدوا أبناء الحضارات المدنية المجاورة لهم واستخدموهم كعبيد في بيوتهم وتسلطوا عليهم.. وهؤلاء العبيد صاروا هم العلماء والفقهاء الذين لملموا ودونوا الأحاديث والمرويات وبطولات أسيادهم، ولهذا جاءت في نظرهم بطولات، وطالما ظللنا نحن نراها بطولات، فهذا معناه أننا لا زلنا نئن تحت وطأة العبودية..

إلى اللقاء في الجزء الرابع..

الفهرس

مقدمة ٣

الإضاءة الأولى: مسقط رأسي: بين الدين والحضارة ١٥

- بدء البعثة النبوية ٢٧

الإضاءة الثانية: ملخص وقائع الفتح العربي لمصر ٥٨

الإضاءة الثالثة: مسقط رأسي: كيف حكمت سلالة قريش إيجبت ٨٢

الإضاءة الرابعة: كيف نشر الصحابة الإسلام في مصر ١١٩

الإضاءة الخامسة: الفتوحات العربية؛ جرائم حرب أم عبادة؟ ١٤٤

- الفرق بين الإنسانية وجرائم الحرب ونشر الأديان ١٤٥

- نشر الدين الإسلامي في فارس والعراق ١٤٩

- نشر الإسلام في شمال إفريقيا ١٨٥